
د. أحمد خالد مصطفى
الهلكوت

د. أحمد خالد مصطفى



الهلكوت

رواية

إهداء

إلى قرائي

أقرب قرائي إلى قلبي أنتم، أعتبركم رفاق الروح، أحدثكم بين السطور وأعرف أنكم تسمعونني، لا نحتاج إلى أن نلتقي فنحن نلتقي في كل صفحة، مثل هذه الصفحة الآن، أليست حديثًا.

أحبكم حقًا، وأعرف أنكم تشعرون بالمثل.

ماذا يسمون هذا النوع من الحب؟

لا أدري، فقط أحببت التحدث إليكم بلا تحضير قبل أن نبدأ.

بالمناسبة ستجدون هذه الرواية مختلفة.

ألست أقول هذا في كل مرة؟

لا بأس.

فلتبدأ الملحمة..

أحمد خالد مصطفى

1
ولد ميتا

العين تمشي ببطء في سوق قديمة في زمن سحيق، الناس تركوا أشغالهم ونظروا ناحيتها في رعب، خيل إليك أن عدستها تنظر إليهم وهي تتحرك يمينًا وشمالًا ببطء وهم يتباعدون عنها كأنهم يرون الشيطان ذاته.

بدأت العين تتحرك ناحيتهم بطريقة مقلقة فكانت تميل في كل خطوة كأنها تعرج، كان لا بد أن هذه العين تمثل عين شيطان مريد، وبخاصة أن بعض الأهالي سحبوا أطفالهم بعيدًا عن الطريق في فزع.

خرج من داخل العين صوت خافت لا يصلح أن يكون صوت شيطان ولا حتى صوت إنسان قادر على أذية أحد، لكن التجار في السوق غطوا بضاعتهم واستعدوا للفرار.

تراجعت العين إلى الوراء لتريك الكيان الحقيقي الذي ينظرون إليه ويخيفهم إلى هذا الحد، كانت امرأة في كامل زينتها تصورها العين من ظهرها وهي تعرج في يأس وقلة حيلة، استدارت العين حول المرأة ليمكنك أن ترى وجهها الذي أنهكه التعب ولم ينل من جمالها شيئًا،

رداؤها فاخر جدًا بالنسبة إلى ملابس هؤلاء الشعب الذين ينظرون إليها برعب غير مفهوم.

قالت لهم بصوت أرق من كل نسمات الصباح والمساء:

- أرجوكم.

كان لديها بروز واضح في بطنها تمسكه كل حين في ألم وهي تمشي حافية القدمين وقد تخلت عن حذائها لسبب ما وظهرت إصابة واضحة في قدمها، ورغم كل هذا الضعف وقلة الحيلة فإن الأهالي بدؤوا يدخلون بيوتهم ويغلقون الأبواب بذعر.

لم تكن هذه امرأة عادية بل هي «ماندان» أميرة هذه البلاد كلها.

تقدمت الأميرة ماشية بصعوبة وهي تنظر وراءها كل حين وكأنها تهرب من كارثة.

فجأة اهتزت الأرض بصوت أحصنة تركض وسيوف تخرج من أغمادها وخطوات ثقيلة بأحذية حربية، ارتجف قلب الأميرة وهي تنظر إلى البيوت في يأس ثم أخذت تسرع في مشيتها باحثة عن أي مكان يصلح أن تختبئ فيه.

لم تكن هناك فرصة للنجاة، فصوت الجنود يقترب ويعلو، ودموعها لم تحرك في قلوب الشعب أي شيء.

الخطأ الوحيد الذي ارتكبته هذه الأميرة في حياتها أنها ابنة الإمبراطور الأكثر جنونًا ودموية على ظهر الأرض، الطاغية «شـتاجـا» الذي أمر بالقبض عليها حية، أو ميتة.

لم يكن هناك وقت للشرح، إن الذي رأيته من فرار الأهالي وتفرقهم في كل مكان هو أكثر شيء حكيم يمكن أن تفعله لو كان يحكمك مجنون مثل شـتاجـا.

كنا في ضاحية زاغروس جنوب مملكة ميديا الغاصبة التي يحكمها شـتاجـا بالحديد والدم، وقد هربت الأميرة إلى الجنوب لتنجو بنفسها ووليدها من الذبح، لكنها كانت وحدها، ليس معها أحد، لا أحد يجرؤ، كي لا تطير رقبته، حتى قدمها تخلت عنها فأصبحت تتعثر في كل خطوة وتقوم بصعوبة، اختفت خلف جدار وهي تسمع الجنود يستجوبون الأهالي ويدفعونهم كأنهم خراف.

لم تقدر ماندان على الوقوف، سال دمعها الساخن على وجنتها البيضاء وانهارت على ركبتيها، إن هناك حدًّا معينًا للتخلي، عندما تتخلى عنك الأرض كلها ستسقط لا محالة.

صوت الجنود تسمعه يدب على الأرض ناحيتها، وفي كل خطوة يخطونها تسقط روحها من الخوف، حتى جاء أوانها، ورأت ظلًّا ضخمًا يغشى الأرض من حولها ويرفع يده بسرعة ليقبض على رقبتها.

وبالفعل جذبتها يد قوية حتى كادت تختنق، نظرت بفجع فوجدت امرأة بدينة ذات ملامح صارمة أمسكت بها من ياقة فستانها بعنف ورمت بها إلى داخل المنزل وأغلقت الباب.

كانت ترتعش، بينما المرأة البدينة تنظر من النافذة من وراء الستار بحذر وهي تقول:

- إن لم يجدك هؤلاء الضباع سيقتحمون البيوت واحدًا واحدًا حتى يظفروا بك، لا يمكنني أن أبقيك هنا طويلًا.

لم تكف الأميرة عن الارتعاش لحظة حتى جاءت البدينة ووضعت رأس الأميرة على كتفها وربتتها ثم هرعت إلى الداخل وأحضرت خليطًا من الأعشاب الفارسية وبدأت تعالج قدم الأميرة وهي تقول:

- سأخرجك من هذا الباب الخلفي، لم يعد لديك وقت، ستمشين في زقاق ضيق يوصلك إلى ناحية الجبل، وهناك عليك الاختباء في أي مغارة، وسآتي للبحث عنك.

ثم نظرت إليها البدينة وهي تربط على قدمها الجريحة وقالت:

- بالمناسبة، اسمي «ليزا».

فتحت الأميرة فمها لتتحدث من وسط رجفتها لكن صوتها انكتم في مكانه، ففي تلك اللحظة سمعا صوتًا يعبث بقفل المقبض في قوة، ثم اندفع باب المنزل بضربة هراوة كسرت القفل، بأقصى قوة ممكنة.

***

سقط قلب الأميرة ماندان إلى أسفل قدمها وهي تشاهد رجلًا مشعرًا ضخم الجثة ذا ملامح حربية واضحة يحمل هراوة ضخمة وينظر إلى الأميرة والشرر يكاد يخرج من عينيه وقال بغضب:

- إذن فالأميرة الهاربة هنا.

قالت له ليزا بغضب:

- ما الذي جعلك تقتحم البيت بهذه الطريقة يا «هرمز».

قال لها في شيء من الحدة:

- ما كنت لأسمح أن يمسوا شعرة واحدة منك يا ليزا، إنهم يفتشون البيوت ويذلون أهلها وكأننا مثل الكلأ المستباح وأنت ألجمتِ الباب إلجامًا.

نظرت ليزا إلى الأميرة فوجدتها قد أجفلت بوجهها إلى الأرض في حسرة فقالت لها:

- هذا زوجي هرمز، معذرة يا سيدتي إنه همجي لكن فيه نخوة، وهو يعمل راعيًا لأغنام أبيك الملك شـتاجـا، وكان يعمل جنديًّا في جيش المملكة أيام شبابه.

قال هرمز وهو ينظر إلى بطن الأميرة:

- ما الذي فعلتِه لأبيك الملك حتى يأمر بك حية أو ميتة؟ هل جلبت له العار بهذا الطفل؟

رفعت الأميرة عينها في حدة ممزوجة بالدموع ثم أنزلت رأسها للأرض، فقالت ليزا لزوجها بعينين تبرقان من الغضب:

- أي شيء أنت؟ ألا يكفيك ما هي فيه حتى تتحدث في شرفها أيضًا؟

قالت ماندان وهي لا ترفع رأسها:

- لقد قبضوا على زوجي الأمير وقتلوه.

وصلت إلى الأسماع ضجة قادمة من بعيد فقالت لها ليزا:

- سيدتي، يجب أن تخرجي الآن فقد اقتربت أصواتهم، الجبل قريب جدًّا من هنا، إن هذه الزيوت ستخفف ألم قدميك.

خرجت الأميرة وهي تتحامل على نفسها وتمشي في ذلك الزقاق الخلفي الطويل الضيق، ولم يكن الأمر يسيرًا جدًّا كما صورته ليزا، بل إن هذا الزقاق عندما انتهى كانت هناك ساحة كبيرة فيها سوق الإماء ووراؤها يقبع الجبل، ولم تكن الساحة آمنة بل إنها ترى بعض الجنود يتجولون هناك جيئة وذهابًا.

نظرت ماندان إلى الجواري في سوق الإماء وهن جالسات في مذلة والمشترون يطوفون بهن، جاءتها تلك الخاطرة رغمًا عنها، ليتك يا ماندان كنت جارية لا شأن لها.

ثم جاءت لها خاطرة أخرى فنظرت إلى فستانها الفاخر لحظة ثم بدأت تخلعه في سرعة وقطعت ما استطاعت من ردائها الداخلي لتشبه ملابس الجواري وخلعت كل ما في رأسها من ذهب ورمته أرضًا، وتحركت وهي ترتجف إلى الجواري ووقفت بينهن في ثبات ملتبس بالقلق.

ولم تلبث إلا أن جاءها صاحب الخيمة وقال لها بحدة:

- أنت، من أين جئت يا جارية؟

قالت له بنفَس متردد:

- لقد هر.. هـــ.ربت من سيدي.

نظر الرجل إلى ملامحها الرقيقة وعينها البنية الدافئة وبطنها البارز ثم نفض ما برأسه وقال:

- لا تحدثي لي المشاكل مع التجار يا امرأة، اذهبي من هنا.

قالت ماندان:

- ســـ.أنتظر ليأتي ســـ.يدي ويأخذني.

قطع الحديث صوت الجنود الذين يدورون في الأرجاء وأحدهم يقول:

- تلك الأميرة اللعينة الهاربة ستُقطع بسببها رؤوسنا كلنا، ائتوا بها حية أو ميتة.

ضاقت عين الرجل صاحب الخيمة وقد أنار عقله بالفهم فالتفت إلى الأميرة بغضب واتسعت عيناه بالدهشة، فقد كان مكانها خاليًا، نظر يمينًا وشمالًا ليلحظها بلا فائدة فقال لنفسه في شرود:

- اللعنة لقد كانت هي.

في اللحظة نفسها كانت ماندان تركض عند الجبل وبدأت تسلك طريق الصعود الممهد وهي تتحامل على قدمها المصابة، لم يكن لديها طريق آخر، بدأت تبحث بنظرها هنا وهناك عن أي مكان يصلح للاختباء.

وهناك عند السوق كان ذلك الرجل صاحب الخيمة يتكلم مع أحد الجنود ويقول له:

- تلك المرأة هربت هناك عند الجبل، لقد شوهدت تجري ناحيته.

أمر الجنود فرقة من عشرين فارسًا أن يركبوا أحصنتهم ويتجهوا ناحية الجبل بأقصى سرعة.

لم تكن أمام ماندان أي مغارة أو صخرة تصلح لإخفائها، وارتعب قلبها أكثر حينما سمعت صوت حوافر الجياد فأسرعت ومدت في خطوتها حتى صعدت إلى تلة ظلماء تطل على هاوية، نظرت خلفها لترجع لكنها رأت الجنود من بعيد يصعدون المرتفع فاندفعت إلى حافة الهاوية.

وعلى رأس تلك الهاوية رأت رجلًا واقفًا من ظهره يرتدي عباءة الرهبان ويقف عند الحافة والهواء يطيِّر رداءه فانطلقت إليه وهي تناديه بصوتها الهزيل، التفت إليها الراهب فانخلع قلبها للحظة ثم هدأت.

كان يرتدي قناعًا يخفي نصف وجهه وله عين واثقة جامدة المشاعر، لم يكن قناعه هو سبب ارتعابها الأول، فهي تعلم أن هناك طائفة من الرهبان في ميديا يرتدون القناع، لكن شيئًا في ملامحه الظاهرة في نصف وجهه كان له رهبة.

لم يبد على الراهب أي اهتمام بصوت الجنود الآتي، وكان ينظر إليها بجمود ولم يبدُ عليه أي بادرة لمساعدتها، فانخفضت إلى الأرض مختفية عن الجنود الذين تقدموا بسرعة ثم توقفوا فجأة فور رؤية ذلك

الراهب ونظروا إلى بعضهم ثم انحرفوا إلى طريق آخر بعيد تمامًا عن تلك الحافة.

كادت هذه لتكون قصة رائعة عن راهب الجبل الذي أنقذ الأميرة الحامل لولا أن..

***

قبل ثلاثة أيام..

امرأة تصرخ على سريرها والدايات يحطن بها من كل موضع، وإحداهن تضع قطعة قماش في فمها والأخرى تثبت قدميها والثالثة تضع يدها بحرص بين قدميها، والمرأة تصرخ كأن آلام العالم قد اجتمعت في حوضها، وبدأت الداية الأساسية تمسك بيدها شيئًا من داخل الرحم وتجذبه بشكل مدروس.

ووسط صرخات المرأة وأنينها توقفت الدايات كلهن في وقت واحد عن أي شيء يفعلنه ونظرن بدهشة إلى الداية الرئيسية، فلم يكن الذي سحبته من بطن المرأة طفلًا، ولا أي كائن حي يتحرك، إنما كانت تسحب غصنًا من ورد أحمر، وكلما سحبت استمر الغصن في الخروج بأزهاره كأنه لا ينتهي، بل إنه بدأ يتفرع إلى فروع في كل فرع مئة فرع مليئة بالورود.

توقفت المرأة عن الصراخ ونظرت بدهشة بالغة إلى هذا الذي خرج منها وأصبح يتفرع كأنه غصن شيطاني، ثم عادت المرأة إلى الصراخ، ليس من الألم هذه المرة بل من الرعب، فهذه الأزهار التي خرجت منها تحولت في طرفة عين إلى ثعابين حمراء تتلوى في الهواء وتفتح فكوكها وتخرج ألسنتها المشقوقة، ولم تعد تسمع شيئًا سوى فحيح الثعابين الذي غطى على أي صوت سواه حتى صوت الصراخ، وخرجت الثعابين

من النافذة وانتشرت على أرض المدينة وزحفت إلى كل مكان وتكاثرت حتى احتلت المملكة كلها.

وفجأة صرخ شخص آخر له صوت ثقيل خشن، صرخ من الفزع في غرفته الملكية والعرق يغمر جبهته، كانت عينه مليئة بالخوف من هول ما رآه في منامه، ولو أن هذا كان رجلًا عاديًا لما اهتم أحد ولا سجل أحد هذه الرؤيا في كتب التاريخ، إنما عرفناها لأن الذي رآها كان هو شـتاجـا، إمبراطور مملكة ميديا.

وليست هذه التي رآها تلد الثعابين هي أي امرأة، بل هي ابنته ماندان.

وخرج شـتاجـا من عرينه في ذلك اليوم وكل غضب الأرض يظهر في وجهه، وكما هي عادة الملوك الذين يرون كوابيس في الممالك القديمة، جمع إليه كل حكماء مملكته، الكهنة والعلماء والأطباء وكل من هو صاحب رأي في أي ناحية من أنحاء المملكة، ولقد شهد القصر في هذا اليوم زحامًا غير عادي.

المشكلة أن شـتاجـا كان طاغية، ويقتل في الوضع العادي أي شخص لا يوافق كلامه هواه، فلم يجرؤ أحد على أن يقول أي تأويل سيئ لهذه المصيبة التي رآها، حتى خاصة الخاصة من الحكماء والحاشية كانوا ينظرون إلى بعضهم بعضًا خفية كي لا يقولوا شيئًا ولو يسيرًا.

حتى دخل ذلك الرجل، رأيناه من ظهره في البداية وهو يدخل بخطوات واثقة بتلك العباءة الطويلة التي يرتديها، التي تميز الكهنة، ولوحظ أن الجنود والحرس والحاشية يعتدلون في وقفاتهم ويتباعدون إذا مر بجوارهم، ثم رأينا هذا الرجل ينحني على الأرض ويفعل شيئًا ما مثل هيئة السجود، وقبَّل الأرض بين قدمي الملك.

ثم رفع رأسه إلى الملك الذي قال له بشيء من القلق:

- أيها الحكيم غريم، أفتني فيما رأيت، في منامي كانت ابنتي ماندان تلد و...

قاطعه الحكيم غريم بلا خوف من المقاطعة:

- أعرف جيدًا ما رأيت أيها الملك، وإن عليك أن تعلم أنه ما وُلد مولود إلا للفناء، ولا بقاء على هذه الأرض لأحد من الآحاد، فاستعد للأمر فإنه قد حضر أو كاد، وإنه سيكون زوال ملكك قريبًا على يد ابن ماندان، فأنت تعلم أنها خرقت المراسيم وتزوجت أميرًا فارسيًا رغم أننا احتللنا أرضهم، ثم حملت منه، فإن لم تقدر أن تقتل ابنتك لتنتزع أصل الشر، فاقتل وليدها واذبحه ذبحًا قبل أن يذبحك ويفرق أطرافك على أرجاء المملكة ويتحول الملك عن عائلتك المقدسة إلى الفرس الأراذل.

صمت تام عم الأرجاء بعد هذه الكلمات الثقيلة والكل ينظر إلى وجه الحكيم غريم، والحق أنه لم يكن حكيمًا عاديًا، بل كان يرتدي قناعًا على نصف وجهه، والنصف الآخر تظهر ملامحه التي تبعث الرهبة.

كان غريم زعيم طائفة رهبان في الجبل يسمون نفسهم الماجي، وكلهم سحرة يخشاهم الناس ويتحاشونهم، وليسوا أي سحرة بل أرباب سحر أسود ورثوه جيلًا بعد جيل منذ سحرة النمرود، وغريم بالذات كانت تحوم حوله الكثير من الأساطير كلها تدور على أنه هو الشيطان ذاته.

انطلق جنود شـتاجـا على الفور بعد هذه الجلسة إلى قصر الأميرة ماندان ليقبضوا عليها حية أو ميتة إذا هربت.

وقد هربت بالفعل كما رأينا في الافتتاح، وقادها حظها التعس إلى الجبل وليس إلى أي موضع في الجبل، بل إلى التلة الظلماء، قرب دير رهبان الماجي، ولقد مشت إلى هناك بقدميها وأصبحت تنادي كبيرهم،

ولا تدري ما هم، فكان الذي لاقاها في تلك الليلة هو غريم نفسه، أكبر كيان مرعب في مملكة ميديا كلها.

ولم تمض ساعات على لقائها معه إلا وباب زنزانة يُفتح وأميرة البلاد تُلقى بالداخل بقسوة شديدة، فقد سلمها غريم إلى الملك وأشار عليه أن يسجنها حتى تلد، فإذا ولدت يذبح ولدها بأبشع طريقة ممكنة، وإن لم يفعل هذا فليقل على مملكته السلام.

***

صورة من داخل عين طفل مولود، حُكم عليه أن تكون أول ليلة يقضيها في حياته هي على أرضية سجن قذر، إضاءة ضعيفة من مشعل في الرواق، رأس الوليد على الأرض وعيناه تنظران إلى الأعلى، كان أول ما رأى رؤوس الدايات اللواتي ينظرن إليه في حزن، أدار رأسه الصغير فوجد امرأة ملقاة على الأرض بلا حراك، كانت هذه أمه ماندان التي لا يتبين إن كانت ميتة أم في حالة إغماء، نظرات الدايات إليه وترقرق أعينهن يظهر لك أن الطفل كان قطعة قمر، حتى ذلك الحارس هناك على باب السجن كان ينظر في خليط من الانبهار والحزن.

فجأة سُمعت ضجة وأقدام تقترب وحارس السجن يعتدل وينحني راكعًا، ثم يدفع القضبان شخص كل شيء فيه عسكري بحت، لباسه الحربي وملامحه ونظراته شديدة الصرامة، كان ذاك هو الوزير «هارباك» قائد جيش الإمبراطور شـتاجـا، ومعه أمر مباشر أن يقتل الطفل المولود بنفسه.

اقترب هارباك من الطفل ونظر إليه فظهر في ملامحه الصارمة شيء من اللين لم يستمر سوى ثوانٍ، ثم مد يده ورفع الطفل الذي بدأ يبتسم فأوقع قلوب كل من في المشهد، حتى هارباك ارتجفت يده قليلًا وهو

يحمل الطفل ويغادر الزنزانة ولم ينظر حتى إلى تلك الأم ليعرف إن كانت ماتت أم ما زالت على قيد الحياة.

كانت الصورة من داخل عين الطفل تظهر وجه هارباك من زاوية سفلية وملامحه تعتريها الصرامة، لكنه لم يقدر أن يمنع نفسه من النظر كل حين إلى الطفل، نظرة طويلة أحيانًا ثم يكمل طريقه، وانغلقت عينا الطفل واسود المشهد تمامًا.

انفتحت عينا الطفل مجددًا فبدا له ما يشبه السقف المزخرف بعناية، كان يرقد على سرير فاخر في بيت هارباك الذي وقف أمام السرير وبجواره زوجته التي كانت تنظر إلى الطفل في قلق مشوب بالحزن، ثم قالت لزوجها:

- لماذا ستطلب أحدًا من رعاة الغنم في ضاحية زاغروس ليقتل الطفل؟

نظر هارباك إلى الطفل وقال:

- إن أوامر شـتاجـا هي أن تُقطع أواصر الطفل، فسأعهد لواحد من الرعاة جنوب العاصمة أن يرميه عندهم في جبال زاغروس القاسية لتأكل الذئاب رأسه.

نظرت إليه امرأته مطولًا ثم قالت:

- ليس هذا جواب سؤالي، كان يمكنك أن تقطعه إربًا بسيفك، لكنك لا تريد أن تقتله، أنت تريد أن تكون له فرصة ولو ضئيلة في الحياة.

تنهد هارباك وقال:

- هذا الطفل شاء الملك أو أبى هو طفل من العائلة المالكة، وأنا لا يمكن أن أقتل بسيفي أحدًا من العائلة المالكة على الإطلاق ولو

كان بأمر الملك، ثم إنه يستحيل أن تكون له فرصة في الحياة، فالملك أمر أن نأتي له بجثته بعد التقطيع.

نظرت المرأة في حزن شديد إلى الطفل ثم ظهر صوت شخص يقول:

- أيها الوزير، لقد أتى الراعي.

ومن داخل عين الطفل كان يمكنك أن ترى الراعي وهو يدخل، رجل مشعر ضخم الجثة انحنى أمام الوزير وتكلم معه قليلًا، ثم انفجع من الكلام فأجفل متراجعًا وهو يهز رأسه رافضًا لما سمع، ثم نظر إلى الطفل بعينين فيهما ذعر واستنكار عظيم، هذا الرجل الضخم إن لم تكن قد تنبهت هو هرمز زوج المرأة البدينة ليزا الذي اقتحم البيت بالهراوة في المشهد الأول.

كان يبدو أن قدر هذا الرجل في هذه الفترة هو قدر سيئ جدًّا، سمعناه يقول للوزير:

- سيدي أرجوك، لا يمكنني أن أقتل طفلًا، أنا نفسي أنتظر طفلًا من زوجتي خلال أيام، ماذا سيفعل بي الرب إن قتلت طفلًا! هذا مستحيل.

أمسك هارباك بياقته بيد من فولاذ وقال له:

- إن لم تقتل هذا الطفل وتقطعه إربًا فلن تنتظر أحدًا يا هرمز، سآمر جنودي ليقطعوك أنت وامرأتك وما في بطنها ونرميكما إلى الكلاب البرية.

دمعت عين الراعي هرمز وهو يمسك بالطفل برجفة واضحة، كانت الأوامر أصعب عليه من أي شيء في الدنيا.

كان هرمز يحمل الطفل ويمشي في الأحراش ولا تكف شفتاه عن التحدث إلى نفسه بحسرة ولا تكف عيناه عن إفاضة الدمع، حتى وصل

إلى الجبل، ووضع الطفل على الأرض وتراجع ليختفي وراء صخرة قريبة.

حركات يد وقدم الطفل في الهواء وابتسامته البريئة كانت تزيد الأمر صعوبة، فيكاد قلب هرمز ينخلع من مكانه، حتى ظهر في الأجواء صوت زمجرة مكتومة مميزة للذئاب.

نظر هرمز من وراء الصخرة في فزع ثم أخفى نفسه وجلس وأسند ظهره إلى الصخرة ورفع رأسه إلى السماء وهو يكاد يصرخ من الأسى، ثم وضع يده على أذنه لئلا يسمع شيئًا.

وكان المنظر من عين الطفل لا يبشر بخير، فآخر شيء رأته عيناه الصغيرتان هو ذئب رمادي مفترس يزمجر بغضب وتنفرج أنيابه ولعابه يسيل بينها وعينه تلمع بشيء من الاحمرار، ثم دفع الذئب نفسه بقوة الهجوم وفتح فكه في اهتياج.

***

خطوات هرمز المتثاقلة تمشي مبتعدة عن موضع الذئب، عيناه جاحظتان من شدة الهول الذي رآه وشهد عليه بنفسه، نزلت دموع هرمز حارة حارقة تحمل كل الأسى الذي في نفسه، كيف طاوعته نفسه؟ سرت في جسده رجفة وهو ينظر إلى السماء كأنه ينتظر كارثة ستحل على رأسه، بل لعنة ستلعنه بقية حياته، كان قد اقترب من بيته كثيرًا وهو يؤخر قدميه حتى لا يبلغه، ولما رأى المنزل انقبض قلبه بشكل غير مفهوم فأسرع خطواته ودخل إلى المنزل.

وفي أول خطوة خطاها هرمز داخل بيته نظر إلى امرأته التي كانت راقدة على سريرها وبصرها شاخص إلى الأعلى في ألم واضح على كل جنبات وجهها، وبجوارها يرقد طفل مولود نائم في سلام.

اتسعت عيناه في مشاعر بين المفاجأة والفرح وهرع إلى السرير وملامحه تملؤها الدموع، لقد كان ينتظر هذه اللحظة منذ أيام، فلماذا جاءها المخاض وولدت اليوم؟ ولماذا الآن؟ ازداد رعبه وهو ينظر إلى مولوده النائم في قلق.

- لقد مات ولدنا يا هرمز.

نظر إليها هرمز بنظرة لم ترَها منذ أن عرفته، نظرة تكاد تتحدث، وربما لا تكفي حروف العالم حتى تصفها، تجمدت الدموع على كل أخاديد وجهه وحلت محلها نظرات إنسان مفزوع كأنه ينظر إلى ملك الموت القادم ليأخذ روحه.

قالت له ليزا:

- لقد كان سليمًا تمامًا حينما ولَّدتني الدايات، وبعد أن تركنني وانفردت به، ارتفعت حرارته فجأة كأنما أصابته لعنة من السماء وأخذ يشهق حتى انكتمت أنفاسه تمامًا.

كان هرمز ينظر إلى الأعلى وقد جحظت عيناه وكل جزء في جسده يرتجف وبدأ يتمتم بكلمات غير مفهومة.

قامت ليزا بصعوبة شديدة واقتربت من زوجها الذي كان ينتفض ويشهق حتى سقط من يده شوال كان يحمله، كان يقول ببطء وبعشوائية:

- أنا الذي تركت.. الطفل.. ثم أتى الذئب.. اللعنة التي..

فجأة أحست ليزا بحركة داخل الشوال، فاقتربت بحذر وفتحت الشوال الذي خرجت منه قدم تضرب الهواء، قدم طفل رضيع، لم يكمل يومًا واحدًا.

أخرجت ليزا من الشوال طفلًا باهر الجمال عليه رداء ملكي وله ملامح تأخذ القلب وهو ينظر إليها وعينه تضحك لها.

دقائق طويلة مرت وليزا تحاول أن تهدئ من روع زوجها غير المفهوم حتى هدأ وبدأ يتكلم ويحكي، عن الوزير هارباك الذي استدعاه ليقتل الرضيع ابن الأميرة ماندان، ويصر أن يرى جثته وإلا سيعلق جثة هرمز وزوجته وابنه الوليد على باب القصر.

حكى لها عن ذلك الطفل حينما وضعه حيثما وضعه ثم أتى الذئب المفترس يزوم ويفتح فكه لينهش الطفل، وعن تلك الصخرة التي كان يختفي وراءها ويسد أذنيه بيديه حتى لا يسمع، ثم مرت الثواني الثقيلة، وبدأ هرمز ينظر من وراء الصخرة فاتسعت عيناه في ذهول.

حدَّثها عن الذئب الذي سال لعابه المخيف ثم اندفع ناحية الطفل وبدأ يحني رأسه ويدفع الطفل بشيء من الرفق، ثم يقرب وجهه من وجه الطفل ويتشممه ثم يلعق خده، ثم أخذ يدور حوله ويصدر أصواتًا كأنها همهمات ذئبة أم تتودد إلى طفلها، ومرت الدقائق وهرمز ينظر في دهشة حتى قرر الذئب أن يغادر المكان في سلام.

ذهب هرمز إلى الطفل وحمله ووضعه في الشوال الذي كان يريد أن يحمل فيه جثته، ومشى بتثاقل وكل معاني الألم والندم تتجسد في عينيه، فهو إنسان قاتل، ترك الطفل للذئب ليقتله، فكان قلب الذئب أحن على الطفل من قلبه.

نظر هرمز إلى طفله الميت في حزن، لم يعد لديه ما يخسره، قال لزوجته:

- سأسلم هذا الطفل المعجزة إلى الوزير هارباك وسأرفض الأوامر، وليقتلني إذا أراد، حتى لو...

قاطعته ليزا بقوة:

- بل لن تسلم هذا الطفل إلى أحد، أنا سآخذ هذا الطفل هنا.

قال لها هرمز:

- لكن يا ليزا إنهم سيأتون و...

قالت ليزا بحزم:

- إن أرادوا جثة طفل مأكول، فسأعطي لهم جثة طفلي الميت هذا.

قال لها هرمز:

- هل جننتِ؟ ما الذي...

صرخت فيه فجأة:

- إن سلمناهم طفلنا الميت، فقد أنقذنا أنفسنا من القتل، وأنقذنا هذا الطفل الملكي من أن يقتلوه، وأخرجنا الأميرة ماندان من سجنها، بل إن طفلنا الميت سيحصل على جنازة ملكية ما كنا لنحلم بها يومًا، فصاحب الدم الملكي وإن قتله الملك لا بد أن يحصل على جنازة ملكية كما تقول المراسيم.

***

مشاهد متوالية كتبت تاريخًا يُحكى منذ آلاف السنين، عُرضت لك كلقطات فلاش سريعة، عن طفل كتب له ربه النجاة، رغم أنف الجميع.

مشهد ليزا وزوجها هرمز يختبئان خلف الصخرة ويُلبسان طفلهما الميت الملابس الملكية ثم يضعه هرمز على الأرض بيد مرتجفة وهو يمني نفسه أن يأتي له ذلك الذئب الرحيم نفسه.

دموع ليزا التي سلمت جثة ولدها إلى براثن الضواري وهي تهدئ نفسها بأن المملكة كلها ستسير في جنازته، وكأن هذا سيفيد طفلها بشيء.

الذئب نفسه الذي يريده هرمز قد أتى، وعرفه بلون ذيله الذي يختلف عن لون جسده، ذلك الذئب الذي ترك وجبة شهية منذ قليل، ربما لأنه ليس جائعًا، أو أن قلبه رحيم فعلًا.

لكن كل هذه الأحلام تحطمت عبثًا عندما هجم الذئب على جثة ابن هرمز الميت وفتك بها فتكًا حتى نهشها من جميع جوانبها وكأنه ينتقم.

لقطة هرمز وهو يضرم النار في مشعل في يده ويخرج من وراء الصخرة ويلوح بهراوته إلى الذئب الذي نظر إلى هرمز في غضب ثم هرب وترك جثة الطفل المأكول التي لم يعد لها ملامح تقريبًا.

الوزير هارباك وهو يفتح الغطاء الملكي وينظر إلى جثة الطفل الذي قدمه له هرمز، فأعرض بوجهه في اشمئزاز ثم أخذ ذلك الغطاء الملكي الذي أصبحت الدماء تتساقط منه ووضعه تحت عرش الملك شـتاجـا، الذي قام واقفًا وظهر في عينيه جذل وهو ينظر إلى جثة الطفل ويملي عينه بكل موضع فيها.

منظر ماندان التي أخرجها الحراس من سجنها وهي تتكئ عليهم ولا تقدر قدماها على الخطو، ثم يأتيها رجل من الجنود يحمل ذلك الغطاء الملكي الذي حمَّرته الدماء فتسقط ماندان على ركبتيها وتنهار وتفقد الوعي في الحال.

ومشهد أخير لتابوت مزخرف ثمين جدًّا يسير به الجند في أنحاء مدينة «إكباتان» العاصمة التي فيها قصر شـتاجـا، وخرج أهلها كلهم يسيرون وراء الجنازة وبعضهم يرمي الورود في الطريق، وماندان موضوعة في الهودج الملكي وقد هربت الدماء من وجهها فتركته شاحبًا مصفرًّا كأنها مقبلة على موتها.

وإن ربك إذا أراد لنفس أن تعيش فستعيش وإن اجتمع الإنس والجن على أن يقتلوها، ولقد قدر ربك المقادير في مملكة ميديا التي انقلبت

رأسًا على عقب حتى تقتل طفلًا لا حول له ولا قوة، فنجاه الله من كيدهم وكتب له النجاة.

ووسط هذه الضجة كلها والأهالي الذين يتصنعون البكاء والجنازة التي تسير في الطرقات، والطبول التي تضرب فتصم الآذان، كان ذلك الطفل الملكي الذي خبأته ليزا في بيتها وسط ألحفتها الفقيرة يحرك يديه ورجليه ويبتسم بسمات طفيفة، كأنما يشكر ربه الذي نجاه.

***

بعد سبع عشرة سنة، نزلت العين إلى مدينة إكباتان مجددًا وأصبحت تسير مسرعة وتنعطف بين الأزقة متجهة إلى مكان واحد محدد، ساحة الشوجان.

وقبل أن أشرح لك ماهي الشوجان سمعت بأذنك ضجة كبيرة وراحت العين تقترب من تجمهر كبير من الشباب والأهالي احتشدوا حول ساحة واسعة تجري فيها عدة خيول بشكل سريع وغير منتظم، تجاوزت العين الصفوف لترى أكثر.

هناك شباب يركبون خيولًا ويمسكون في أياديهم بعصي طويلة يلوحون بها كل حين على الأرض، توجهت العين إلى أسفل قليلًا لتجد أن هناك كرة جلدية يضربونها بينهم من فوق الخيول بالعصا في قوة ومهارة فائقة.

تجولت العين بينهم حتى ركزت على فتى واحد منهم له ملامح مميزة وعدائية نوعًا، شعر طويل أسود منسدل على كتفه، حاجبان طويلان يكادان يلتقيان، أنف طويل، عيون سوداء قوية ضيقة، لم يكن لهذا الفتى أي نظير يكافئه قوة في هذه اللعبة، بل إن الجميع يهابه، قدرته الفائقة على السيطرة على الحصان لا تقارن بالبقية، وكذا طريقته في

الإمساك بالعصا والإبقاء على الكرة في حوزته، وشخصيته القوية وعنفه الواضح في كثير من الأحيان يبعد الكثيرين عنه، كان اسم هذا الفتى «آرتي»، وكان المحتشدون يصيحون باسمه كل حين في حماس.

وكما ترى، يمكن لأي لاعب شوجان أن يكون فارسًا لا يشَق له غبار، بينما ليس أي فارس يقدر أن يلعب الشوجان، ولقد تعدى آرتي مرحلة الفروسية وهو لم يبلغ عامه العشرين بعد، المشكلة أن هذه اللعبة بقيت منحصرة في طبقة معينة لأنها تعتمد على الخيول القوية المدربة، فكل من يلعبها هم أبناء النبلاء، ويكتفي بقية الشعب بالمشاهدة.

بدأ اللاعبون يخرجون من الملعب وبقي آرتي وحده، وأصبح يدخل له الملعب شخص واحد فقط في كل مرة ينازله في الشوجان، هناك عمودان في كل جهة من الملعب كما ترى، من يقدر أن يتجاوز بينهما بفرسه يفوز، وكان آرتي يهزم الجميع، ثم دخل فتى مظهره أكثر لفتًا للنظر من آرتي ومن كل الفتيان في المدينة.

ضيق آرتي عينه وهو ينظر إلى الفتى القادم في تفحص، لم يكن يعرفه، فليس ابن نبيل من النبلاء المعروفين، كما أن هذا الشكل يبدو غريبًا جدًّا على فتى نبيل.

كان الفتى القادم يملك شعرًا ذهبيًّا طويلًا يجمعه كله في ضفيرة عريضة واحدة تبدأ من ناصية جبهته إلى آخر عنقه ثم ينقسم إلى ضفيرتين من أعلى الظهر حتى منتصفه، ويملك حاجبين ذهبيين وعينين بنيتين وملامح شديدة الوسامة، لم تكن ملابسه تماثل أبناء النبلاء ولا حتى تقترب منهم، بل كان فقيرًا كما هو واضح من حذائه المهترئ الذي لا يساعده على إلجام سرج الحصان الثمين الذي يركبه، الذي لا يتناسب مع مظهره على الإطلاق.

تحولت ملامح آرتي من الدهشة إلى السخرية وهو ينظر إليه من أعلاه إلى أسفله وقال:

- من أين سرقت هذا الفرس بالضبط يا صعلوك؟

قال له الفتى الغريب بتحدٍّ:

- تخيل أن ينهزم آرتي الذي لا يشَق له غبار بفرس مسروق.

لمعت عين آرتي في شيء من الجذل وتحولت ملامحه إلى الصرامة وهو يدفع الكرة بعصاه، كانت العصا في هذه اللعبة لها نهاية تشبه المطرقة الثنائية الجوانب حتى تضرب الكرة بسلاسة، بقي الحشود صامتين من الانبهار وهم يشاهدون مواجهة لم تشهد عيونهم مثلها قبلًا.

فهذا الفتى الغريب كان شديد البراعة، والفرس الذي يركبه يفهمه تمامًا كأنما تربى معه، ولقد كان هذا صحيحًا إلى حد ما، فإن هذا الفتى هو ذاته الطفل الذي رباه الراعي هرمز، الذي ترقى بعد الحادثة الأخيرة من راعي أغنام الملك إلى ناظر الخيول الملكية. وكان يأخذ معه ذلك الطفل الذي أصرت ليزا على تربيته، وكلاهما يعرف أنه ابن ماندان، وحفيد إمبراطور البلاد، لكنهما صمتا تمامًا ولم يخبراه هو نفسه، حتى لا يصيبه مكروه.

سمته أمه «سايروس» ورباه هرمز بين الخيول وعلمه الفروسية لكنه كان متمردًا، كثيرًا ما يغافل الحراس بمهارة ويسرق حصانًا من الإسطبل الملكي ويتجول به هنا وهناك.

كان آرتي وسايروس يدوران حول بعضهما فوق فرسيهما ليحاول آرتي المرور بالكرة، لكن سايروس كان حريصًا وماهرًا جدًّا.

قال سايروس:

- أرى أنك هزمت الجميع، فعلى ماذا تلعبون؟

قال آرتي بتحدٍّ:

- على الذي يصير ملك الشوجان.

فجأة هجم سايروس بحركة مباغتة ومال بجسده كله إلى الأسفل حتى كاد يظهر أنه سيقع من الحصان، لكنه كان متشبثًا بأقدام من حديد ومد عصاه بضربة مباغتة ليأخذ الكرة ويمررها من بين أقدام حصان آرتي ثم يتجاوزه في حركة لم يشهد هؤلاء مثلها قبلًا.

توقف آرتي مكانه متجمدًا وهو يقول:

- اللعنة.

ثم استدار وهجم بالخيل بأقصى سرعة على سايروس الذي كان قريبًا ليصل إلى العمودين، لكن آرتي ضرب حصانه بالعصا في خرق واضح لقوانين الشوجان، فانتفض حصان سايروس من الألم فرفع قائميه الأماميين وأوقع سايروس الذي اعتدل في مهارة ونظر إلى آرتي الذي نزل عن فرسه وهجم على سايروس بالعصا.

تعالت همهمات الحشود ولكن لم يتدخل أحد، فليس المرء يرى مشهدًا مثل هذا كل يوم، كانت مبارزة بالعصي انحبست فيها أنفاس الحاضرين، وما أدهشهم ليس قوة وسرعة الضربات من الجانبين، لكن أن يكون هناك فتى يكافئ آرتي أصلًا، بل يتفوق عليه كما هو واضح من الحركة الأخيرة حيث رفع عصاه من الأسفل إلى الأعلى بطريقة مدروسة فطارت عصا آرتي بعيدًا وهوى سايروس بعصاه على وجه آرتي بنهاية العصا التي تشبه المطرقة فانفجرت الدماء من رأس آرتي ووقع على الأرض وهو يمسك بموضع الدماء من رأسه في دهشة وغضب.

هرع أهل آرتي إليه يقيمونه عن الأرض ويمسكون به لئلا تتطور الأمور إلى شيء كبير، وصاح أحدهم في سايروس:

- أنت أيها الصعلوك، ألا تدري من الذي تمد يدك في وجهه، هذا آرتي ابن الوزير هارباك، وإني سأصل بالأمر إلى شـتاجـا ليحاكمك ويقص رأسك حتى لا يتجرأ صعلوك مثلك على النبلاء يا سارق الجياد الأخرق.

وكانت المرة الأولى التي سيواجه فيها سايروس جده الطاغية شـتاجـا، ولم يكن أحد منهما يعرف الآخر.

***

فجأة وجد سايروس جندًا مجندين يحيطون بالبيت الفقير الذي تربى فيه واقتحموه عنوة وأخذوه مقيدًا بالحبال للمحاكمة.

كان شـتاجـا يستغل هذه المحاكمات لتعزيز مكانة النبلاء وكسب رضاهم وإذلال الشعب أكثر، لذلك كان يجعلها علنية، ومهينة.

وكان لا بد من حضور جميع أهل المدينة ومن لا يحضر يُبلغ عنه ومصيره معلوم.

لم يكن يظهر على سايروس أي مظهر من مظاهر الخوف رغم أن هذه المحاكمات نهايتها معروفة، السجن أو القتل أو التعذيب، لا فرق في هذا بين صبي ورجل، لكن سايروس كان يمشي ورأسه مرفوع بملامح صارمة في الساحة الخارجية للقصر الملكي متوجهًا إلى المنصة حيث ستقام المحاكمة.

وقف الإمبراطور شـتاجـا وحوله الوزراء ويمكنك أن تميز الوزير هارباك واقفًا بجواره بملامحه الحربية الواضحة، القضاة في هذه المحاكمة المحسومة هم الكهنة الذين يرتدون الزي الديني، بينما كهنة الماجي واقفون على الجانب بأقنعتهم النصفية المخيفة وكبيرهم غريم يقف هناك بجوار شـتاجـا مباشرة.

ليزا تتطاول بين الجموع لتنظر إلى المحاكمة من بين الحشود وهي لا تدري ما الذي يجب أن تقلق بشأنه، المحاكمة التي ستنتهي إلى شر حتمًا، أم أن ينكشف أمر الابن الذي ربته هي وهرمز، والحالتان شر لكنها لا تدري أيهما ستكون أشر من الأخرى، وهرمز زوجها كان واقفًا هناك في الصف الأول من الحشود متأهبًا للتحدث والدفاع عن ولده.

كل شيء جاهز، بدأت المحاكمة وتقدم الجنود ممسكين بسايروس من تلابيبه، وجلس الإمبراطور شــتاجــا على عرشه وقال:

- هل أنت الطفل الذي جرؤ ومد يده القذرة على ابن واحد من أعلى الرجال النبلاء في هذه الأرض، الوزير هارباك؟

همَّ هرمز بالحديث لكن يد سايروس ارتفعت بثبات لتسكته ثم تقدم بثقة خطوتين وقال:

- نعم أنا الذي فعلت هذا.

قال شــتاجــا بغضب:

- فإن يدك القذرة هذه ستُقطع، كيف تجرؤ؟ ألم تعلم من هو؟

قال سايروس بصرامة وبلا أي خوف:

- بل أعلم جيدًا أيها الملك، لكنك تعلم قوانين الشوجان حينما يلعبها الفتيان رجلًا لرجل، وحسب هذه القوانين التي ارتضاها كل هؤلاء الفتيان أصبحت أنا ملك الشوجان، أما هذا الفتى آرتي فلم يرضَ، وثار علي وأراد إسقاط ملكي، فنال ما يستحقه، وإنا قد تعلمنا منك يا ملك البلاد أن من يحاول إسقاط الملك يجب أن يعاقَب ليعرف حده، أما إن قررت أن تعاقبني فأنت سلطتك أعلى مني ولا بد أن أخضع لها فها أنا ذا.

صمت خيم على الأجواء حتى على شـتاجـا نفسه الذي كان ينظر إلى ملامح سايروس في قلق ويلاحظ طريقته في الكلام، هذا الفتى كان يشبه الأمير قمبيز زوج ماندان كأنه نسخة منه، تلك الوجنتان البارزتان والحاجبان الطويلان.

وقر شيء في نفس الملك شـتاجـا، فقال شيئًا لم يتوقعه أحد حيث نظر إلى الوزير هارباك وقال بصرامة:

- أما ولدك يا هارباك فليس له حق عندي، بل إن كل الحق مع هذا الفتى الأشقر.

لم يبدُ على هارباك أي ملامح ضيق بل إنه أحنى رأسه موافقًا.

نظر الملك إلى الراعي هرمز وقال له:

- أنت أيها الراعي، من أين حصلت على هذا الطفل بالضبط؟ من أعطاه لك؟

قال هرمز:

- هو ابني يا سيدي، ابني سايروس.

أشار شـتاجـا بيده إلى الجنود الذين هجموا على هرمز وقيدوه ثم قال له:

- رأسك سيكون اليوم معلقًا على جدار القصر أنت وأهلك إن لم تتحدث بالحقيقة، هذا الفتى لا علاقة له بطبقتكم الفقيرة الحقيرة، من أين حصلت عليه؟

نظر هرمز إلى ليزا التي فهمت أن الأمر قد انكشف فاستدارت هاربة من المكان كله، وبدأ القلق يظهر على ملامح سايروس الذي نظر إلى توتر أبيه الشديد وهروب أمه، ثم خفق قلبه بشدة وهرمز ينظر إلى الأرض ويعترف بالقصة كاملة دون نقص.

بدأت تسري في عين الوزير هارباك رجفة وهو يذكر قبل سبع عشرة سنة تلك الجثة التي رآها، لم يقدر أن يفسر الأمر للوهلة الأولى فصاح فيه شــتاجــا:

- ألم تقتل الطفل ابن ماندان يا هارباك بيديك وترِني جثته، ما الذي يهذي به هذا الأخرق؟

نظر الفتى سايروس إلى هارباك نظرة فيها شيء من الأمل، لعله ينكر ويكذب هرمز، لكن هارباك قال بنبرة صادقة:

- عندما أخذت الطفل منكم يا سيدي فكرت كثيرًا كيف أنفذ أمرك الجليل دون أن أكون قاتلًا لحفيدك ولحمك ودمك، فهذا ما لا تتجرأ عليه يدي أبدًا، فأنتم نسلكم ملكي مقدس، فأعطيت الطفل لهذا الراعي وأخبرته أن الإمبراطور يأمرك أن تقتل الطفل وتريني جثته لأتأكد بنفسي، وهددته إن لم يفعل هذا بكل أنواع التهديدات، وبالفعل أتاني بجثة الطفل المأكول من الذئب. ولم أعرف أنه وضع ولده الميت بدلًا من ولدنا.

كان وضع الفتى سايروس قد تغير كثيرًا، فتحولت ملامحه من الثقة إلى الحيرة والتردد، فالإنسان إذا فقد أهم ظهر يستند عليه في حياته سقط على وجهه وانهارت مقاومته، وسايروس في هذه اللحظة أيقن أن أباه ليس هو أباه ولا أمه هي أمه.

هم الملك أن يقول شيئًا ما بغضب لكن الحكيم غريم مال عليه وهمس في أذنه بحزم:

- اصرف هؤلاء الآن ومُر الجند أن يسجنوا هذا الفتى الملعون ويقيدوا يديه ورجليه ثم انزل بنفسك إلى السجن واذبحه بيدك، لا تأمر أحدًا بقتله، هذا الفتى إن بقي حيًا فقل على ملكك السلام، وقل على حياتك السلام.

وبالفعل اعتدل الملك وفي حركة غير متوقعة قال لوزيره متفهمًا:

- إن ما عملته يا هارباك هو الحق.

ونظر إلى هرمز الراعي وقال:

- وأنت أيضًا أيها الراعي عملت شيئًا حسنًا، أن فديت ولدك بولدنا ووهبته الحياة، فانصرف إلى عملك حيث كان، أما ولدنا فلنا معه شأن آخر.

ثم نظر إلى الجنود وصاح مشيرًا إلى الفتى سايروس:

- اقبضوا على هذا الطفل اللعين.

تحرك الجند وأحاطوا بسايروس الذي لم يقاوم أحدًا، ولا حتى كان ينظر إلى هرمز، بل كان ينظر إلى الأرض في شرود، فأخذوه وقيدوا يديه ورجليه بسلاسل من حديد ووضعوه في أبعد زنزانة في سجن القلعة ووضعوا عليها عشرة جنود لحراستها، وكما وُلد سايروس في زنزانة، تقرر أن يموت في زنزانة.

***

وحيدًا بين نفسه ونفسه..

في زنزانة عطنة مظلمة جدرانها مبطنة بالحديد ليس فيها نافذة واحدة.

كانت يداه مجموعتين إلى بعضهما بقيود حديدية وكذلك قدماه فلم يكن حتى يقدر على الحركة.

وهناك عشرة جنود على الأقل يروحون ويجيئون أمام الزنزانة يراهم من قضبانها التي تطل على ممر واضح أن فيه عدة زنازين لكن ليس فيها أحد.

تغلبت عليه الخواطر فأحبطت قواه فلم يعد يريد النجاة، حتى قصة أنه هو حفيد الملك لم تغير في داخله شيئًا، كأنما هو لا يصدقها أو لا يريد أن يصدقها، وحكاية أن أمه هي الأميرة ماندان التي كان يسمع عن جمالها عندما تأتي سيرتها بين الناس، إنه لا يعرف لنفسه إلا أمًّا واحدة، ليزا.

وأبوه هو هرمز صاحب القلب الحنون والأخلاق، لا يعرف غير هذا، لا يشعر أنه ينتمي إلى ذلك الدم الملكي الظالم الباغي، بل إنه لا يجد في نفسه إلا الغضب منهم وكراهيتهم مثله مثل جميع الشعب.

وحتى النبلاء لم يتخيل أو يتمنى أن يكون يومًا منهم، بكل الغرور الذي في قلوبهم والتعالي على البشر وكأن فيهم شيئًا زائدًا، إن كان هناك شيء واحد زائد فيهم فهو بلادة العقل.

حاول تحريك يده وقدميه ليغير من وضع نومته، لكن الشخص الذي ربط هذه القيود جعلها غير قابلة لأن تتحرك نصف حركة، ما الذي يجعلهم يفعلون كل هذا بفتى واحد، هل يحاولون منع القدر الذي تدخل ذات مرة وأنقذه وهو طفل، فعملوا كل شيء ممكن حتى لا يتدخل القدر مرة أخرى؟

عرف أنه لم يعد لديه وقت للحياة، إنهم ينتظرون حلول المساء حتى يقتلوه في الغالب، وبمرور كل هذه الساعات لا بد أن المساء قد حل، ولا بد أن قاتله الآن يُسن نصله جيدًا، لقد أرادوا قتله وهو طفل بأبشع طريقة فكيف يريدون قتله الآن؟

فجأة سمع صوت جلبة كأنها عدة أقدام تأتي في الرواق، حراس الزنزانة وقفوا الوقفة العسكرية تحية للقادم كما يبدو لكن ما هذا الذي...

فجأة انغرز رمح في عنق حارس من حراس الزنزانة فاخترقه إلى الناحية الثانية فتحفز جميع الحرس، وفي أقل من ثانية أتى خنجر سريع في الهواء استقر في جبين حارس آخر.

حاول سايروس أن يعتدل في جلسته ليرفع رأسه حتى يتبين الأمر، فنظر من بين الظلمات التي يرقد فيها ليرى جنودًا مسلحين تسليحًا كاملًا يضربون حراس السجن ضربات قاتلة بسرعة فائقة حتى لم تمضِ دقيقة واحدة إلا وحراس السجن جميعهم قتلى مضرجون في دمائهم على الأرض.

ثم وقف هؤلاء الجند المسلحون وقفة عسكرية تعني التحية.

وهنا رأى سايروس آخر شخص في الدنيا كان يتوقع أن يراه في هذه اللحظة.

أمه ماندان وبجوارها أحب الناس إلى قلبه، أمه ليزا.

أشارت ماندان إلى الجنود ففتحوا باب الزنزانة وانقضوا على القيود فكسروها بسرعة حتى تحررت ذراعاه، فكان أول شيء فعله بهما هو أن استقبل ليزا التي احتضنته في حب.

نزلت دموعه رغمًا عنه، كان يريد أن يسألها، أهو حق ما يقولون، ألست أمي؟

ثم كيف جاءت الأميرة ماندان هنا؟

وفي لحظة برق في عينه بريق الفهم، تذكر ليزا وهي تغادر المحاكمة بسرعة في اللحظة التي عرف فيها شـتاجـا أنه جده، لا بد أنها انطلقت بسرعة إلى ماندان التي كانت تعيش في قصر زوجها الفارسي الأمير في بلدة آنشان الفارسية.

ولا بد أنها حكت لها القصة كاملة، أن ولدها ما يزال حيًا يُرزق، وأنهم سيقتلونه اليوم كما أرادوا أن يقتلوه أول مرة، ولا بد أن ماندان قد جندت كل جنود قصرها وجاءت إلى قصر أبيها شـتاجـا الذي تحفظ مخارجه ومداخله جيدًا لأنها تربت فيه.

وكان ما حدث قريبًا جدًّا من تفكيره، فكل الملوك يصنعون في قصورهم ممرات سرية لا يعلمها سواهم ليفروا منها وقت الحاجة، وماندان تعرفها وتحفظها كلها فهي ابنة الملك الوحيدة.

نظر سايروس إلى ماندان لأول مرة، لاحظ وجهها المتلهف عليه، لم تكن السن قد نالت من جمالها شيئًا، إلا خط غائر تحت كل عين يبدو أن الحزن هو الذي حفره وليس السن.

كان يراها وهي تنظر إليه، لم ير أجمل من تلك النظرة في حياته، كأن عينها تلمع من شدة الفرح، حتى ليزا لم تكن تنظر إليه هكذا.

كانت الخواطر تجري في عقله والجنود يحملونه على أكتافهم ويغادرون الزنزانة من المكان الذي دخلوا منه.

طلب سايروس من الجندي الذي يحمله أن ينزله على الأرض ليمشي بنفسه.

وصورت العين هؤلاء الجماعة من ظهورهم وهم يغادرون تحت غروب الشمس.

وإن الله إن أراد بعبد نجاة سينجيه ويخزي من يؤذيه ولو كانوا أهل الأرض جميعًا، ولقد أنجاه الله تارة أخرى.

فإن هذا الفتى ذا الشعر الذهبي والضفيرتين لم يكن شخصًا عاديًّا.

بل كان شخصًا سيزلزل جوانب الأرض كما لم يفعل أحد في التاريخ الإنساني بأكمله.

شخص ستعرفه الأجيال والحضارات والأديان بأسماء متعددة.

لكنهم سيجمعون على شيء واحد، أن العالم قبله ليس مثل العالم بعده على الإطلاق.

2
دائرة النار

سواد الليل غطى أرجاء المدينة والشوارع، الفجر ما زال يدير ظهره في كسل محدثًا نفسه أن وقت طلوعه قد اقترب.

ركزت العين على أحد دروب المدينة التي شهدت في الأيام الماضية ملحمة تناقلتها الأفواه والكتب جيلًا بعد جيل، كانت هذه البيوت مألوفة لك، فهو المكان الذي بدأ منه كل شيء، لكنه اليوم ساكن لا حركة فيه.

فجأة انفتح أحد الأبواب وهو باب ستعرفه جيدًا لو نظرت إلى الرجل الضخم الخارج منه.

هرمز ذلك الراعي الهمجي طيب القلب، خرج من بيته في زاغروس وركب فرسه بتؤدة وانطلق إلى مكان عمله في إسطبل الخيول الملكي في العاصمة إكباتان، الذي بعد أن ترقى للعمل فيه أصبح يحتاج أن يخرج من بيته فجرًا ليصل في طلعة الصباح، كانت ملامحه ساهمة في هموم لا آخر لها، فرغم أن ليزا والأميرة ماندان نجحتا ببضعة جنود أن تنقذا سايروس وتنقلاه خفية إلى مدينة آنشان، وتحديدًا إلى قصر أمه ماندان، ورغم أن شـتاجـا وجنوده لا يعلمون حتى الآن من الذي

أنقذ سايروس وأين ذهب بالضبط، فإنها مسألة وقت وسيعرفون الخبر، ساعتها ستنزل جيوش شـتاجـا من جميع مدن المملكة لتحيط بآنشان التي لا تحوي إلا بضعة حراس في قصر ماندان، ويدكون المدينة دكًّا، ويقتلون الجميع بلا هوادة، فمن ذا الذي لا يعرف حروب شـتاجـا وجنود شـتاجـا الذين يحملون قلوب ضباع وعلى رأسهم ذلك الداهية هارباك.

أفكار تأتي على خاطره وتروح حتى اقترب هرمز من إسطبل الخيول، وكالعادة رأى جنود الحراسة ينتشرون حول أرض الإسطبل الواسعة واقفين في ثبات ليحموا أغلى مجموعة خيول في المملكة، كان يتساءل عن ذلك البرود القاسي الذي يصيب ملامح الرجل عندما يصبح جنديًّا، هؤلاء يقفون بهذا الجمود في ظلام الليل ولا يطرفون هنا أو هناك ولا يلقون حتى التحية.

رفع هرمز يده لهم محييًا وهو يعرف أنه لن يجد جوابًا، ثم فتح باب الإسطبل الكبير ودخل كعادته ماشيًا بين مرابط الخيل، ثم فجأة تجمد مكانه ناظرًا حوله في دهشة، لم يكن هناك حصان واحد يطل برأسه من مربطه، ثم تحولت دهشته إلى فزع وهو يسمع أصواتًا قادمة من داخل مرابط الخيل لا علاقة لها بصوت الخيل من قريب أو بعيد.

أصوات مكتومة غاضبة تصدرها الحيوانات المفترسة عندما تزوم من الغضب، نظرة واحدة إلى أحد هذه المرابط كانت كافية ليفهم كل شيء ويرتجف جسده ويستعد للتحرك إلى الوراء هاربًا من المكان كله.

استدار ليركض إلى الباب في خوف لكنه رأى الجنود يقفون أمام الباب ناظرين إليه بتلك النظرة الباردة التي يكرهها، ثم أغلقوا باب الإسطبل عليه وأوصدوه بإحكام، هرع هرمز إلى الباب يحاول دفعه

وهو يناديهم في يأس، ثم استدار برعب ينظر إلى المرابط التي كانت المفترسات قد خرجت منها ونظرت بعيونها الحمراء في نهم.

أسند هرمز ظهره إلى الباب في يأس وهو ينظر إلى أكثر من عشرة ذئاب خرجوا من مرابض الخيل ووقفوا ينظرون إليه ويزومون في جوع واضح.

لقد أصدر شـتاجـا حكمًا بإعدامه بالطريقة نفسها التي احتال بها عليهم، فاليوم سيُسقى من الكأس نفسها التي سقى بها الطفل ذات يوم.

***

لم يكن هناك جنس إنسان في المدينة باقٍ في بيته تلك الليلة، الكل اجتمع لأجل حفل كبير في قصر شـتاجـا، نظرات الناس لبعضهم وهم يقفون حول ساحة القصر أغلبها نظرات حائرة لا تفهم شيئًا، كيف رق قلب الإمبراطور بهذه السرعة بعد فشل خطته وهروب سايروس الذي ذاع وانتشر، العين تسير بزاوية طائرة فوق رؤوس الحشود لترى مدى كثرتهم، وعمال القصر ينظمونهم ويجلسونهم على موائد كبيرة جدًّا عليها أطايب الطعام لكنها لا تكفي عدد الأهالي، فأصبح بقية الناس يجلسون على الأرض هنا وهناك كيفما اتفق.

الطبول تقرع بنغمات النصر بلا سبب مفهوم والأطفال يلعبون هنا وهناك بلا نظام، الكثير من الراقصين والراقصات يرتدون الملابس الميدية الشعبية يمشون في مجموعات باتجاه المنصة الرئيسية التي سيرقصون عليها، تابعت العين كل هذا ثم دارت حتى هبطت عند باب القصر لكنها لم تدخل، بل مشت في الممر الخارج من الباب حتى أمكننا أن نرى الإمبراطور شـتاجـا وهو يمشي في الممر وبجواره وزيره هارباك متوجهين إلى القصر.

كان يبدو على ملامح شـتاجـا شيء من الجذل غير المبرر وهو يقول لوزيره:

- هل تدري يا هارباك؟ ذلك الحكيم غريم يمتلك عقلًا من خارج هذا العالم، هل تذكر اللحظة التي نزلت فيها بنفسي إلى زنزانة سايروس لأذبحه فوجدتها فارغة وقيوده مكسورة؟ حينها شعرت بنار في ثنايا روحي يكاد لهيبها يحرق كل من أراه أمامي. وأنت حاولت تهدئتي وجميعكم حاول.

قال هارباك باهتمام:

- نعم لقد كنت تريد أن تتبرأ من سايروس، بل تذهب إلى أمه ماندان وتقطع رأسها حتى لا تلد المزيد منه.

مط الإمبراطور شفتيه وقال:

- حتى جاءني غريم هذا وأخذني من يدي إلى مكان لا يسمعنا فيه أحد وقال لي إن هذا الفتى سايروس سيصبح بطلًا أسطوريًا في عيون الناس، وبخاصة أن المملكة كلها شهدت على نجاته الإعجازية من القتل وهو طفل حينما تبين أمام كل الناس في المحكمة أنه لم يمت، والآن إذا علم الناس أنه هرب من سجن القلعة وهو مكان يستحيل عقلًا أن يهرب منه أحد...

قال هارباك وهو يهز رأسه متفهمًا:

- نعم يا سيدي، سيتعاظم في نظرهم.

نظر إليه الإمبراطور بطرف عينه وهو يقول:

- وكل المملكة تعلم الرؤيا التي رأيتها في منامي عن ذلك الحفيد الذي سينهي ملكي، وبالطبع سيمشي هذا الفتى سايروس في الناس وينشر قصته الإعجازية أكثر وأكثر في المدن المجاورة،

وسيحصل على الكثير من الأتباع فالناس تحب هذه الأقاصيص الخرافية.

كانا قد اقتربا من باب القصر قليلًا وهارباك يقول:

- الناس ستصدقه بسهولة، فالصدفة تتدخل في كل موقف وتخرجه بطريقة لها العجب.

قال الإمبراطور:

- حينها قال لي غريم إن خير ما أفعل هو أن أشتري هذه القصة الخرافية حتى أجفف أي ثورة يمكن أن تقوم بسببها، وأشار عليَّ أن أقيم حفلًا كبيرًا بمناسبة نجاة حفيدي سايروس من الموت وهو طفل، وأقول للجميع إنني قررت إرساله ليعيش مع أمه في آنشان حتى يكبر ويصير رجلًا ليخلفني بعد زمن طويل، وبالطبع نحن لن نتركه يعيش بل سنقتله خفية بطريقة ما.

تقدم هارباك وفتح الباب للإمبراطور ودخلا إلى بهو القصر الواسع وهارباك يقول:

- نعم، وهكذا حتى لو أراد سايروس عمل ثورة فالناس ستعيب عليه أنه يثور على جده الذي أكرم المملكة كلها من أجله، قرار حكيم يا سيدي.

ابتسم الإمبراطور بطرف شفته وهو يقول:

- لكن غريم نصحني أيضًا أنه ورغم هذا الاحتفال الكبير فإنني يجب أن أعاقب من خالف أمري عقابًا رادعًا، حتى لا يتكون في ذهن الناس أن هناك من خالف أمري وعاش هكذا دون عقوبة.

فتح هارباك باب غرفة الطعام وقد بدأت دقات قلبه تزيد كأنه استشعر الخطر، كانت الغرفة ممتلئة حتى آخرها بوجهاء القوم وكبرائهم يجلسون إلى المائدة الملكية الكبيرة، فقال هارباك:

- ومن هذا الذي ستعاقبه يا سيدي؟

قال الإمبراطور ضاحكًا وهو يجلس على الكرسي الرئيسي في المائدة:

- هارباك، هل قلقت على نفسك؟ إني أتحدث عن هرمز ذلك الراعي الذي خالف أمرنا وخدعنا وجعلنا نعمل جنازة ملكية لطفله الحقير، أتدري؟ قبل قليل جاءني حراس الإسطبل بخبره، لقد مزقته الذئاب تمزيقًا، أكثر من عشرة ذئاب يا هارباك.

ابتسم هارباك نصف ابتسامة وهو ينظر إلى طعامه في اطمئنان:

- نرجو أن يكون هو هذه المرة يا سيدي وليست جثة شخص آخر.

قال الإمبراطور وهو يبتسم ابتسامة واسعة ويمد يده ليرفع قطعة لحم:

- لا تقلق إنه هو، لقد جاؤوني برأسه الضخم البشع وصدقني إن رأسه من نوعية لا يوجد مثلها اثنان في المملكة.

اعتدل هارباك في جلسته وبدأ يمد يده إلى الطعام حيث بدأ الجميع بالأكل، كانت لذة الطعام واضحة والإمبراطور يبتسم ابتسامة لا تبدو مريحة أبدًا وهو يقول لهارباك:

- حسب خبرتك في الحيوانات والصيد يا هارباك، هل تعرف نوعية هذا الحيوان الذي تأكله؟

وشدد الإمبراطور في نطقه على كلمة (الحيوان) وهو ينظر إلى هارباك بعين مفتوحة لا تطرف، تحرج هارباك قليلًا وهو يمضغ اللحم

الطري الذي يبدو طريًا أكثر من اللازم ثم ابتسم ابتسامة مجاملة وهو يقول:

- حقًا لا أدري، يبدو أنه صغير من صغار الأيل.

قال الإمبراطور مكررًا بشكل متفهم لكنه مستفز:

- ممم الأيل.

اختفت ابتسامة الإمبراطور فجأة حتى إن هارباك والجميع توقفوا عن تناول الطعام وقال الإمبراطور وهو يميل رأسه:

- يا رجال، أروه نوعية الحيوان الذي يأكل لحمه، بل نأكل لحمه جميعًا.

تقدم اثنان من الجنود يحملان صندوقًا مزخرفًا يبدو ثمينًا وهارباك ينظر ولا يقدر عقله أن يستجمع أدنى فكرة عما يمكن أن يعني هذا، حتى فتح أحد الجنديين الصندوق ببطء أمام عين هارباك ووقعت عينه على ما بداخله، بل وقع قلبه في تلك اللحظة حتى كادت أن تخرج الروح من عينيه، فهذا الموجود بداخل الصندوق هو آخر شيء يمكن أن يخطر على بال إنسان، أو شيطان.

***

الطبل والمزمار والنيران والرقص يشتعل في ساحة القصر والخدم يرفعون بقايا الموائد ويضعون أكواب الشراب، ووسط كل هذا كان آرتي يقف ناظرًا إلى الأجواء بملامحه الحادة التي لا يبدو أنها تستمتع كثيرًا بهذا اللهو، كان من الصعب أن ترى آرتي ولا تُعجب به على الرغم من ملامحه العدائية، قوة جسده الفارع المفرود وبراعته الفائقة في الشوجان تجعل له هيبة بين الجميع، لم يكن يشغل باله شيء في هذه اللحظة سوى هزيمته على يد ذلك المغرور ذي الضفيرة، وزاد من حنقه

أن أهله اشتكوا إلى الملك، كأنه طفل لا يقدر أن يأخذ حقه بنفسه، وتلك المحاكمة التي عرف فيها أن هذا الفتى هو حفيد الملك.

تنهد آرتي وهو يفكر في كيفية لقاء ذلك المغرور ثانية، ثم انتبه من أفكاره على ضجة بعض النسوة الآتيات وسط الزحام، رأى أمه وسطهن ووجهها شاحب يكاد يخلو من الدماء وهي تقول:

- أختك الصغيرة يا آرتي ليس لها أثر في أي مكان.

انتفض آرتي من موضعه يدور هنا وهناك، فليس لديه في الحياة أغلى من أخته «إينارا»، كان يفض أي زحام من الرجال أو النساء بقوة وهو يبحث ويصرخ في الجميع، أكثر شيء كان يقلقه أنه لا يجرؤ إنسان على أن يفعل شيئًا في إينارا الصغيرة، فمن المعروف أنها ابنة قائد الجيش هارباك وأخت آرتي أقوى وأشهر شاب في المملكة، بل إن أحدًا لو وجدها تائهة سيأتي بها إلى أهلها طمعًا في رضاهم.

وفي داخل غرفة المائدة الملكية كان هارباك في تلك اللحظة يحدق إلى داخل الصندوق وقد تجمدت حتى قدرته على النطق، فهناك وسط حرير أحمر كان رأس الطفلة الصغيرة إينارا منصوبًا وملامحها تعبر عن أبشع آيات الفزع.

كان شـتاجـا ينظر بطريقة مختلّة إلى هارباك ويقول:

- حياتك القذرة يا هارباك لم تكن لتكافئ الجريمة التي فعلتها، فأنت رأس الجيش تحمي البلاد من أي خطر، ورغم ذلك لمَّا عرفت النبوءة بالطفل الذي يهدد عرش المملكة كنت أنت أول متساهل في شأنه ورميت بالمسؤولية على راعٍ أخرق.

ظل هارباك صامتًا لا يتحدث وهو ينظر إلى رأس ابنته إينارا في ألم واضح يكتمه وشـتاجـا يكمل:

- إن حماية هذه الإمبراطورية العظيمة تحتاج إلى قلب أقسى من الصخر، أما أنت يا هارباك فقد عُزلت من الوزارة والجيش ولم يعد لك شيء على الإطلاق، وستعيش هكذا مذلولًا، وما من شيء يكسرك ويكون عقابًا لك أشد من هذا، فأنا أعرفك.

قام هارباك ببطء ومد يده المرتعدة إلى الصندوق يغلقه ثم حمله ومشى بقدمين ترتجفان رغم كل محاولاته للسيطرة على نفسه، وتحرك بحمله خارجًا من الغرفة وقد خبا بريق عينيه فلا تجد فيهما سوى الكمد.

وهناك، في بيت هارباك، كانت العين تصور المشهد من داخل الصندوق الثمين وهارباك ينظر إلى رأس ابنته الجميلة بداخله وقد تحركت ملامحه أخيرًا وسالت دموعه، كانت زوجته واقفة بجواره ووجهها ممتقع كأن هناك عاصفة قد ضربته فلم تترك فيه أثرًا للحياة ولا سببًا للعيش، وقد تذكرت وقفتها هذه قبل سنوات وهي تنظر إلى طفل مولود وتسأل زوجها لماذا لا تقتله بيدك.

بجوارها كان آرتي واقفًا وقد احمرت عيناه من أثر الدمع أو الغضب مما زاد ملامحه إرعابًا، كان صامتًا لفترة طويلة عندما عرف الخبر ولم يسأل والده أي سؤال، ثم نطق بصوت فيه شيء من الهدوء الذي يسبق العاصفة:

- ستكون هذه الليلة الأخيرة.

واستدار بقوة خارجًا وأذنه لا تسمع حتى نداء والدته اليائس، لم تعد أذنه تسمع إلا صوت النيران التي اشتعلت داخل جوفه.

***

رغم أن سايروس وصل منذ شهر فقط، فإنه قلب مدينة آنشان رأسًا على عقب، فهو يعلم أن الملك قد كشف حتمًا أن ابنته الأميرة ماندان

هي التي أنقذت ولدها من سجن القلعة، ورغم هذا خالف الإمبراطور التوقعات وأقام احتفالًا كبيرًا بنجاة حفيده وأخبر الجميع أنه هو الذي أرسله بنفسه إلى آنشان.

ذلك الاحتفال الذي عرف سايروس بفطنته أنه مجرد خدعة يحاول بها الملك كسب الهزيمة ليستفيد من الموقف ويحول الناس لصالحه، وهذا تفكير لا يخرج من عقل بليد كعقل الإمبراطور شـتاجـا، بل هو يحمل توقيع ذلك الأفعى غريم، ولن يمضي أسبوع واحد إلا وتحاصر جيوش شـتاجـا قصر ماندان ويقضون على الأسطورة قبل أن تنمو في عقول الناس.

أول حركة عملها سايروس كانت في غاية الجرأة والخطورة، حيث أمر جنود قصر ماندان أن يمشوا في الناس ويعلنوا أن الملك شـتاجـا قد عين حفيده سايروس حاكمًا لمدينة آنشان.

وتلقى الناس هذا الخبر بالاستبشار، ثم أمر عمال القصر أن يشيعوا بين الناس بعض التفاصيل التي لا يعلمها الناس من قصة نجاته، مثل الذئب الذي رفض أن يأكله وهو طفل وحكايات فروسيته وهزيمته لآرتي في الشوجان، لأن الشعب يحب هذه التفاصيل ويطير بها، وينشرها كالنار في الهشيم.

وكان سايروس يخبئ نفسه عن عيون الشعب لأيام حتى يسمح لمزيد من الأساطير أن تتكون ويثير مزيدًا من الشوق، ثم فجأة أمر الجنود أن يسيروا في الناس ويأمروهم بأعجب شيء يمكن أن يأمر به حاكم جديد شعبه، أمرهم أن يقطعوا جميع النبات الذي فيه شوك كثير في المملكة ويجمعوه كله في ساحة القصر الملكي، شرط أن تبقى أشواكه سليمة على حالها.

لم يكن هذا أمرًا هينًا على الإطلاق، بل إن تقطيع نبات الشوك من أصوله وجمعه وحمله دون أن تتكسر الأشواك ينهك الجسد ويملأ الأطراف بالجروح والدماء، وكان هذا واضحًا جدًّا على الشعب بعد يومين وهم يجتمعون في ساحة القصر وقد تقرحت أيديهم وأرجلهم وأعناقهم وطغت الحيرة على عيونهم، فهذا الشاب الأسطوري الذي صار حاكمًا عليهم فعل بهم هذا كله في أول يوم.

في اليوم التالي أمر سايروس الجنود أن يمشوا بين الناس ويأمروهم بشيء أعجب من الأول، أمرهم أن يجمعوا جميع الأبقار والماشية والأغنام والخراف التي في المدينة ويضعوها في ساحة القصر ويأخذوا أثمانها ذهبًا، ثم يذبحوها ويسلخوها ويشووها لعمل أكبر وليمة يأكل منها جميع أهل المدينة.

ولو رأيت الرجال بعد يومين من هذا الأمر لظننت أنهم خارجون للتو من حرب دموية، فدماء الذبائح تسيل تحت أقدامهم وعلى ثيابهم وأيديهم، ولكن وجوههم لا تبدو مكفهرة، بل سعيدة رغم أن التعب الذي نالهم هو أضعاف المرة التي جمعوا فيها نبات الشوك.

وفي ساحة قصر ماندان بُسِطت الموائد وارتدى الكل أفضل ما لديهم وكانت البسمة تعلو كل الوجوه، ثم خرج عليهم سايروس مرتديًا ملابس ملكية فاخرة، ولم تحسن عيونهم إخفاء إعجابها بهذا الشاب الذي كانت جميع الأساطير التي سمعوها عنه شيئًا، ولقاؤه والوقوف أمامه شيئًا آخر تمامًا، لم يكن يتنازع اثنان أن له هيبة تشعر بها رغم أنفك وتعجب بها رغم أنفك.

قال لهم سايروس بصوت قوي:

- ها أنتم أولاء، كبار قبائل الفرس، أرى بينكم قبيلة مارافي وقبيلة ماسبي وباسارجاد.

اشرأبت أعناقهم لحديثه وهو يكمل:

- أيا أهل فارس، أنتم جمعتم الشوك وجئتم لهذه الساحة أول مرة تلطخكم الدماء، ثم جمعتم الذبائح وجئتم للساحة نفسها تارة أخرى تلطخكم الدماء، فأي الدماء أحب إليكم؟

صمتوا قليلًا فأعاد عليهم السؤال:

- أي الدماء أحب إليكم؟

قالوا في أنفاس متعددة:

- الذبائح.

قال لهم وهو يمشي بينهم:

- رغم أنكم كبار ونبلاء، فإن هناك عصابة اسمها ميديا تحكمكم منذ أكثر من مئة عام، عصابة ليست منكم، وماذا أنتم تفعلون منذ مئة سنة؟ تجمعون الشوك لإرضائهم ولا يرضون ولا يصيبكم منهم إلا الدماء.

سرت همهمات بين الجميع حتى ارتفع صوته وهو يقول:

- أنتم تعلمون كيف وُلدت أنا رغم كل شيء وكيف كانت قصتي الطويلة التي حدث كل مشهد فيها لأقف فيكم هذا الموقف وأقول هذا القول.

بدأت قلوب الرجال تنبض وهم يستمعون إليه وهو يقول:

- يا أهل فارس، ألا أدلكم على شيء لو فعلتموه يكون لكم أمثال هذا الخير ألف مرة وتعود إليكم هيبتكم بين الأمم، وإن توليتم عنه سترجعون أذلاء يضرب رجال ميديا رقابكم وتنهش كلابهم لحومكم؟

ثم قال قولته التي لمعت بها عيونهم:

- ثوروا يا أهل فارس، فإن كانت الدماء ستصيبكم لا محالة فابذلوها في شرفكم ولا تهدروها عبثًا تقطعون الشوك ولا ينالكم منه إلا المهانة والدماء.

ولم يكمل أهل فارس موائدهم في هذا اليوم، فقد انشغلت قلوبهم بما هو أعز من بطونهم.

***

قصر ماندان، البهو الرئيسي، كرسي العرش فارغ لا يجلس عليه أحد، لا يوجد جلاوزة وحكماء يركعون لأحد، استدارت العين عبر البهو ثم توقفت أمام كبار جنود فارس وحكمائهم وهم ينظرون إلى ذلك الفتى الذي لم يكمل العشرين، سايروس.

كان يراجع معهم الخطة التي سيقاتلون بها جيش إمبراطورية كاملة، ومن المفترض أن تجد الجباه تتعرق من التوتر وتتململ الأقدام، لكنك لو نظرت إلى وجوههم ساعتها لن تجد شيئًا من هذا، فقط ستجد عيونًا قد ألمعت، وشفاهًا قد ابتسمت.

لم يكن الذي يسمعونه معتادًا من الملوك، هذه الطريقة في التفكير والكلام، هذا العرش الذي حتى لم ينظر إليه ولو مرة كأنه غير موجود، رغم أن سايروس في هذه السن لا بد أنه يحمل كثيرًا من الأحلام المغترة بالوصول والجلوس على الكرسي، لكن هذا الفتى يختلف، كأنه وُلد ملكًا في الأصل فلا فارق عنده.

خطته كانت بسيطة لكنها فعالة ولن يتوقعها العدو على الإطلاق فهي تعتمد على...

فجأة سمع الجميع جلبة بالخارج وأصوات الحراس تعلو وأصوات سيوف تخرج من أغمادها ثم صوت رجال يتألمون ألم الموت، تحركت

أيادي الجنود إلى سيوفهم بشكل تلقائي استعدادًا للهجوم القادم عليهم الذي يبدو أنه كان مبكرًا جدًّا، وانفتح الباب بقوة وأخرج الجنود سيوفهم ونظروا في عزم تحول إلى شيء من الدهشة وإن لم يختفِ العزم.

فأمامهم عند الباب كان هناك رجل واحد يركب فرسه ويحمل سيفه، رجل واحد فقط قفز من الجواد قفزة فارس حقيقي وحراس القصر يتساقطون من حوله بلا حراك، تقدم ذلك الفارس الذي لم تكن ملامحه واضحة بسبب ضوء الشمس العالي خلفه، ثم فك شوالًا عن ظهر حصانه ومشى بضع خطوات إلى الداخل وهو يسحب الشوال وراءه.

تبينت ملامح الفارس حينما دخل، كان يحمل ملامح حادة عدائية وشعرًا طويلًا، قال وهو ينظر إلى سايروس الذي يعرفه جيدًا:

- لا حاجة إلى كل هذا الذي تفعلونه، لقد انتهى الأمر.

نظر إليه سايروس في دهشة، هذا آرتي.

أصاب آرتي الجميع بالاستغراب من طريقته وهو يضرب الشوال فجأة بباطن قدمه فوقع الشوال على الأرض، ثم تحولت الدهشة في عيون الجميع إلى شيء من تدقيق النظر إلى الشوال الذي يبدو أن هناك شيئًا ما يتحرك بداخله، أو شخصًا ما برز رأسه من فتحة الشوال، شخص مقيد من قدميه المربوطتين في يديه.

كان الخارج من الشوال آخر إنسان على ظهر الأرض يمكن أن يخرج من الشوال في هذه اللحظة.

وانطبعت الصدمة في العيون التي انفتحت عن آخرها والأيادي التي ارتخت على السيوف، ارتخت تمامًا في الواقع، فهذا الشخص الذي في الشوال هو الشخص نفسه الذي يفعلون كل هذا لإسقاطه.

شـــتاجـــا، الإمبراطور الطاغية..

كان راقدًا هناك على الأرض، ورأسه تحت قدم آرتي.

***

تعلقت العيون كلها بآرتي وهو يضع قدمه على رأس الطاغية شـتاجـا الذي أذل البلاد عشرات السنين، وانبسطت ملامح الرجال وهم يرون آرتي يستل سيفه ويضع نصله على رقبة شـتاجـا الذي لم يعد يقدر على التحرك بعد تقييد يديه وقدميه ورقبته، ولم يقدر على النطق لأنه مكمم بقوة بالغة.

كان مشهدًا أسطوريًّا بملامح آرتي القوية التي يملؤها الانتقام، وكنت تلحظ الفرح والإعجاب في عيون الجميع بلا استثناء، وبعد بضع ثوان من الصمت نظر آرتي إلى سايروس بملامح فيها سخرية قاسية وهو يقول:

- يبدو أنه عندما جعلك الأطفال ملكًا على الشوجان ظننت أنك ملك البلاد كلها.

نظر إليه سايروس بملامح حازمة وسكت ولم يرد، وإن كانت عينه تخبئ غضبًا شديدًا، حوّل آرتي نظره إلى الجموع فوجدهم ينظرون إلى سايروس ينتظرون منه ردًّا، فقال لهم وهو يشد بنصل سيفه على عنق شـتاجـا:

- يبدو أنكم نصّبتم هذا الطفل ملكًا عليكم بالفعل، ونسيتم أن الملك الحقيقي اللعين ها هنا.

حرك آرتي النصل وشد على رأس شـتاجـا بقدمه فجرح عنق الطاغية الذي كانت آلامه المكتومة تكاد تنفجر من وراء التكميم.

تخلى سايروس عن صمته فجأة وقال لآرتي كلمة لم يتوقعها أحد:

- أعده إلى حيث جئت به، لا حاجة لنا به.

نظر إليه الجميع بدهشة حقيقية، ولم يفهموا، وظنوا به الظنون، أيكون رأس الأفعى تحت أقدامنا ثم نعيده إلى مكانه؟

قال آرتي بسخريته الحادة:

- يبدو أن الطفل الذي...

قاطعة سايروس بحزم قوي:

- إذا أردت أن تسقِط ملكًا وتكسر إمبراطوريته يا آرتي فاكسره في عرينه، في قصره، وسط جنده، أما إذا اختطفته فلن تفيد شيئًا إلا أن تجعل المملكة كلها بجنودها يخرجون لقص رأسك واستعادة الملك، ليتك قتلته في مكانه، على عرشه أو حتى على سريره، أو كنت نصَّبت نفسك أو أباك ملكًا مكانه، لكن نزعة التغطرس والغرور التي في دمك جعلتك تأتي به إلينا هنا وتلقيه تحت أقدامنا، من أجل ماذا؟ أن تثبت أنك الأفضل ولا يكافئك أحد؟

كاد آرتي أن يرد بقوة لكنه فوجئ بسايروس يتحرك حركة سريعة مدروسة ويضرب قبضته التي تمسك السيف ثم يلتقطه سايروس بمهارة ويبعده عن عنق شـتاجـا ويوجهه ناحية عنق آرتي نفسه ويقول:

- بسبب فعلتك الحمقاء سيجن جنونهم، وبعد أن كانوا سيرسلون إلينا سرية من جنود أو رسولًا للتهديد ستشتعل المملكة بأكملها ويبعثون في التو واللحظة جيشًا جرارًا من آلاف لن تستطيع أن ترى آخرهم، كلهم يرفعون الدروع والسيوف، وبدل أن نعد العدة في بضعة أيام، لن تغيب علينا الشمس حتى يحيطوا بنا.

قال آرتي وهو ينظر إلى السيف المصوب إلى عنقه في شيء من الغضب:

- بالطبع كان يمكن أن أقتله وأجعل جثته على رمح في موضع عرشه، لكن لم يكن القتل يكفيني فيه، كان لا بد أن أراه مهانًا مذلولًا، ولا شيء سيذله أكثر من أن يوضع رأسه تحت قدمك أنت بالذات، وهو الذي سعى ليقتلك منذ أن كنت طفلًا سخيفًا لا عون لك.

قال له سايروس:

- لماذا؟ لماذا أردت أن تهينه إلى هذا الحد يا آرتي؟

مرت على ملامح آرتي تعابير لاحظها الكل في عينيه اللتين التمعتا فجأة كأنه قد ظهر فيهما شيء يسير من الدمع، وذهب قناع السخرية التي يغلف بها نفسه ونظر إلى شــتاجــا وتقدم إليه غير مبالٍ بسيف سايروس وحكى آرتي كل شيء.

الوليمة التي ذبح وطبخ شــتاجــا فيها الطفلة إينارا وأطعمها لهارباك أبيها، وملامح الرجال بين الذهول والتقزز، وأرخى سايروس سيفه وهو يستمع في تركيز، فما فعله آرتي يعني أن الخطة التي كان يتحدث فيها مع الرجال أصبحت في غاية الخطورة، لأن الـ....

قطع أفكار سايروس دخول جندي من جنود الفرس بشكل عاجل إلى القصر، كان يحمل رسالة لا تبشر بخير، ودون الحاجة إلى أن تسمع الرسالة تحركت العين خارجة من القصر واتجهت إلى الحد الشمالي لمدينة آنشان، ثم توقفت العين لتظهر لك صفوفًا من جنود تسد عين الأفق يمينًا وشمالًا، أكثر من عشرة آلاف جندي يقتربون بسرعة من المدينة التي ليس فيها حتى ألف جندي فارسي يحملون السلاح.

***

تجمد آرتي في موضعه وقد علم أي مصيبة أنزلها على رؤوس الجميع في هذا اليوم، فهو ابن قائد جيش ميديا بأكمله ويعلم أن الأعداد التي يمكن أن يجمعها سايروس من هذه البلدة هزيلة جدًّا، وهذه المجموعة الهزيلة لن تجد حتى الوقت لتجهز نفسها.

لكن فور أن دخل ذلك الحارس ورمى الخبر في وجوههم كان أول شخص تحرك هو سايروس الذي صرخ في الجميع بكلمة واحدة:

- الآن.

تحرك الرجال على الفور خارجين من القصر ليهرعوا إلى سلاحهم، وآرتي ينظر إلى وجوههم التي تظهر فيها نظرة جامدة ليس فيها خوف، فقال لسايروس بحدة:

- أي حمق هذا الذي تفعل! هؤلاء الرجال سيموتون، دع لي هذا الأمر، سأخرج أمامهم ممسكًا بملكهم المذلول لعل هذا يكسر نفوسهم.

نظر إليه سايروس نظرة حانية وقال:

- إن كان شـتاجـا هو الحية التي توحشت وقتلت شقيقتك فإن الزمار الذي أخرجها من قمقمها هو غريم صاحب القناع، ولو كان هناك إنسان وراء قتل إينارا بهذه البشاعة فسيكون هو ولا أحد غيره.

ثم تركه سايروس وانطلق خارجًا بأقصى سرعة ليلحق بالجنود، نظر آرتي إلى الملك المقيد شـتاجـا نظرة كارهة ثم أمسكه بقوة وأصعده على الفرس وهو يسبه، ثم انطلق ليرى أين ستصل هذه المهزلة بالضبط.

تبع آرتي الجنود الذاهبين إلى الحرب فوجدهم قد وقفوا صفوفًا وراء بعضهم في سرعة وتنظيم، وبنظرة خبيرة من آرتي عرف أن عدد هؤلاء المصطفين لا يتجاوز ألف جندي بأي حال من الأحوال.

وعلى الجانب الآخر كان غبار أقدام الجياد يتصاعد ويتصاعد حتى أثار سحابًا عظيمًا يمكنك أن تتخيل بالنظر إليه حجم الجيش القادم دون حتى أن تراه، وفور أن ظهر جيش العدو وقعت بعض الرهبة في قلوب جنود سايروس، أحس بها آرتي، كانوا ينظرون إلى بعضهم نظرة شديدة التوتر.

كاد آرتي أن يجن، أي حماقة هذه بالضبط، الجيشان يقفان أمام بعضهما في ساحة مفتوحة تمامًا ليس فيها جبل ولا شجر يصلح للاختباء، بضع مئات في مواجهة عشرة آلاف على الأقل، هذه ليست شجاعة، بل هي حماقة، كان يمكن أن يختبئ الجنود في الأحراش أو يستدرجوا الجيش إلى مكان ضيق، أو ينفذوا أي واحدة من الطرق التي تستخدمها الأعداد القليلة في الحرب، أما هذه فحماقة لا طائل منها، وكان كلما صرخ في أحد الجنود بجواره أن هذا جنون، وجد الجندي ينظر إليه بجمود ويصمت، اللعنة، هل سحرهم سايروس هذا أم نقل إليهم عدوى الغرور؟

هنا وصل سايروس إلى المكان، والحقيقة أنه كان يبدو واثقًا جدًّا وهو على ظهر جواده الأبيض الذي اخترق الصفوف ووقف في موضع القيادة.

كانت وجوه جيش العدو طافحة بالشماتة والاستخفاف، فظهر هذا في نظراتهم لبعضهم ولمزهم الخفي.

نفض آرتي عن نفسه جميع مشاعر الغضب وتحرك بجواده وأمسك الملك من قفاه ورفع يده به ليراه الجيش العدو لعلهم يتراجعون، لكنهم فور أن رأوا ملكهم مقيدًا بهذه الطريقة سرت في عروقهم نيران الغضب وذهب عنهم الاستخفاف وحلت محله ملامح الحنق واشتدت القبضات على سيوفها. ورفع قائدهم يده ليأمر بالهجوم.

وبالفعل صرخ قائدهم وأنزل يده بحزم فانطلق عشرة آلاف جندي غاضب ليسحقوا فئة قليلة واقفة في مكان مكشوف لا يملكون حتى أسلحة ذات قيمة.

وظلَّ الموت على ساحة آنشان التي تهيأت لتشرب اليوم كثيرًا من الدماء.

***

كانت العين تصور كل شيء بالتصوير البطيء، إمعانًا في إظهار مشاعر جنود سايروس وهم في موقف لا يحسدون عليه، المشكلة أنه لم يكن في عيونهم أي فزع حقيقي، فقط لمحات من القلق تسري في وجوههم ليس أكثر.

أظهرت العين مشهدًا من اليوم الماضي بينما هؤلاء الجنود واقفُون يستمعون إلى سايروس وهو يقول:

- هذه المدينة آنشان محاطة بالجبال والغابات من كل مكان، إلا من موضع واحد في شمالها مفتوح عن آخره، فيه أرض مبسوطة واسعة، وسيأتونكم بالضبط من هذا الموضع، وهم يعلمون عددنا جيدًا ويحفظونه، ستجدون أمامكم جيشًا قوامه ثلاثة آلاف رجل، لكن دعونا نزيد في الحيطة ونقول إنهم سيرسلون أضعاف هذا العدد، آلاف مؤلفة من الجنود سيدخلون علينا من هنا.

كانوا يستمعون إليه ويبتلعون ريقهم بصعوبة وهو يكمل:

- سيأتون بكل ذرة غرور لديهم واثقين من النصر، وعندما يرون صفوفكم القليلة الواقفة ها هنا سيتغامزون بينهم بالنظرات، وعندما يرفع قائدهم يده ثم ينزلها سيهجمون عليكم هجمة رجل واحد بغية إفنائكم عن وجه الأرض.

تعلقت به عيون الرجال في خوف حتى قال:

- ستقفون في مواضعكم، لا تتحركون خطوة واحدة، تنهدوا بعمق، وشاهدوا ما سيحدث لعدوكم، الذي سيتقدم بكل قوته غير عالم أنكم تستدرجونه إلى فخ، وأن صفوفكم القليلة هذه هي آخر مشهد سيراه من الدنيا.

انتقلت العين إلى ساحة المعركة، وذلك التصوير البطيء مستمر، وعيون الرجال متعلقة بالجيش الجرَّار الذي يتحرك بكل سرعته، لم يكونوا ينظرون إلى الجيش نفسه بل إلى أقدام خيول الجيش.

أظهرت العين آرتي بالتصوير البطيء وهو يصرخ في الجنود حوله ليتراجعوا ثم يفتح عينه عن آخرها عندما سمع صوتًا جعله يلتفت إلى الجيش القادم، وهناك رأى كل شيء وفهم.

كان سايروس قد جعل الرجال في اليوم الماضي يحملون كل الشوك الذي جمعوه وأدمى أياديهم ويضعونه بطريقة مدروسة بحيث يصنع خطًّا طويلًا جدًّا من الأشواك في منتصف الساحة، وهذا الخط مخفي بالرمال في مهارة فلا تراه العين لأنه مغطى بالتراب، وهو ليس خطًّا واحدًا في الحقيقة بل عشرة خطوط طويلة متعاقبة من الأشواك الحادة القوية تمتد من أقصى الساحة إلى أقصاها، وحينما لامست أقدام الجياد هذا الجزء من الأرض الممتلئ بالشوك تعثرت الجياد فجأة وحدث تخلخل في كل الصفوف الأمامية التي اصطدمت ببعضها، ولم تفهم الصفوف الخلفية ما هي المشكلة بالضبط ولم يكن هذا هو الفخ، فما قاله سايروس في ذلك اليوم أشد وطئًا.

عرضت العين مشهدًا من الماضي لسايروس وهو يكمل لهم كلامه فيقول:

- كل ما نريده هو أن تتعثر جيادهم قليلًا ويصيبهم التخلخل، ولن نمهلهم حتى طرفة عين بل في تلك اللحظة بالضبط سيكون الموت قادمًا إليهم من السماء.

عادت العين إلى ساحة المعركة لتصور لك سهامًا من نار حارقة أرسلها جنود سايروس لتطير في السماء، والمفاجأة أنها لم تسقط على رؤوس جيش العدو، بل سقطت بالضبط قبل خط الشوك، وهنا اشتعلت الأرض كأن الجحيم قد اندلعت فجأة.

انتقلت العين إلى سايروس وهو يحدِّث جنوده في الماضي ويقول لهم:

- الموت لن يأتيهم من الشوك ولا من السهام الحارقة، بل من الشحم الذي جمعتموه من كل الذبائح التي ذبحتوها، الذي ستنثرونه قبل خط الشوك وتمزجونه بزيت المصابيح، ليصنع خطًّا من الشحم والوقود لكنه ليس خطًّا أفقيًّا فقط مثل خطوط الشوك، بل هو خط دائري يحيط بكامل الساحة كدائرة من الشحم الحارق الذي سيشتعل كالجحيم فور أن تمسه سهامكم الحارقة.

عادت العين إلى ساحة المعركة التي كان يبدو أنها ستنتهي في بدايتها، وبخاصة بعد أن اشتعلت دائرة النار وحاصرت جيش العدو كله بداخلها، وهاجت الجياد خائفة من الحريق الذي يحيط بها من كل مكان ولم يلبث ذلك الجيش إلا أن وجدوا وابلًا رهيبًا ثانيًا وثالثًا ورابعًا من السهام الحارقة يسقط فوق رؤوسهم وهم بداخل الدائرة النارية، وكانت كارثة حقيقية.

اندلعت النيران من كل موضع وتلبست بثياب الجند وسروج الخيول التي وقفت على قوائمها من الخوف وألقت الجنود من فوق ظهورها، وتحوَّل ما بداخل دائرة الجحيم إلى فوضى حقيقية بين جنود مرتعبين

فزعين لا يدرون أين المهرب وجياد تركض بلا هدى، وبدأت بعض أفواج الجنود والجياد يخرجون من الدائرة صارخين والنار تشتعل في ملابسهم وتحرق رؤوسهم، ورغم هذا نجحت قلة من جنود العدو المتمرسين في الحروب في اختراق النار بسرعة وهم يغطون وجوههم بدروعهم، حتى خرجوا بصعوبة شديدة ليجدوا رجال جيش سايروس واقفين بالمرصاد في انتظارهم ليقتنصوهم بضربة واحدة.

وكتب التاريخ بصمة لسايروس عُرف بها في تاريخ الحروب مهدت له أن يستحق اللقب الذي ستمنحه له الكتب المقدسة ويعرفه القاصي والداني.

صورت العين آرتي واقفًا وسط كل هذا الجنون مذهولًا بلا حراك، فقط يشاهد موت عشرة آلاف جندي في مواجهة ألف جندي لم يصِب أحد منهم خدش واحد، لم يكن قد رأى أو سمع أو حتى تخيل شيئًا كهذا أو قريبًا منه.

ثم سمع آرتي صوتًا ينادي باسمه في قوة فنظر فإذا هو سايروس يشير له بيده لينظر إلى أعلى التلة، فنظر فوجد صاحب العباءة والقناع غريم واقفًا ينظر إلى كل هذا في جمود.

أفاق آرتي من ذهوله وانطلق بجواده الذي يحمل عليه الملك شـتاجـا، وهرع سايروس وراءه، حتى وصل الاثنان إلى أعلى التلة بسرعة لا تسمح لذلك الكاهن بالهرب. وبالفعل استطاعا أن يحاصراه من اليمين واليسار واقتربا منه في بطء وهو واقف في ثبات على حافة التلة.

المشكلة في هذا الرجل أن نظراته لا تقدر أن تأخذ منها أي شعور، فقط ثبات وجمود، نظر آرتي إلى سايروس وقال:

- اترك هذا اللعين لي، أنت أحرقت الجيش بأكمله، حان دوري.

قال له سايروس:

- هو لك.

شد آرتي على بطن حصانه وركض به بسرعة بالغة، لكنه وقف بغتة وعادت إليه تلك النظرة المذهولة، ولم تكن من نصيبه وحده بل شاركه فيها سايروس.

فذلك الكاهن الذي كان واقفًا هناك منذ قليل لم يعد هناك، في طرفة عين.

انطلق آرتي بسرعة لينظر من أعلى التلة في كل مكان محتمل فلم يجد له أثرًا، وكذلك سايروس مسح المكان بعين خبيرة لكن ذلك الشيطان كان قد اختفى، ولم ير آرتي وسايروس سوى غراب يطير بعيدًا وهو ينعق في غضب وسط دخان النيران التي أحرقت كل شيء.

***

قافلة من الجنود تسير بحرص في غابة كثيفة في الليل وأياديهم لا تنفك تتحسس أنصال سيوفهم، كانوا يغادرون مدينة آنشان الفارسية بعد أن هزموا قبل قليل جيشًا يفوقهم عشر مرات، وعلى رأسهم سايروس الذي ينظرون إليه كل حين ويرددون كلامه داخل عقولهم حتى لا ينسوه، فما سيأتي من خطته أهم بكثير مما فات، كانوا متوجهين عبر طريق مدروس إلى «باسارجاد»، أهم مدينة في إقليم فارس بأكمله وهي المدينة التي فيها ثاني أكبر قصر للإمبراطور شـتاجـا في مملكة ميديا، وقد وضع سايروس خطة بارعة للسيطرة على القصر والمدينة بأكملها وسيستخدم في هذه الخطة الورقة التي أعطاها له آرتي دون استئذان عندما اختطف شـتاجـا وألقاه تحت أقدامهم.

كان آرتي يسير بجوار سايروس وعقله يموج بالأفكار المتلاطمة، ولا يمنع نفسه كل حين من النظر إلى سايروس بإعجاب مقاتل، كيف أمكنه

أن يخرج من هذه الحرب دون خسارة رجل واحد، هذه معجزة حقيقية، كل الأساطير التي تحكى عن هذا الرجل أقل بكثير مما يمكنه أن يصنع، وكان هذا يحدِث في قلب آرتي شيئًا من الغيرة لكنه كان ينفضها عن نفسه كل حين.

فجأة خرجت ضحكة قميئة جدًا من صوت أجش خشن، نظر الجميع إلى مصدر الصوت فإذا هو شــتاجــا الإمبراطور الذي كان مقيدًا وملقى على إحدى العربات التي تجرها الخيول، كان يضحك باستفزاز وبلا سبب، قبض آرتي على سيفه وأخرجه قليلًا من غمده ونظر بغضب إلى شــتاجــا الذي أنهى ضحكه ثم قال:

- إلى أين تأخذ هؤلاء الحمقى يا سايروس وهم يسيرون وراءك كالنعاج؟ أنت هزمت فقط عشرة آلاف جندي، فهل أخبرت هؤلاء النعاج كم هو قوام جيش ميديا الحقيقي؟

لم يرد عليه أحد فأكمل بصوت عال يسمعه الجميع:

- أيها المخابيل، قبل أن تطلع هذه الشمس سيهبط على رؤوسكم الحقيرة مئة ألف جندي أو يزيدون.

قال له سايروس:

- دعني أصارحك يا جدي، لا أظن أنه يمكننا هزيمة هذا العدد ولا نصفه بكل الحيل التي في الدنيا.

ابتسم بعض جنود سايروس بسخرية غامضة أثارت غضب شــتاجــا الذي صرخ:

- أي متغطرس أفاك أنت بالضبط؟ وأي سحر وضعته في آذان هؤلاء الحمقى؟

سمع الجميع صوت سيف آرتي وهو يخرج من غمده ويتهيأ ليستعمله لكن سايروس رفع يده في حزم وقال:

- كفى عبثًا، لقد أوشكت الشمس على الطلوع، وما هي إلا بضع خطوات ونصل إلى القصر الأكبر في باسارجاد، تحركوا إلى مواقعكم.

بدأ كثير من الجنود ينفصلون ويغادرون القافلة، وما هي إلا لحظات وظهرت منارات القصر من بعيد مما يعني أنهم دخلوا حدود باسارجاد، ولو استطاع سايروس أن يحتل هذا القصر فإن إقليم فارس بأكمله سيسقط من مملكة ميديا، يعني نصف مملكة ميديا أو أكثر، لكن سايروس كان ينظر حوله كل حين في ارتياب، شيء ما في صدره بدأ يضيق كأنه يشعر بخطر، لا يوجد حارس واحد على أبواب القصر، هل سمع الجنود في باسارجاد عن أنباء هزيمة إخوانهم فهربوا من المكان؟ أم...

توقف الجنود عند حد معين يعرفونه وتقدم سايروس وآرتي ليدخلا من باب القصر الذي لم يكن مغلقًا بل مفتوحًا، دفعه آرتي بقدمه ودخل ينظر في استغراب، أضواء المشاعل والفوانيس لم تكن مشتعلة كأنما هو قصر مهجور، نظر سايروس حوله باحثًا عن إجابة لألف سؤال بدر في رأسه، وتحرك بسرعة متوجهًا إلى قاعة الحكم التي فيها العرش ودفع بابها بيده ونظر إلى العرش ثم تجمد مكانه في دهشة.

فهناك على عرش مملكة ميديا كانت تجلس امرأة ترتدي ملابس حربية باسترخاء رافعة قدمها فوق مسند العرش في لا مبالاة وتنزل خوذتها الحربية على عينها في عدم اهتمام، وعندما أحست بقدوم سايروس وآرتي رفعت خوذتها بيدها قليلًا وهي تقول:

- هل كان الطريق صعبًا إلى هذا الحد؟ لقد مللت وأنا أنتظر وأنتظر.

نظر سايروس في قلق حقيقي، إن وجود هذه الفتاة ها هنا ربما يعني...

قال آرتي وهو ينظر إلى قلق سايروس:

- من هذه الخرقاء هناك؟

قال سايروس وهو شارد بتفكيره في مئات الاحتمالات:

- هذه «إيما - نصر».

نظر إليها آرتي وقد تغيرت ملامحه إلى التوتر الشديد وعدم الفهم، فهذه الجالسة هناك هي «إيما» بنت نبوخذ نصر إمبراطور مملكة بابل المجاورة، وأمها زوجة نبوخذ نصر هي في الحقيقة أخت الإمبراطور شــتاجــا، وهذا يعني أنهم لم يعودوا يواجهون مملكة ميديا فقط بل ومملكة بابل أيضًا، ووجود إيما نصر في هذا المكان بالذات يعني أن خطة سايروس قد انهارت وانتهت قبل أن تبدأ.

خرج من وراء إيما الكاهن غريم بعباءته الطويلة وقناعه النصفي وظل صامتًا بملامحه الجامدة المخيفة فاعتدلت إيما على العرش قليلًا وقالت:

- هذا الكاهن حقًا أبهرني يا سايروس، هل تعلم أن أتباعه من الماجي كانوا يراقبونك منذ اللحظة التي أنقذتك فيها أمك وأخرجتك من قصر شــتاجــا؟ حتى إنهم دسوا أنفسهم وسط رجالك وسمعوا خطتك بأكملها والعجيب أنه تركك تنفذها بينما هو كان ينفذ خطة أخرى تمامًا.

ابتلع سايروس ريقه في توتر وقد انتهت جميع الاحتمالات التي يفكر بها في عقله إلى احتمال واحد لا ثاني له، وبدأ يستدعي الخطة البديلة

في عقله ويرتب عناصرها، لكن قاطع أفكاره دخول رجل من جنود سايروس وهو يقول بصوت مختنق نوعًا:

- سيدي سايروس، يجب أن ترى هذا بنفسك.

خرج سايروس بسرعة إلى الشرفة وتبعه آرتي ونظرا إلى أشد منظر يمكن أن يراه قائد في حرب، رأى حول القصر وفي الشوارع والميادين وعلى مستوى الأفق جيشًا لا آخر له حتى مطلع الشمس لا يدري من أين خرجوا، ربما كانوا مختبئين في البيوت، مئة ألف جندي على أقل تقدير.

وكما قالها سايروس لشــتاجــا قبل قليل، لا توجد أي خطة حربية على وجه الأرض قادرة أن تجعل ألف شخص يهزمون مئة ألف شخص، وبخاصة أنه واضح من الرايات المرفوعة في الجيش أن الآلاف المئة قد انضم إليهم آلاف مؤلفة من جنود مملكة بابل المجاورة.

وكان هذا يعني النهاية..

***

3

إنّا مكنّا له في الأرض

قبل شهر من هذه الأحداث الدامية..

نزلت العين كأنها الطير على بيت كبير فاخر فيه مزرعة واسعة وخيول، يمكنك أن تلاحظ انتشار حرس كثير حول البيت، لكنهم لا يحرسون البيت كما تظن، إنما يحاصرون الشخص الذي يعيش داخل البيت حيث أمر الحكيم غريم بمراقبته وفرض الإقامة الجبرية عليه في منزله ومنعه من الخروج هو وزوجته إلا إلى مكان واحد، القبر.

فالشخص الذي بداخل هذا البيت هو أخطر شخص في مملكة ميديا كلها، القائد الأعلى السابق لجيش المملكة، الذي قرر شـتاجـا استبداله وإرغامه على أكل لحم ابنته الصغيرة.

دخلت العين من بين الحرس ومشت في حديقة المنزل الكبيرة لتجد صاحب البيت الوزير هارباك جالسًا وعينه في الأرض، كأن هموم الدنيا كلها قد اجتمعت معًا وصارت همًّا واحدًا ثقيلًا يطبق على مؤخرة عنقه، فلم يقو على رفع رقبته ولا رأسه.

وأي شيء أشد على نفس الأب من فقدان ابنته، فما بالك بمن أكل لحم ابنته! كانت هناك غصة في حلقه منذ ذلك الحين، غصة مستمرة كأنها النار، لا يقدر على إطفائها أي شيء، كان كلما رفع رأسه هنا أو هناك وجد حارسًا ينظر إليه في تحفز، وكانوا يتبدلون في المساء فيأتي فريق آخر يحرس حتى الصباح، فلا توجد لحظة واحدة إلا والعيون تحيط به من كل مكان.

كانوا يقدمون تقاريرهم اليومية إلى غريم، وفيها أن الوزير هارباك لا يفعل شيئًا على الإطلاق، فقط يجلس في حديقته يعتني بخيوله، وهو -والحق يقال- يمتلك أغلى وأقوى تشكيلة من الخيول في مملكة ميديا كلها، فقد كان قائد الجيش الذي يحصل من الحروب على أطيب الغنائم وأفخرها.

لكن بعد أن عزله شـتاجـا لم يعد يعتني ببهجة الدنيا، حتى ابنه القوي آرتي هرب من المنزل قبل أن يقيموا هذا الحصار ولا أحد يدري أين اختفى حتى اليوم، وآرتي نفسه لا يدري أن والده هارباك محاصر هو وأمه بهذا الشكل.

لم يعد عنده ذلك الشغف القديم بخيوله، بل أصيب بحالة عصبية كارهة للخيول بسبب حرمانه من الحرب والقيادة، فكان الحراس يرونه وهو يضرب الخيول ويجوّعها ويسبها، ثم بدأ في بيعها والتخلص منها، كل يوم أو اثنين يأتي مندوب لأحد النبلاء ينظر إلى مجموعة خيول هارباك وينتقي منها اثنين أو ثلاثة، فيخرجها العجوز «أوبار» راعي المزرعة ويذهب مع مندوب النبيل إلى منزل النبيل ويتفاوض معه على سعرها، ثم يبيع واحدًا أو اثنين منها ويعود بالثمن إلى هارباك.

كانت خيول هارباك كثيرة حقًا، أكثر من مئة خيل، وقد بدأت تتناقص يومًا بعد يوم، وفي هذا اليوم قررت العين أن تتبع العجوز أوبار

راعي المزرعة في رحلته لبيع خيول سيده هارباك، مشى العجوز أوبار حتى وصل إلى منزل النبيل وتفاوض معه حتى قبض الثمن، ثم اقترب العجوز من أذن النبيل وأسر له بأمر، فنظر إليه النبيل بدهشة ثم تأمل الحصان المباع لحظات ثم سلم على العجوز أوبار وصرفه.

وبعد خروج العجوز بقيت العين عند النبيل الذي وضع يده على الحصان ثم تحسس أسفل السرج بحرص حتى لا يراه أحد، ثم أخرج يده وفيها رسالة مخفية قرأها بتمعن ثم ضاقت عيناه وسرح قليلًا.

وهذا كان يحدث مع جميع النبلاء الذين يشترون أحصنة من الوزير هارباك، لم تكن هذه في الحقيقة صفقات بيع بقدر ما هي وسيلة خفية لإرسال الرسائل، وهؤلاء النبلاء الذين يستلمون الرسائل من هارباك لم يكونوا أي نبلاء، بل كانوا قادة جيش مملكة ميديا الذين كانوا يعملون تحت إمرة هارباك من قبل ويعلم أن في نفوسهم تمردًا وكراهية لحكم شـتاجـا.

كان هارباك يعلم أنه مراقَب بشدة، لكن عندما تراقب رجل حرب قديمًا لا بد أن تكون أكثر حرصًا.

وفي ذات مرة توجه العجوز أوبار من نفسه دون أن يكون معه أي مندوب وأخذ معه خيلًا بنيًا له غرة بيضاء غاية في الروعة وسافر به إلى آنشان، وتحديدًا إلى بيت الأميرة ماندان الذي يعيش فيه سايروس.

في تلك الأيام كان سايروس يُجهز لعمل ثورة غاشمة بخطة شديدة البراعة تكفل لعدد قليل أن ينتصر في أي معركة ضد جيش شـتاجـا، ولم يكن قد أعلن خطته رفيعة المستوى على قادة الفرس بعد.

حينها كان العجوز أوبار يراقب قصر ماندان بعيون كالصقر، حتى خرج سايروس متخفيًا لبعض مشاغله، وقبل أن يغلق الباب، وجد

العجوز أوبار في وجهه، كان سايروس يعرفه جيدًا، فسايروس رباه مشرف مزرعة ملكية ويعرف رعاة مزارع النبلاء جيدًا.

وبعد لقطة تحية بينهما ومعانقة سريعة، قال له العجوز أوبار إن الوزير هارباك قائد قوات جيش شـتاجـا يهدي إليه هذا الخيل الأصيل ويبلغه أن يضع يده تحت السرج ليجد رسالة من هارباك.

وبعد انصراف العجوز مد سايروس يده أسفل السرج فوجد رسالة مكتوبة على رقعة من الجلد.

«إنني أعلم يا بن قمبيز أن الآلهة تحبك وتحفظك ولولا هذا ما بقيت إلى يومنا هذا، إن ولادتك المعجزة ثم هروبك من القبو وأنت مقيد لا تجد حتى هواء صالحًا للتنفس هو أمر إلهي معجز خارق لكل عادة.

وأنت تعلم أن الرب قد أجرى إنقاذ حياتك على يدي، أنا حيث لم أقدر على قتلك وأنت طفل وعهدت بهذا إلى رجل رقيق القلب من الرعاة، كنت أريد أن أمنحك الأمل.

لقد عزلني شـتاجـا بسبب هذا، لكن يا بن قمبيز، إذا أطعتني فيما أقول، ستحكم كل أرض يملكها شـتاجـا، وستثأر لنفسك وتأخذ حقك في الحكم.

كل ما عليك أن تقنع الفرس الذين عندك أن يثوروا ويحاربوا معك.

ولا تنظر إلى كثرة عدد الجيش الذي يواجهك، فرغم أن شـتاجـا قد عزلني فإنه نسي أنني أعلم كل خبايا هذا الجيش وأعلم القادة الذين فيه واحدًا واحدًا، وكثير منهم يكره شـتاجـا بسبب ظلمه لهم في أمور كثيرة.

فاصعد بالفرس الذين معك إلى هنا وأشعل الأمل في نفوسهم و...».

كان سايروس يقرأ الرسالة وتلمع عينه، فهذا يعني أن خطته ستأخذ منحنى آخر تمامًا.

وأغلق سايروس الرسالة، وابتسم.

***

كان المنظر من الشرفة مخيفًا بحق وينبئ أن هناك مذبحة على وشك الحدوث، تخيل أن تذهب بألف مقاتل لتجد أنك محاصر بين خمسين ألف مقاتل يصطفون أمامك، وخمسين ألفًا آخرين خرجوا من ورائك من بيوت المدينة، وأنت في المنتصف تنتظر فقط أن تطبق المقصلة على رأسك.

لم يبدُ على ملامح آرتي الواقف بجوار سايروس في الشرفة أي نوع من القلق، بل ظهرت لمعة جذل في عينيه وهو ينظر إلى هذا الجنون كأنه لا يعنيه، وفجأة قفز على حاجز الشرفة بمهارة ونظر إلى الواقفين فيها وقال بسخرية:

- معذرة يا ملوك الأرض، لا يمكنني أن أفوت هذا الحفل.

وقبل أن ينطق أحد بشيء قفز آرتي دون تردد من الشرفة العالية إلى بروز على جدار قريب ثم قفز منه إلى الأرض وانطلق ناحية المعركة دون أن ينظر خلفه.

كان سايروس يضع يده على حافة الشرفة وينظر في هدوء إلى المصيدة التي نصبها غريم بعناية، فجاءت إيما - نصر ووقفت بجواره واستندت إلى حافة الشرفة ونظرت إليه بتمعن وهي تقول:

- أتدري يا سايروس لقد خاب ظني فيك، أنت الذي هزمت عشرة آلاف فارس دون أن تخسر رجلًا واحدًا، وعندما جئت إلى هذه البلدة دخلتها بكل غباء ممكن دون أن تحتاط لشيء.

ضيق سايروس عينه وهو ينظر إلى مئة ألف أو يزيدون أخرجوا السيوف من أغمادها واستعدوا للانطلاق عند إشارة قائدهم الذي رفع يده استعدادًا ليخفضها بعد ثانية واحدة لتبدأ المذبحة.

تنهد سايروس وهو ينظر إلى إيما ويقول:

- أنت جئت بمئة ألف رجل حتى يقضوا على ألف كما أرى، فكم رجلًا أتيتِ بهم لتقضي عليّ أنا؟

نظرت إيما إلى ملامحه الواثقة الوسيمة وقالت بلهجة تحدٍّ:

- أنت لا تحتاج إلى الكثير، أنا وحدي أقوم بك.

نظر إليها قليلًا يتمعن ثم قال:

- أتعلمين، إن المرء لا يتمنى ابنة عمة مثلك أبدًا.

نظرت إيما إلى لحظة بدء المعركة وهي تبتسم، مئة ألف رجل صرخوا صرخة رجل واحد وهجموا من الجانبين، رفعت إيما يدها فوق جبهتها في تهويل ساخر لما هو على وشك الحدوث، والحق أن الرجال الألف كانوا صامدين في المنتصف كأنهم أصنام، ثم فجأة توقف الآلاف المئة عن الركض كأنما تجمدوا.

في البدء توقف الجنود الذين في المقدمة فتوقف الذين في المؤخرة بعد أن كادوا يصدمون بهم، ضيقت إيما عينها في قلق وهي تستطيل لتحاول أن ترى بشكل أوضح، ثم اتسعت عيناها في رعب، فما يحدث هناك لم يكن شيئًا طبيعيًا على الإطلاق.

فهناك، بعد أن توقف الجيش هذه الوقفة المفاجئة، عملت الصفوف التي في مقدمة الجيش شيئًا عجيبًا، فجأة استداروا وأصبحوا يواجهون زملاءهم، واستدارت معظم الصفوف التي وراءهم حتى استدار أكثر من ثلاثة أرباع الجيش ورفعوا السيوف على الربع الباقي في المؤخرة الذين

أصبحوا ينظرون في فزع إلى زملائهم الذين أصابتهم لوثة غير مفهومة ليرفعوا السيوف عليهم بهذه الطريقة.

وقبل أن يفهم أحد شيئًا، هجم ثلاثة أرباع الجيش على الربع الباقي من زملائهم هجمة غاضبة كاسحة وحصلت مذبحة من نوع آخر، أغلب الجيش تقريبًا غيروا انتماءهم وأصبحوا يحاربون مع سايروس، ولم يكن هذا مصادفة، بل مدبر بعناية من سايروس بمعاونة الوزير هارباك الذي كان يقود هذا الجيش لسنوات وسنوات ويعرف قادته الذين اتفق معهم على الانقلاب على شـتاجـا في اللحظة التي لا يتوقعها أحد حتى لا يترك له أي فرصة في النجاة، ولقد بدأ سايروس تخطيط هذه الخطة مباشرة بعد أن استلم رسالة الوزير هارباك مع العجوز أوبار.

ولقد جعلها الخطة الأخيرة التي سيستخدمها في تنفيذ الضربة القاضية، ولقد لعبها بمهارة فائقة حتى إن إيما قد تجمدت ملامحها وأطرافها كأنما أصابها الشلل ولم يكن هناك أثر للحكيم غريم الذي بدا أنه نكص على عقبيه وغادر المكان سريعًا بعد أن فهم.

لكن نظرة إيما تحولت إلى الغضب الشديد وهي تصرخ في جنودها الذين وراءها:

- حاصروه.

وفجأة وجد سايروس على رقبته أكثر من خمسين سيفًا من جميع الجهات وليس في وضع يسمح له بالإفلات، فقالت إيما بحنق:

- أرسل أوامرك للجيش اللعين ليستسلموا وإلا سأقص عنقك وأعلقه على باب هذه القلعة وستخسر المُلك الذي تفعل كل هذا لتسعى إليه.

بدا سايروس شديد الثبات رغم كل هذه السيوف وقال:

- هل حقًا ظننت أننا نفعل كل هذا حتى أكون أنا ملكًا؟ بل إنني لو مت ها هنا لن يتغير شيء، سيصبح هارباك هو الملك.

ثم نظر إلى عينها وقال:

- نحن نفعل هذا بسبب شيء واحد لن تفهميه أنت ولا أمثالك.

قالت له في توتر:

- وما هذا الشيء اللعين؟

قال لها بلهجة قاسية:

- لأننا نكرهكم.

ارتجفت عيناها وكادت أن تنهار لكنها استجمعت نفسها وصاحت بغضب:

- اقتلوا هذا الشيطان.

وهوى أكثر من خمسين سيفًا على رأس سايروس من جميع النواحي.

***

في غمرة هذا الجنون صاح صوت غليظ قادم من أسفل القصر، صوت نادى بكلمة واحدة بغضب:

- سايروس.

في تلك اللحظة كان الجنود في الشرفة قد رفعوا أياديهم ليهووا بالسيوف على رأس سايروس، لكن أياديهم تجمدت في منتصف الطريق وهم ينظرون إلى مصدر ذلك الصوت فرأوا الوزير هارباك ووراءه أكثر من ألف رجل من عتاة المحاربين، بينما هم في الشرفة خمسون رجلًا فقط، وبدأت أياديهم ترتجف قليلًا وهم يتذكرون قول سايروس قبل قليل إنه لو مات فلا مشكلة سيتولاها هارباك من بعده.

- ارموا سيوفكم في التو واللحظة وسأضمن لكم العيش.

قالها لهم سايروس لينهي كل ذلك الصراع الذي يحتدم داخلهم، ولم يكن الأمر بحاجة إلى التفكير، إذ رمى الجنود سيوفهم وتحركت عين سايروس بينهم ووراءهم بحثًا عن إيما التي لم يكن لها أثر، ثم لمح سايروس ظلها وهي تهبط من جانب الشرفة في سرعة فقال بسخرية:

- هل بقي أحد اليوم لم يقفز من هذه الشرفة؟

رأى جنود هارباك إيما وهي تقفز ببراعة من الشرفة فرفع هارباك يده بحركة يعرفونها فتحرك فريق عسكري كامل بجيادهم يركضون وراءها، فقال سايروس بصوت خفيض وهو يستند إلى حافة الشرفة وينظر إلى هذه المطاردة:

- ولو أنك أرسلت كتيبة بأكملها يا هارباك، لن يلحقوا بهذه الشيطانة.

في تلك الساعات كان جيش سايروس الذي تضخم من ألف إلى أكثر من سبعين ألفًا قد انتصر نصرًا كاسحًا وسايروس يتابعهم من الشرفة بتركيز، حتى جاءه صوت هارباك وهو يدخل عليه الشرفة ويقول:

- سايروس، أين النجس شـتاجـا؟

التفت له سايروس وقال بهدوء:

- في يد أمينة جدًا.

قال هارباك بحزم:

- يد من؟

قال سايروس:

- يد ابنك آرتي.

وكأن سماع كلمة آرتي قد حركت ملامح هارباك الصارمة التي يظن الناظر إليها أنها بلا مشاعر، لكنها تحركت بتأثر وسايروس يقول:

- نحن لم نختطف شـتاجـا، ابنك آرتي هو الذي اقتحم عليه قصره واختطفه من بين مئة رجل من رجاله ورمى به تحت أقدامنا.

قال هارباك بشرود:

- آرتي فعل هذا.

ثم استدرك قائلًا:

- ولماذا لم يرم به تحت قدمي أنا؟

دوى صوت آرتي من داخل القاعة الملكية في القصر:

- هذا سؤال أنا الذي أجيب عنه بنفسي.

نظر هارباك خلفه فوجد آرتي واقفًا وهو يمسك بشـتاجـا الراكع على الأرض بسلسلة كأنها سلسلة الكلاب والدماء التي على ملابس آرتي ووجهه ونظرة الجذل في عينيه تدل على أنه سفك الكثير من الدماء في الحرب حتى استكفى.

وضع آرتي سيفه على عنق شـتاجـا بعنف حتى خرجت بعض الدماء من سن السيف الذي يمس رقبته وقال له:

- ما رأيك أن أطهو لك شيئًا من لحمك القذر ليسد بعضًا من جوعك؟ إن لك يومين لم تذق فيهما شيئًا.

تقدم هارباك من شـتاجـا وهو يقول بلهجة فيها ألم وأسى بمزيج لا يمكن وصفه:

- إن لحمه النجس لا يكفي.

لكن سايروس صاح بصوت حازم فجأة:

- لن يمس أحدكما من جلد هذا شعرة واحدة.

ولو أردت أن أصف لك النظرة التي نظر بها هارباك وآرتي إلى سايروس بعد أن سمعا منه هذه الكلمة ما وجدت من الكلمات ما يفي بالغرض فسأتركها لخيالك.

***

وقع كلام سايروس كأنه الصاعقة على الآذان، فحتى شـتاجـا نفسه المسلسل الراكع رفع رأسه ينظر من بين الغبار إلى سايروس الذي كان يتحدث بحزم شديد ويقول:

- ما الفائدة من أي عذاب تذيقونه إياه وهو هنا في هذه القاعة التي لا يراكم فيها أحد؟ اقطعوا من لحمه أو اقطعوا رأسه كله إذا أردتم هناك على ساحة قصره الكبير في إكباتان، وكل الشعب محتشد أمام القصر يرمونه بالسباب والبصاق، هذا أذل له وأنكى.

قال هارباك بشرود:

- هذا أذل له وأنكى، ولا يكفيني فيه، بل سأجعل إعدامه عذابًا يتمنى فيه الموت مئات المرات مع كل نفس يتنفسه بأنفه القذر.

ثم أمسك بشعر شـتاجـا وقال له بكراهية:

- في تلك الساحة سأعلقك كما كنت تعلق ضحاياك، وسأتركك أيامًا حتى يراك الذي يأتي ويروح، ويلعب بك الصبيان حتى إذا أوشكت على الموت من العطش أسقيك من دمائك القذرة وأطعمك من لحمك حتى تقيء.

ظهر التقزز على وجه سايروس بعض الشيء ثم أعرض بوجهه ونظر إلى الجنود الذين كانوا مع إيما وقال:

- أما هؤلاء فلا تمسوهم بأذى، فهم من أهل بابل، وسيكون لي معهم حديث طويل سيخبرونني فيه كل شيء عن جيشهم الذي تحاك حوله الحكايات العظام أو سنقطع رؤوسهم بلا هوادة.

وقبل المسير إلى إكباتان أرسل سايروس رجالًا ليحضروا أمه ماندان وأمه ليزا التي وجدها في حال لم يرها عليه يومًا، فسألها:

- ما بالك يا أماه؟

قالت له بصوتها الضعيف الذي لطالما استمد منه القوة:

- لقد قتلوا هرمز يا ولدي.

تغير وجه سايروس وجلس هامدًا على أقرب كرسي وشعر أن جسده كله قد تعرق وهو يقول بارتجاف:

- كيف؟ إنه في الإسطبلات، لا شأن له بالحرب.

وقبل أن تتكلم ليزا قال هارباك:

- قتله شـتاجـا، حبسه في إسطبل الخيل المليء بالذئاب، سمعته يقهقه يومًا وهو يشرح لي كيف قتلوه وأن الجزاء من جنس العمل، فكما خدعهم يومًا بأسنان ذئب، قتلوه بأسنان الذئاب.

نظرت ليزا إلى الأرض وكادت أن تفقد توازنها لولا أن أمسكت بها ماندان وأسندتها، ثم نظرت ماندان إلى سايروس بتلك النظرة التي لم ير أحدًا في الدنيا ينظر إليه بها، وقالت وعينها تترقرق بالدموع:

- بُني، لن أقول لك إن شـتاجـا هو أبي، وإني أشعر تجاهه بمثل ما تشعر أنت به تجاه هرمز، لكن يا بني، لا تفعل به مثل ما كان يفعل هو في البشر، لا تعذبه أو تهِنه، لقد كان أبي يفعل هذا لأنه هكذا، أما أنت يا ولدي فلست مثله.

شردت عينا سايروس قليلًا ثم قال:

- لو كنت وحدي الذي ظلمه شـتاجـا لتركته يعيش في بيته حتى يموت، لكني لست وحدي يا أمي، إنك لن تجدي عائلة في هذا الشعب إلا وفيها مظلوم أو مقتول أو مسجون بسبب شـتاجـا.

كان سايروس يعلم أنه حتى وإن سأل الشعب واحدًا واحدًا سيحكم أكثرهم على شـتاجـا بالموت، فهذا رجل لم يسلم من ظلمه حتى قادة جيشه الذين استغلهم هارباك للانقلاب عليه، ولا بد أن يشفي غليل المكلومين قبل أن يبدأ عهد جديد.

وفي الطريق إلى إكباتان كان شـتاجـا محمولًا على عربة مكشوفة من عربات الخيل ويجلس بجواره آرتي حارسًا لا يفارقه ليلًا ولا نهارًا، لم يكن هناك مهرب لشـتاجـا من أي مكان ولا أحد أصلًا يمكن أن يقدم له يد العون، فهو مكروه في قلوب الجميع، ولا أحد سيجرؤ أن يقترب من جيش قوامه سبعون ألف رجل يقوده رجال مثل سايروس وهارباك وآرتي.

لكن شـتاجـا لاحظ شخصًا واحدًا في غاية الأهمية، شخص قد يكون هو نقطة الضعف في وسط هذا كله وأكثر شخص مرعب هنا، آرتي.

كان يلاحظ نظرات آرتي وانفعالاته تجاه سايروس، إن قلبه مليء بالغيرة، وهو عاطفي قليل الحكمة لكنه شديد البراعة والذكاء، وكان هو الورقة الهوجاء التي قرر أن يلعب شـتاجـا بها لعبته الأخيرة.

***

في منطقة لا تبعد عن إكباتان أكثر من يوم واحد، خيم جيش سايروس وقد أعدوا أنفسهم لدخول المدينة، وفي ظلمة الليل لما توارت الظلال عن الأبصار، ونامت معظم العيون وهي تمني نفسها بالنصر،

كانت عينا آرتي ساهرتين تنظران بثبات إلى شـتاجـا المتكوم على نفسه في تلك العربة الخشبية.

كان مظهر آرتي مرعبًا بحق بهذا الشعر الطويل المنسدل على وجهه وهو يجلس بجوار شعلة من نار جعلها لتنير له الأجواء، كان يسن السيف وينظر إلى شـتاجـا بثبات وظله يتراقص على الأرض مع تراقص النار، استجمع شـتاجـا نفسه وقال فجأة دون مقدمات:

- أنت تضيع وقتك ها هنا.

توقف آرتي عن سن السيف ونظر إليه بحدة، فأكمل:

- لست أنا من قتلتها، بل هي فكرة غريم، لا بد أن أباك أخبرك بهذا، وأنت تضيع الوقت بجواري بينما يهرب غريم بعيدًا.

صمت آرتي ولم يرد، فقط ضاقت عيناه أكثر وقد ازداد غضبه فيما يبدو، لكن شـتاجـا قال:

- أنا الوحيد الذي يعلم مخبأ غريم، حررني من هنا وسأوصلك إليه.

قام آرتي من مكانه ومشى ناحية شـتاجـا وطرف سيفه يحتك بالأرض في صرير مرعب ثم قال:

- أنت يا قذر تريد أن تقدم لي العون؟ هل تشك في قدرتي على صيد الشياطين وإخراجها من مخابئها؟

ثم ظهر ذلك الجذل في عينه وهو يقول:

- أين المتعة في صيد شيطان عندما يعينني في أمره حقير مثلك؟

لم يكن آرتي سهل الفهم على أي حال، فأبعد شـتاجـا تفكيره عن هذا الطريق وقال وهو يثبت عينه على آرتي:

- هل تتخيل أن كل ما وصل إليه سايروس اليوم هو بسببك؟

ظهرت ارتجافة يسيرة جدًا في عين آرتي لكن شـتاجـا لاحظها واستغلها وهو يكمل:

- أنت فعلت أكثر شيء غبي يمكن أن يفعله بشر، بينما أعطيت العرش لرجل آخر، كان يفترض أن تجلس عليه أنت بعد أن فعلت كل هذا، ومن العجيب أن تنصر الفرس على أهلك الميديين، وما الذي أعطاك هذا الرجل في المقابل؟ لا شيء، بل هو يحط من شأنك.

نظر إليه آرتي بغضب لكنه أكمل:

- أنا كنت شاهدًا على كل شيء، أنت ذهبت إليهم في عرينهم ورميت بي في شوال تحت أقدامهم وهو شيء مستحيل أن يفعله إلا أبطال الأساطير، وماذا فعل هو؟ هل احتفى بك ولو بكلمة؟ بل حط من شأنك وقلل من قدرك وأظهرك بمظهر الأحمق أمام رجاله.

بدأت الدماء تغلي في عروق آرتي حتى ظهر هذا في قبضته التي تمسك السيف وشـتاجـا يكمل:

- وتلك الخطة التي نفذها بالنيران الحارقة وهزم الجيش الأول، هل أطلعك عليها؟ بل كنت تمشي وسطهم مثل الأبله تصرخ هنا وهناك ولا تعلم شيئًا، أتعرف لماذا؟ لأنه يريد أن يبهرك ويخبرك أنه الأفضل والأجدر بينما أنت لا تساوي شيئًا، حتى إنه لم يجعلك قائد جيشه أو وزيره مثلًا، بل أنت لا شيء، لست أقول هذا حتى تحررني فأنا ميت لا محالة، لكن لم أتحمل كم هذا الغباء الذي أراه منك.

ظهر بشكل واضح على ملامح آرتي الحادة أنه تأثر بالكلام، حيث صمت وشردت عيناه وظهرت فيهما مشاعر مختلطة، ولم يكن هذا

مبشرًا بخير على الإطلاق، بل كان نذيرًا بهدم كل شيء على رؤوس الجميع.

***

جاء اليوم المنتظر، ودخلت جحافل وأجناد سايروس مدينة إكباتان دخولًا لم تنسه بلاد فارس ولو مرت عليها آلاف السنين، صفوف الجند تعاقبوا صفًّا وراء صف كأنه لا نهاية لهم، وخرج الناس من بيوتهم في أحسن زينة ينظرون إلى الحلم الذي يوشك أن يتحقق، وكلما نظر الناس إلى صفوف الجند وظنوا أنهم انتهوا دخل المزيد والمزيد حتى صنع هؤلاء الجنود كلهم صفين عظيمين وتركوا بينهم طريقًا واسعًا مشى فيه سايروس بجسده القوي والهيبة التي صبغه الله بها، تمشي بجواره الأميرة ماندان وليتك نظرت إلى وجهها وعينها كلها دموع تترقرق، ولو سألتها عما تشعر اليوم ما استطاعت أن تصف لك شيئًا.

وعلى الناحية الأخرى من سايروس كانت تمشي ليزا بهيئتها الطيبة وجمالها القروي المحبب، ووراؤهما يمشي الوزير هارباك قائد هذا الجيش كله، ولم يكن هناك أثر لآرتي بالجوار.

وأمام القصر الكبير وقف سايروس ينتظر الجنود أن ينفذوا أمره الذي أمرهم به، أن يحضروا إلى هذه الساحة كل النبلاء الفجرة والحاشية الفسقة الذين إذا قعدوا على رأس أرض بارت وذل أهلها وجاعوا، وسايروس ينظر بعينه هنا وهناك كل حين يبحث عن آرتي وشـتاجـا لكنه لم يرهما.

وعندما جمع الجنود كل النبلاء الذين ركعوا على الأرض نظر سايروس إلى الشعب وقال بصوت جهوري كلمة واحدة أشعلت القلوب، قال:

- اليوم يا بلاد فارس هو يوم رد المظالم.

تطاولت رقاب البشر ينظرون إلى القوم الذين أذلوهم وقهروهم سنوات طوال حتى تخشبت قلوبهم وظهورهم ومشاعرهم فلم يكونوا يدرون في تلك اللحظة أي مشاعر تلك التي ألمت بهم، وإن الإنسان المظلوم لو أعطيته السيف ليقطع به رأس جلاده لوجدت يديه ترتجفان وعينيه تتحركان في حيرة وعدم تصديق.

ولم يملك هذا الشعب شيئًا إلا أن يصيح مهللًا بفرح ثم قال لهم سايروس:

- ها هم أولاء تحت أقدامكم بعد أن أذلوكم سنوات ونظروا إليكم كما ينظرون إلى بهائمهم.

كان النبلاء يحنون رقابهم ناظرين إلى الأرض بخنوع حتى قال سايروس:

- لقد تحركت في قلوبكم أيها الفرس كراهية الميديين رغم أنه لا تحكمكم سوى عائلة واحدة من ميديا، أما تذكرون على هذه الأرض قبل سنوات؟ كانت هذه الأميرة ماندان تمشي بعرجتها وتحملني في بطنها ودموعها تسيل، لم يفتح لها أحدكم بابه أيها الفرس، ومن الذي استقبلها؟ عائلة من ميديا.

دوى الصمت وخيم على الأنفاس وأكمل سايروس:

- في ذلك البيت رباني رجل من ميديا وأرضعتني امرأة من ميديا.

ثم نظر سايروس إلى الجزء الفارسي من الجنود وقال:

- لكنني لما خرجت من هذه المدينة هاربًا ونزلت في آنشان، كان الفرس هم الذين آووني ونصروني وخرجوا معي في حرب وهم يعلمون أنها قد تبيدهم عن صفحة الأرض، ولم يخرج معي ميدي واحد.

وتحولت ملامحه إلى الحزم وهو يقول:

- يا أهل فارس، ليس الأمر كما علموكم، ميدي وفارسي، إنما هناك قوم طيبة قلوبهم وقوم تطفح على وجوههم الخباثة.

كانت كلماته تمس جروحًا بليغة بداخل النفوس وتحاول أن تطببها وتسكن آلام سنوات من الانشقاق والطائفية والقبلية، لكن لم يكن هذا ممكنًا إلا بقطع الرأس الكبير أولًا، لأنه الرأس الذي ظلم الجميع واتفق الكل على كراهيته، رأس شـتاجـا، الذي لم يكن في تلك اللحظات له أثر بالجوار.

***

فجأة ظهر آرتي، برز من جانب المكان بهيئته العدائية التي تلفت الأنظار، كان يمتطي حصانًا ملكيًا يمشي به بتؤدة وهو يجر وراءه تلك العربة الخشبية التي يفترض أن تحمل الإمبراطور شـتاجـا، اشرأبت الأعناق تنظر إلى ما فوق العربة فلم يروا إلا شيئًا كأنه جسد مغطى.

نظر سايروس إلى العربة مضيقًا عينيه محاولًا تبين الذي عليها، ثم نظر إلى آرتي فوجده يرمقه بنظرة لم يفهمها لكنها تختلف عن طريقة آرتي المعتادة.

وقف آرتي بالحصان في منتصف الساحة ثم وثب بقدمه على ظهر الحصان بمهارة لا يجيدها سوى الشوجان، ثم قفز إلى العربة الخشبية وأمسك بذلك الجسد المغطى ورفعه أمام الجميع.

كان آرتي يحب الاستعراض لا شك في ذلك، ويعجبه أن يصنع المفاجآت التي لا تكون سارة عادة، فبقي سايروس ينظر إليه ويشد قبضته محاولًا تهدئة القلق الذي اعتمر في نفسه، وبخاصة بعد تلك النظرة.

صمتت الأنفاس وتعلقت العيون بآرتي الذي أزال الغطاء بحركة سريعة ورماه بعيدًا، ونظرت الجموع إلى ما وراء الغطاء، وفجأة انتهى الصمت وصاح الجميع.

صيحات هاتفة مليئة بالتعبير عن السعادة والامتنان وكلها تنطق باسم آرتي في حماس، فقد كان وراء الغطاء جسد شتاجا، ورقبته مقطوعة وهناك نصل سيف خارج من موضع الرقبة ورأس شتاجا معلق عليه، ولا بد أن شتاجا قد خسر رهانه الأخير على الورقة الهوجاء التي يبدو أنها قضت على حياته.

لم تتحمل ماندان رؤية أبيها هكذا فسقطت من فورها مغشيًا عليها والتقطتها ذراع ليزا، ورغم كل الغضب الذي في رأس سايروس لأن آرتي خالف الاتفاق، فإنه كان حكيمًا، فيكفي النظر إلى فرحة الجموع ودموع الارتياح التي نزلت من عينَي هارباك لرؤية شتاجا بهذا المنظر في يد ابنه آرتي.

نظر سايروس إلى آرتي فوجده ينظر إليه كل حين تلك النظرة التي لا يفهمها، وربما فهم لو أنه لاحظ يد آرتي التي تتحسس شيئًا ما في ثيابه بحرص.

وبعد أن هدأت صيحات الجموع وهتافاتهم، أصبح الوقت ملائمًا تمامًا ليتقبلوا أي شيء جديد، فالصدور رحبة والنفوس أهدأ والعيون يملؤها الارتياح، وهنا قال لهم سايروس:

- ذات يوم يا أهل فارس عرفت أن دمائي يسري فيها العرق الملكي وأنني حفيد الملك ووريث العرش الوحيد، لكنني لم أفرح يومها ولا حتى طرفة عين.

صمتت الجموع أكثر لتسمع وهو يقول:

- لطالما كرهت الملوك والنبلاء وظلمهم لبقية الناس في كل زمان، كرهتهم ولم أتمنَّ يومًا أن أكون منهم، بل أردت أن أكون بسيطًا من عامة الشعب كما كان أبي.

كان آرتي قد بدأ يدخل يده إلى ذلك الشيء المخفي في ثيابه وسايروس يكمل:

- الحق أقول لكم يا أهل فارس، إني لا أريد الملك، ولا يعجبني، ولم أسع إليه يومًا، وكل ما فعلته إنما هو لرد المظالم إلى أهلها.

تجمدت يد آرتي داخل ثيابه ونظر إلى سايروس وهو يكمل:

- لقد تحدثت مع هارباك في هذا الشأن فهو الوزير وهو الذي جعل انتصارنا الأخير ممكنًا بعد أن كان مستحيلًا، لكنه قال إنه رجل حرب لا تعجبه الملكية ومتاعبها ولا يتمناها لنفسه يومًا.

ثم نظر سايروس إلى آرتي في عينيه وقال:

- فإن كان هناك رجل واحد يصلح أن يكون ملكًا فهو هذا البطل هناك، فهو الذي اخترق كل دفاعات قصر شتاجا وجاءنا به مرميًا تحت أقدامنا.

ارتجفت يد آرتي بداخل ثيابه ونظر إلى سايروس في مشاعر متضاربة تكاد تعصف برأسه، كان هناك حديث عنيف يدور بين نفسه ونفسه، وكله عن سايروس.

لماذا؟ لماذا لا بد في كل خطوة أن يكون سايروس أفضل منه؟ لماذا كلما يرتفع ليعلو عليه يفعل سايروس شيئًا يجعله أعلى وأعلى؟ هل هو أفضل منه حقًّا؟

لم يدرِ أحد عن تلك المشاعر المعضلة شيئًا. ولا أحد يدري ما بداخل نفوس البشر، إلا أن الشعب بعدما سمعوا كلمة سايروس وهو يشير إلى آرتي أصابهم الوجوم قليلًا ولم يهتفوا ويصيحوا.

وكان هذا يمارس ضغطًا على آرتي ويزيد من صراعاته عنفًا، وفي النهاية برزت معالم غضب على وجه آرتي وقبض على هذا الشيء في ملابسه وأخرجه بسرعة ورماه في وجه سايروس.

وسقط هذا الشيء تحت قدم سايروس فنظر إليه في دهشة، وعاد صياح الجميع وهتافهم وهم ينظرون إلى الشيء الذي لم يكن سوى تاج الملك شـتاجـا الشهير الذي عليه رمز المملكة.

قال آرتي وهو ينظر إلى سايروس:

- لو كنت أريد الملك للبست هذا التاج في أول ليلة نزعته فيه من رأس هذا الخبيث، وكما رميت الملك الخبيث تحت قدمك، ها هو التاج تحت قدمك، خذه أو اتركه لا شأن لي به.

ازدادت هتافات الشعب ورأى آرتي فيها نظرات شديدة الإعجاب به رغم أنهم يريدون سايروس ملكًا، لكن آرتي في تلك اللحظة قد هدأ، لشيء ما، في نفسه، ولا يفهم النفس سوى من خلقها.

وهرع الرجال إلى التاج ليرفعوه من الأرض ويضعوه على رأس سايروس، وفور أن مس التاج رأسه ارتفعت أيادي الناس وارتفعت أصواتهم فرحًا وبشرى، ولم تنقطع الهتافات والضجة لحظة واحدة طوال ذلك اليوم، عيون الشعب خرج سرورها الذي طال كبته وحبسه وجلده، وصعد سايروس على سلم العرش الكبير وتألق تاجه الذهبي مع شعره الذهبي وطلته المليئة بالهيبة التي صبغه الله بها، فلم يكن سايروس عند الله كأي أحد، بل إن الله شرفه بأن ذكره في القرآن الكريم

باسمه الذي ذاع وانتشر في مشارق الشمس ومغاربها، اسم الملك ذي القرنين.

ورغم أن سايروس نفسه لم يعرف لقب ذي القرنين هذا إلا بعد حين من حياته، لكننا سنسميه به حتى يأتي ذلك الحين.

***

العين تتحرك كأنها نسر يطير بشكل دائري حول مكان مقدس ينطق كل شيء فيه بالهيبة، النظرة الأولى للمكان يتضح لك فيها أن هذا حرم كامل من المباني المقدسة، الكثير من التماثيل الضخمة والزخارف والعواميد المصنوعة من الرخام والمرمر يجاورها مدرج كامل روماني مليء بالكهنة الجالسين في تؤدة لا يتحركون حركة واحدة، مما يشعل الرهبة في النفس.

مزيد من التدقيق في المنظر يجعلك تلحظ شيئًا غريبًا، التماثيل التي في هذا المبنى لا تتبع حضارة واحدة، فهناك تماثيل إغريقية وبابلية وحتى مصرية، وكذلك النقوش. بل إن الحرس المنتشرين حوله لا يتبعون مملكة واحدة. كان هذا الحرم الواقع في قلب أثينا تقدسه جميع حضارات العالم القديم الكبرى، من بابل حتى مصر، واسمه مجلس «دلفي» أو كما يطلق عليه الجميع، مجلس الثعابين.

قررت العين الكف عن الطيران ومحاولة دخول قدس الأقداس في مجلس الثعابين هذا، فأخذت تدور كثيرًا حتى وجدت منفذًا دخلت منه مباشرة لئلا يفوتها ما يحدث في الداخل، ورأت العين كل شيء ورأينا معها.

ستة من البشر كانوا بالداخل وليسوا أي بشر، أخذت العين تدور على وجوههم حتى تراهم جيدًا، أولهم رجل ذو لحية طويلة وتاج ذهبي تزينه

ريشة ذهبية طويلة ويرتدي عباءة لا تخلو من الماس في كل موضع فيها، هذا «كروسوس» ملك أرض ليديا، وهي مملكة حجمها ضعف مملكة ميديا تقريبًا، وكروسوس هذا هو أغنى ملك في العالم القديم كله، وهو قريب شــتاجــا، فأخته هي زوجة شــتاجــا وأم الأميرة ماندان.

تحركت العين إلى الرجل الذي بجواره ومن بشرته القمحية وهيئة لباسه الفاخر والتاج الذي فوقه أفعى تعرف أنك تنظر إلى ملك مصر، وبالفعل كان هو أحمس الثاني ملك مصر من الأسرة السادسة والعشرين، وهو متحالف مع شــتاجــا وبينهما مصالح عسكرية وتجارية.

ثم انتقلت العين إلى الرجل الثالث وكانت له ملامح وحشية ولحية وشارب كثيفان، وهذا ملك يلقب بالأسد وهو ملك سبارتا اليونانية التي تملك أكثر المقاتلين وحشية في التاريخ القديم كله، ومتحالف مع شــتاجــا عسكريًّا منذ زمن طويل.

بجوارهم الرجل الرابع وهو ملك العرب كما هو واضح من هيئته، وكان العرب في ذلك الوقت لديهم مصالح مع الممالك الكبرى.

وهذا الرجل الخامس أنت تعرفه جيدًا بذلك القناع النصفي والملامح غير المريحة، غريم مستشار شــتاجــا الأول.

والسادسة كانت أنثى، وهي إيما - نصر، بنت نبوخذ نصر وقائدة قوات جيش بابل وهي بنت أخت شــتاجــا.

جميع أباطرة العالم القديم من شرقه إلى غربه وقفوا هنا بداخل قدس الأقداس في أثينا للقضاء على رجل واحد أسقط مملكة كاملة في شهر، رجل يتعامل بطرق حربية لم يشهد هؤلاء لها مثيلًا من قبل.

قال الأسد ملك سبارتا:

- لا حاجة لكل هذا الهراء، قلبتم الدنيا لفتى صغير هزم قريبكم اللعين شستاجا بفئة قليلة وبضع حركات ذكية غير متوقعة، تتعاملون كأن هذا الأمر شديد الصعوبة، إن العالم بأسره يعرف حروب السبارتا وكيف أن مئة رجل منا في الحروب العادية يهزمون ألف رجل أو يزيدون. ولو سمع الفرس أو الميديون الذين مع هذا الرجل أنهم سيواجهون السبارتا سيفرون من حوله كالفئران.

قال كروسوس بغضب وأقراطه الذهبية تهتز:

- أي حركات ذكية؟ هذا الرجل فاز لأن شستاجا غبي، أن تجعل قائد جيشك يأكل رأس ابنته يعني أنك ترمي بمملكتك كلها في النار، وزيرك الذي حارب معك لسنوات طويلة وكل صفوة رجال جيشك يهابونه ويحبونه تفعل به هذا؟ لولا هذا الغباء لكانت إيما ستفني سايروس هذا عن صفحة الأرض وعصابته الفارسية دون حتى أن تتسخ ثياب جنودها.

تكلم غريم بذلك الصوت الشبيه بالثعبان:

- كان لا بد أن يفعل شستاجا هذا وأكثر منه، بل أنا الذي أوحيت إليه عندما كشفت العيون أن الذي خلّص سايروس من السجن هي أمه ماندان، وأنها أخذته إلى آنشان الفارسية أعداؤنا منذ الأزل، وبات واضحًا للأعمى أن ثورة ستقوم هناك بلا شك، وحتى نجفف منابعها قررنا أن نحتفل بالحفيد المعجزة تحذيرًا للشعب وفي الوقت ذاته نضرب هارباك ضربة موجعة تحمل رسالة واضحة لكل قادة الجيش، أن من يفكر في التمرد في هذه الظروف سيخسر أغلى ما يملك.

قالت إيما بهدوء:

- أنا اقتربت من الحفيد المعجزة هذا كما لم يقترب أحد، إنه شيطان يستغل أضعف شيء لديك ويمسك به ليقلب الطاولة فوق رأسك، ففي حربه النارية الأولى استغل استخفاف خصومه به وجهلهم التام بخطورته واستدرجهم لساحة مفتوحة وأشعل فيهم النار كلهم، وفي المرة الثانية استغل أكبر ورقة لديه، الوزير المظلوم هارباك، وعمل به انقلابًا في وسط الحرب، هذا الشيطان يجب أن يموت وإلا سيهدد عروشنا جميعًا.

قال لهم أحمس ملك مصر وهو ينظر إلى طاولة منصوبة في وسطهم وعليها كثير من البيادق:

- لقد أعجبت بجرأة هذا الفتى، لكنه لن يهدد أحدًا، فالمعركة القادمة ستكون نهاية أسطورته، فهو سيواجه جيوشًا من خمس ممالك مختلفة لا يدري عنهم ولا عن قادتهم شيئًا، وكل الجيوش الخمسة متأهبة له وتعرف خطورته جيدًا وتخطو كل خطوة بحذر، وأعدادهم بجملتهم أكبر منه عددًا بخمسة أضعاف على الأقل، وأعلى منه تسليحًا، فكما تعلمون مملكة ميديا بكامل جيشها هي أضعف مملكة بين الكبار.

اقتربت العين قليلًا من تلك الطاولة وأخذت تنبض، فالخطة الموضوعة عليها لم تكن أي خطة، بل وُضعت بإشراف أعظم العقول الحربية في العالم القديم، وهي خطة تؤدي إلى نتيجة واحدة لا ثاني لها، الموت.

***

ليزا تجلس وحيدة في بيتها القديم، تنظر إلى الجدران المهترئة والبساط الفقير الذي تمزقت أطرافه، لقد أصبح ولدها ملك البلاد كلها،

ولقد أصر عليها أن تبقى في القصر يخدمها هذا وذاك وينحنون كلما مرت أمامهم، لكن ليزا لم تكن هذا النوع من النساء، كان هذا البيت الفقير هو قصرها، لا ترتاح روحها إلا فيه، ولو أنها أصبحت يومًا ملكة متوجة فستحكم الدنيا من هذا البيت.

ترقرقت عيناها بالدمع وهي تنظر إلى جوانب قصرها الصغير، كل شيء هنا له ذكرى، ولا شيء قد تغير كثيرًا عن حاله الأول، حتى ذلك القفل المتدلي على الباب، ما زالت تذكر كيف كسره هرمز بعنف وهو يدفع الباب كالمجنون، ما زالت تذكر لهفة عينه وهو ينظر إليها، كان يعلم أن جنود الملك سيقتلونه لا محالة لكنه لم يفكر في أحد، إلا فيها هي، خشي عليها من أدنى خطر حتى وهو يعلم أنها تحسن التصرف في كل شيء.

نظرت ليزا ناحية كرسي صغير يتعلق على ظهره وشاح يبدو قديمًا جدًّا، تأملته ليزا بتأثر شديد، إنه الوشاح الذي وضعت فيه سايروس الطفل أول مرة حينما قررت أن تربيه، وها قد ربته حتى...

انقطعت أفكارها فجأة وانقبض قلبها وهي تسمع صراخًا شديدًا بالخارج، هناك هياج جماعي فيما يبدو وضوضاء تنذر بالخطر، نظرت ليزا من النافذة في رعب، إن أهالي البلدة كلهم بالخارج وهناك...

فجأة اندلعت النيران في الخارج، الأهالي يركضون من شيء ما ويصيحون تلك الصيحة التي تعرف أنها صيحة الموت، هناك أصوات سيوف تخرج من أغمادها، لم تضِع ليزا وقتًا في المفاجأة، فالأمر واضح، إنها غارة على ضاحية زاغروس، غارة من النوع الشرس الذي لا يرحم أحدًا، والضاحية لا يحرسها سوى قليل من جنود سايروس.

سحبت ليزا من تحت السرير عصا متينة في نهايتها ساطور حاد، وهو سلاح صنعه هرمز قديمًا تحسبًا لأي خطر، لمحت من النافذة

أشكال الجنود ولباسهم الذي لا علاقة له بأهل ميديا ولا فارس من قريب أو بعيد، هذه السيوف الشبيهة بالخناجر الطويلة والدروع المزخرفة لا يستعملها سوى أهل بابل، وكل الناس تعلم حروب الإبادة التي خاضوها ويبدو أن هذه واحدة منها.

خرجت ليزا من الباب الخلفي بحذر ومشت في ذلك الزقاق وهي ترى بعينها في الفرجة التي بنهايته ما يهز قلب أي إنسان، رؤوس تطير من أعناقها، نار تأكل الملابس، أطفال يركضون بلا هدى في الأزقة، الحل الوحيد لتنجو من هذه الغارة أن تختبئ ولا تتنفس حتى يغادر رسل الموت.

سمعت صوتًا من داخل بيتها، هناك من اقتحم البيت بقسوة كما يبدو ولن تمضي لحظة واحدة حتى يفتح المقتحم هذا الباب الخلفي ويجدها، قبضت ليزا على تلك العصا المسلحة التي تحملها وانطلقت فجأة ناحية الباب وبالفعل خرج منه جندي بابلي بملامح وحشية، لكن وحشيته هذه لم تدُم طويلًا، فقد فوجئ بساطور يخترق عنقه بعنف حتى جحظت عيناه.

حاولت ليزا أن تسيطر على أنفاسها وهي تنظر إلى جندي ثانٍ وثالث دخلوا البيت بهمجية، وظهر في عيونهم الغضب وهجموا هجمة واحدة على امرأة لا تملك سوى عزمها، ولقد صدتهم يمينًا وشمالًا وضربت على الرؤوس والأعناق، لكنهم تكالبوا، وجاء بعضهم من الخلف، ولم تستسلم ليزا، كانت تمسك بذلك الساطور وتلوح به في وجوههم وهي تصرخ صرخات تعلم جيدًا أنها صرخاتها الأخيرة، لكنها تعلمت أن المرء سيموت مرة واحدة، وأن عليها أن تكون ميتة تستحق.

ولم تمض بضع لحظات إلا وجسد ليزا يسقط على ذلك البساط القديم في بيتها ويدها ترتفع في يأس لتحاول أن تلمس ذلك الوشاح المتدلي من الكرسي لمسة أخيرة، لكن الأجل لم يمهلها وفاضت روحها.

سبع ساعات كاملة هي المدة التي قطعها ذو القرنين بجيش جرار ليصل من إكباتان إلى ضاحية زاغروس بعد أن علم أنها احتُلّت، سبع ساعات من الغضب والحنق الذي ظهر على عينه كأنه نيران متقدة حتى دخل إلى الضاحية ولم يجد فيها جنديًا واحدًا، كأنهم عصابة من المرتزقة ضربوا الجنود القليلين الذين يحرسون الضاحية ثم روعوا الأهالي ثم غادروا دون أن ينهبوا شيئًا.

نزل سايروس من جواده وتوجه إلى بيته القديم والمشاعر تعصف به يمنة ويسرة حتى فتح الباب، وفاضت عيناه حتى اضطر أن يغمضهما من الألم، نظر إلى المنزل الذي كانت تتناثر فيه الدماء بكل مكان وعليه آثار معركة حامية قد وقعت، مد سايروس يده المرتجفة غضبًا إلى جثة أمه وسحب ذلك الغطاء الذي اعتادت ان تغطي به رأسها، ووضعه على رقبته وربطه بإحكام ثم انحنى ليطبع قبلة على جبين أمه الميتة وغادر المكان دون أن ينظر إلى شيء آخر.

لم تطلع الشمس في ذلك اليوم إلا وقد عرف سايروس أن العصابة التي ضربت زاغروس كانت مجرد خدعة لاستدراجه إلى الجنوب لأنهم يعلمون أنه لن يتحمل فقدان أمه وسينزل على رأس جيش كبير للانتقام، وهناك سيجد الخدعة حيث لا يوجد جيش في الجنوب، إنما الجيش الجرار الحقيقي هبط على المملكة من شمالها وضربها بقسوة شديدة، ولم يكن جيشًا واحدًا، بل خمسة جيوش بخمس رايات مختلفة تجاوز عددهم نصف المليون جندي هجموا على شمال المملكة واحتلوا مدينة كبادوكيا وانتظروا هناك.

نصف مليون جندي لم يكونوا مشكلة بالنسبة إلى سايروس بالذات، فهو أسطورة باهرة في الانتصار بالأعداد القليلة، لكن المشكلة الحقيقية أنه لن يصل إلى هؤلاء النصف مليون إلا بعد سبعة أيام كاملة، سبعة أيام تكفيهم تمامًا ليحصنوا ساحة القتال ويجهزوها ليستقبلوه كما ينبغي وهم يعرفون جيشه جيدًا، ففيهم الحكيم الداهية غريم بينما هو لا يدري شيئًا عن تسليحهم وقادتهم، فقط يعرف أنه يواجه خمس ممالك كاملة بجيوشها، وأحد هذه الجيوش هو جيش بابل الذي تقوده إيما-نصر الحاذقة التي لم تخسر حربًا واحدة دخلتها، وقوات السبارتا اليونانية الذين يكفي اسمهم لإرهاب أي مقاتل صنديد، وكروسوس الثري الفاحش الذي لا بد أنه موَّل هذه الحرب بأسلحة ودروع وجياد تسد عين الشمس، وجيش مصر العظيم الذي لا يقهر، وقبائل العرب النشامى بكل ما فيهم من عزيمة وشجاعة.

الأسوأ أنه لا يعرف شيئًا كثيرًا عن أرض المعركة نفسها، فمدينة كبادوكيا هذه في أقصى الشمال عند نهر هاليس البارد وحتى يصل إلى هناك بسرعة سيكون جنوده قد استنفدوا طاقتهم في السفر بينما جيوش العدو في أحسن حال يسنون سيوفهم وأسنانهم، ولو وقف عنده ها هنا ستزحف هذه الجيوش من الشمال لتغزو المملكة بأسرها وتدمرها تدميرًا.

إن جميع معارك سايروس شيء والمعركة القادمة شيء آخر تمامًا، فقد عزف فيها سايروس لحنًا مميتًا على أوتار الجميع لم ينسه أحد إلى يومنا هذا.

4
الهلكوت

أرض معركة الختام، ساحة صحراء جرداء ليس فيها موضع للهروب أو الاختباء، العين تجري بجنون وكأنها لا تصدق، خمسة جيوش كاملة مجهزة بكل أنواع التسليح يقفون في صفوف تتبعها صفوف في خط عريض جدًّا يتجاوز مئتي متر، أكبر خمس رايات في الأرض اتحدوا لإبادة ذلك الجيش الواقف هناك في صفوف قليلة تصنع خطًّا لا يتجاوز طوله أربعين مترًا بأي حال، فرق هائل في القوة يجعلك تشفق على ذلك الجيش الصغير الذي خرج ليواجه نصف مليون إنسان من نخبة جنود الأرض.

صمت تام لا تسمع همسًا، الهواء يطيِّر الرايات والعباءات والشعور، سايروس يقف على رأس جيشه في المشهد الذي قد يكون ختام كل هذه الأحلام، بجواره هارباك الذئب العجوز الذي أفنى عمره في الحروب ولم يشهد في حياته شيئًا مثل هذا.

جيش العدو لا يبدو عليهم الاستهتار بل قد أتوا إلى هنا جاهزين لأي خدعة بعد أن وصلت إليهم أنباء عن ألاعيب سايروس الحربية، التعبير

على وجوههم يشبه تعبير الضواري الجائعة التي رأت فريستها تقف في العراء.

يقابلهم جيش سايروس المتواضع الذين يظهر عليهم التوتر والقلق وهم ينظرون إلى جحافل من الجيوش تحمل أنواعًا من الأسلحة لم يروها من قبل.

العين ما زالت تدور بتوجس وهي تنظر هنا وهناك، ففي علم الحروب، تشكيل الجيشين بهذه الطريقة يعني الهزيمة الساحقة حتمًا بلا جدال، فالجندي الواحد يمكنه في الوضع العادي أن يواجه جنديًّا أمامه أو اثنين أو ثلاثة أو حتى خمسة إن كان شجاعًا، شرط أن يقفوا أمامه وجهًا لوجه، أما أن يواجه الجندي شخصًا من أمامه وشخصًا يأتيه من جانبه الأيمن أو الأيسر فهذا يعني النهاية الحتمية، وفي تشكيلات الحروب إذا استطعت أن تهجم على خصمك بجناحين من جنودك يطوقانه من اليمين واليسار غير الذين يضربونه في وجهه فستهزم خصمك على الفور وتبيد جنوده بلا أمل في النجاة.

وعلى أرض المعركة كان يقف جيش طوله مئتا متر أمام جيش طوله أربعون مترًا فقط، وبنظرة عسكرية بحتة ستعرف أنه لو بدأت الحرب على هذه الحال سيقترب الخط الطويل من الخط القصير ثم سيتحول الخط الطويل إلى قوس يطوق الخط القصير من الجانبين ثم يصير نصف دائرة تبتلع الخط القصير ويفتك به تمامًا.

المشكلة أن سايروس أوقف جيشه في خط قصير متكدس في المنتصف، مما يعني أن جنود العدو لن يبتلعوهم فقط في نصف دائرة، بل ربما يصنعون عليهم دائرة كاملة، وهذا يعني الهلاك المحقق.

نظرت العين إلى العدو الغاشم الذي وضع محاربي السبارتا الوحشيين في المنتصف وعلى الجانبين جيش بابل وليديا وفي الصفوف

الخلفية جيش مصر والعرب، وكان قائد كل هذا هو كروسوس ملك ليديا وحده، لأنه لا بد لكل هذه الطوائف الحربية المختلفة أن تتبع قائدًا واحدًا بخطة واحدة وضعها مجلس الثعابين وسهروا على رسمها أيامًا.

كان كروسوس ينظر إلى ما حوله باستغراب، لماذا يواجهه سايروس بتشكيل غبي كهذا؟ وأين بقية جيشه؟ إن هذا الجيش المتكدس الذي جاء به لا يتجاوز خمسين ألفًا بأي حال، وكل التقارير تشير أن سايروس معه مئة ألف على الأقل. هناك خدعة ما، لقد قالوا عن سايروس إنه شيطان، هل يخبئ بقية جيشه في مكان ما ليخرجوا فجأة؟ لكن حتى هذا وضعه مجلس الثعابين في الحسبان، بل إنهم وضعوا كل التشكيلات الحربية الممكنة وكيفية إبطالها. بحث كروسوس بعينه عن شيء غير طبيعي في الأرض أو في الجوار، لكنه لم يلحظ شيئًا غريبًا، فجنود خصمه يقفون بشكل طبيعي بعضهم مشاة وبعضهم على جياد وآخرون على عربات حربية، لا يوجد شيء غير طبيعي إلا...

انقطعت أفكار كروسوس وانتهى الصمت المخيم على الأجواء بصرخة سايروس العالية التي أعلنت بدء الحرب، وقبض جيش العدو على أسلحتهم، ثم حدث شيء غريب قبل أن يتحرك جنود سايروس أو جنود العدو، شيء قلب جميع الموازين.

***

هذه التشكيلة الكارثية نفسها كان سايروس يرسمها أمامهم في تلك الليلة على الرمال وهم متحلقون حوله وضوء النيران يهتز يمينًا وشمالًا على ملامحهم التي تنظر بعدم استعداد لتصديق هذا الشيء الذي رسمه، فبعد أن رأى الراصدين وعرفوا أخبار عدد جيش العدو بالضبط وقوته البالغة يأتي سايروس الآن ويرسم لهم خطًا قصيرًا متكدسًا لا معنى له، فقال هارباك بغضب:

- إن خِبرتك في الحروب الحقيقية يا سايروس هي صفر كما يبدو، فهؤلاء سيطوقوننا من اليمين واليسار وسنموت دون جدوى.

هز سايروس رأسه نفيًا ببطء وهو يقول:

- بل نحن الذين سنطوقهم.

كاد هارباك يفقد أعصابه حقًّا، فالعدد القليل يستحيل أن يطوق العدد الكثير في الحروب، فقال بشيء من الحدة وهو يسيطر على غضبه:

- هذا هراء، كيف سيطوق القلة الكثرة؟

مد سايروس عصاه في الرمال وأخذ يرسم لهم شكلًا مبهمًا بدأت تتضح تفاصيله الدقيقة شيئًا فشيئًا حتى انتهى فرفعوا حواجبهم استغرابًا وهم ينظرون إلى الشكل الذي رسمه وأشار له وقال بثقة:

- بهذا.

كان قد رسم لهم على الأرض شكل جمل.

***

وفي ساحة المعركة الحقيقية بينما كروسوس ينظر متمعنًا إلى الأجواء باحثًا عن بقية جيش سايروس، إذ جاءته الإجابة قبل أن يطلبها.

فجأة انطلقت صفوف من الجمال المدرعة خرجت من الجانبين من وراء جيش سايروس ناحية جناحي جيش العدو في سرعة، كل جمل يقوده فارس ويجر وراءه عربة مغطاة، نظر كروسوس إلى المشهد وهو لا يفهم شيئًا، فماذا ستفعل هذه الجمال القليلة بالضبط في مواجهة نصف مليون؟ إن عددها بمجموعها لا يتجاوز عشرة آلاف جمل، لكن قلبه قد هبط إلى قدميه بلا سبب واضح غير أنه يعرف أن هناك فخًّا ما، فصرخ بكل قوته وأعطى الأمر لنصف مليون جندي أن يهجموا في حركة واحدة.

هنا عملت الكتلة المربعة المتكدسة في المنتصف من جيش سايروس شيئًا غريبًا، إذ انحنوا على الأرض ورفعوا دروعهم أمام وجوههم، فقط رفعوها.

كل جهة من المربع المتكدس رفعت دروعها لتغطي أضلاع المربع فتكونت كتلة متكدسة مدرعة من الرجال ينحنون على الأرض، وهو تشكيل تستخدمه الجيوش عادة للحماية وقت الخطر الداهم.

وانطلق جيش العدو هاجمًا بكل قوته، خمسون ألفًا من جنود سبارتا انطلقوا لاختراق الكتلة المتكدسة بينما جناحا جيش العدو انطلقوا بسرعة نحو الجمال ليفتكوا بها حتى يفرغوا لتطويق الكتلة المتكدسة، وكان يفترض أن الفتك بالجمال أمر يسير جدًا عليهم، فكل جناح للعدو فيه أكثر من مئتي ألف مقاتل، بينما تلك الجمال لا تتجاوز على كل جناح خمسة آلاف.

تابعت العين الآلاف الخمسة من الجمال الذين عند الجانب الأيمن وهم يركضون بسرعة ساحبين عرباتهم الغامضة وهم يتباعدون عن بعضهم كلما تقدموا حتى يوسعوا الخط في مواجهة خط العدو الطويل في الجانب الأيمن.

وقبل أن تأتي اللحظة التي ستصطدم فيها الجمال بأحصنة العدو، عملت الأحصنة شيئًا في غاية الغرابة، فجأة هاجت وماجت وأصبحت تحرك رؤوسها يمينًا ويسارًا في ثورة جامحة حتى أسقطت أكثر من عليها من فرسان العدو الذين نظروا إلى جيادهم التي بدأت تتحرك يمينًا وشمالًا هاربة من المكان بلا سبب مفهوم.

وفي صيحة واحدة أزيلت الغطاءات عن العربات التي تجرها الجمال وظهر من تحتها بقية جيش سايروس، أربعة رجال على كل عربة يحملون السهام ويطلقونها بشكل متبادل سريع في وجوه جنود العدو،

كل اثنين في عربة يطلقون أسهمهما معًا ثم ينحنيان ليطلق الاثنان الآخران سهامهما وهكذا في كل عربة ليخرج من جميع العربات وابل من السهام لا ينقطع حتى لثانية واحدة، وابل ينطلق كأنه طلقات متتابعة ناحية رؤوس جنود العدو.

ووجد مئتا ألف فارس في كل جناح أن أحصنتهم خانتهم وهربت من المكان، وهناك وابل من السهام كالأمطار ينغرز في رؤوسهم وصدورهم، فأصابهم التخلخل لوقت كبير جدًّا، وأي شيء أهم من الوقت في هذه المعارك، لقد استغل سايروس الشيء الأهم الذي تعلمه من حياته في الإسطبلات، إن الأحصنة لا تطيق رائحة معينة للجمال، تلك الرائحة التي تصدر مما يربض عليه الجمل أو ما وراءه من روث، وقد استغل سايروس مسيره في سبعة أيام في المملكة وجمع كل الجمال التي في طريقه وربط على كل جمل أكياسًا من هذا العطن والروث الذي يصنع الرائحة، ووضع دروعًا على وجوه الجمال وجوانبها لتكون مثل السلاح الفتاك الذي لا يقدر العدو على إسقاطه إلا بصعوبة شديدة، ووضع وراء كل جمل عربة محملة ببقية رجاله رماة السهام وأمرهم أن يضربوا على الرؤوس والأعناق والصدور من مسافة قريبة بلا توقف يمينًا ويسارًا حتى تضرب أسهم كل عربة قدرًا كبيرًا من جنود العدو الذين فجعوا ونكصوا على أعقابهم هاربين رغم كثرة عددهم وأصبح جنود سايروس يصيدونهم من ظهورهم بسهولة.

أما السبارتا فقد كان وضعهم أحسن قليلًا من بقية الجيش، فقد هجموا على تلك الكتلة التي تكدست على نفسها بالدروع وأخذوا يضربونهم بوحشية شديدة لاختراقهم، ولم يدروا أن الجمال التي على الجانبين قد نجحت في تسريح بقية الجيش ثم استدارت إلى السبارتا،

وقفز الرماة من العربات وأخرجوا سيوفهم وهجموا على جيش السبارتا من اليمين واليسار يطوقونه.

وهنا قام المتكدسون وأخرجوا سيوفهم وبدؤوا يحاربون السبارتا الذين وجدوا الضرب يأتيهم من ثلاث جهات، ولم يمض وقت طويل حتى انهزم السبارتا ورمى كثير منهم أسلحتهم ليلوذوا بالفرار لكن الرماة أخرجوا أسهمهم مجددًا وبدؤوا يصطادونهم بلا رحمة.

وانطلق جيش سايروس وراء بقية الفلول الهاربين هنا وهناك، وكانت أعجوبة حربية بكل المقاييس، نصف مليون جندي من أشد جنود الأرض هزمهم مئة ألف، ليس هذا فقط، بل إنهم طوقوهم رغم أنهم أقل منهم بخمس مرات في سابقة لم تحدث في التاريخ إلا هذه المرة فقط. وكتب سايروس اسمه في الأساطير بماء الذهب الذي لا يصدأ، ولا ينجلي.

***

قررت العين أن تبتعد عن أجواء هذه الحرب الأسطورية لتبحث عن الكاهن غريم الذي كان ينظر إلى كل هذا من قمة جبل قريب، توجهت العين ناحية الجبل الذي كان له منظر بشع جدًا، وكل خلق الله بديع لكن هذا الجبل بالذات امتدت إليه أيدي البشر ونحتت فيه بيوتًا وممرات من أسفله إلى أعلاه بطريقة تجعل منظره يقبض القلب، كان الأهالي يسمونه قلعة أوتشيسار، ويقال إن الجن والشيطان هم الذين نحتوه وما زال حتى اليوم قائمًا في كبادوكيا كأغرب جبل على وجه الأرض.

تحركت العين بشكل دائري حول الجبل الشيطاني صاعدة إلى أعلاه، كان يبدو مهجورًا ليس فيه بشر، وصلت العين إلى أعلى قمة في الجبل واقتربت من النافذة المنحوتة هناك لتجد الكاهن غريم واقفًا ينظر بعين واحدة غاضبة إلى الحرب التي لا يمكن أن يصدق أحد أنها انتهت بهذا

الشكل المخزي، مد غريم يديه وأغلق النافذة وأوصدها بسرعة واستدار ليهرب كما اعتاد في كل مرة لكنه تجمد مكانه فجأة وظهرت الدهشة على عينه البارزة من القناع.

- لم يكن من الحكمة أن تغلق النافذة بيدك، فلن ينفعك أن تتحول إلى غراب لعين لتفر من وجهي، ملاذك الوحيد أن تتحول إلى فأر حقير يركض على الأرض من أمامي.

قالها آرتي وهو يدير الخنجر بيد واحدة بينما يتدلى السيف من يده الأخرى سائدًا على الأرض، ورغم كلماته الساخرة فإن عينيه كانتا مليئتين بالكراهية وهو ينظر إلى غريم الذي انتهى تأثير المفاجأة عليه وعاد إليه جموده ثم قال ببرود:

- ما الذي أتى بك هنا يا بن هارياك؟

قال آرتي بكراهية:

- أعرف طبعك في مراقبة حروبك الخاسرة من بعيد كالفأر، وليس هناك أكثر مثالية من هذا المكان الموبوء لتمارس فيه طبعك القذر.

استدار الكاهن غريم وأعطى آرتي ظهره وهو يتقدم إلى النافذة ويقول:

- أتدري إن فكرة الفأر هذه راقتني.

أوقف آرتي تدويره للخنجر واستعد لرميه وهو ينظر بغضب إلى غريم الذي مد يده ليفتح النافذة لكن خنجر آرتي انطلق يشق الهواء بلمح البصر ثم انقبض قلب آرتي في خوف.

فالخنجر ضرب العباءة التي يرتديها غريم ودفع بها لتتثبت في النافذة الخشبية لتتدلى منها على الأرض كأنه لم يكن بداخلها بشري منذ قليل.

لم يكن آرتي يصدق بأمور الشياطين التي تشاع على كهنة الماجي، وبخاصة أنه يعرف كثيرًا منهم لأنه ابن الوزير ويعرف نفاقهم وكذبهم وحقارتهم ولم يصدق يومًا أن لديهم قدرات حقيقية تخترق الطبيعة. نظر آرتي إلى العباءة وهو يقترب منها بحذر ثم لمح شيئًا يتحرك بداخلها فدق قلبه بسرعة، وفجأة خرج من العباءة المتدلية على الأرض غراب يمشي بقدميه على الأرض ببطء لكنه لم يجد الفرصة ليكمل خطوتين، إذ أصابه خنجر ثانٍ رماه آرتي بعنف ليستقر في عنق الغراب الذي سقط على الأرض هامدًا بلا حراك.

نظر آرتي حوله في عصبية باحثًا عن غريم وفتح النافذة بغضب صائحًا:

- أيها الشيطان!

وقبل حتى أن ينظر آرتي إلى الخارج انغلقت النافذة في وجهه وضربته بعنف شديد، فتراجع بألم تحول إلى دهشة حينما انغلق باب الغرفة وراءه بقوة من تلقاء نفسه وعمل صوتًا عاليًا مجلجلًا.

أطلق آرتي سبة بذيئة وهو يحاول فتح الباب بكل طريقة بلا جدوى، كانت المرة الأولى التي يشاهد فيها أمرًا خارج نطاق الطبيعة تمامًا، ورغم هذا لم يصبه شيء من الخوف، فهو مقاتل ذو قلب ميت تقريبًا، كل ما شعر به هو الغضب، لكن المشهد التالي جعل كل شعرة في جسده تنتصب.

فجأة سمع بأذنه صوتًا.

بل عدة أصوات..

مئات الأصوات في الواقع كأنها صفير الفئران لكن بنغمة أكثر توحشًا.

نظر حوله في شيء من الفزع، لم يكن آرتي يعلم أن هناك بعض السحر شديد الخطر، وأن أكثر شيء سوادًا في سحر ذلك الزمان يقع بين يدَي الكاهن غريم، حتى هذه القلعة الجبلية لم يهتم آرتي بمعرفة أي شيء عنها قبل أن يدخلها، فرغم أن البشر هجروها منذ زمن بسبب منظرها فإنها صارت منازل للسحرة.

وهنا شاهد آرتي نهايته المأسَوية بأم عينيه، عندما برزت له من شقوق الجدران مئات العيون الحمراء الصغيرة التي تصدر صوتًا مزعجًا ولم يلبث إلا أن رآها تدخل عليه من كل حدب، أكثر من ألفي فويسق من الجرذان السوداء قبيحة المنظر تتحرك في هياج لا يبدو طبيعيًّا بأي حال وكأن الشياطين تركبهم بين عيونهم، رآهم آرتي يصعدون على جثة الغراب من كل موضع ويغرزون أسنانهم فيها بعنف.

تراجع آرتي بشكل فطري، كانت المرة الأولى التي يعرف فيها أن الفئران يمكن أن تأكل اللحم بهذه الشراهة، ولم يجد آرتي وقتًا للتساؤل، فحوله من كل زاوية ممكنة، زحف ألف فأر بسرعة خارقة، كلهم ينشدون شيئًا واحدًا، لحمه.

***

إن الإنسان إذا وقع في خطر داهم تجد الجسد قد انتفض وأخذ يحقن العروق بدفعات مركزة من هرمون الخوف الذي يضاعف سرعته وقوته ونشاطه أضعافًا، وحينما نتحدث عن رجل في قوة آرتي فإن هذا الهرمون حوّله إلى مارد غاضب، فبقفزة واحدة تراجع إلى جدران زاوية الغرفة ثم صعد عليها بيديه ورجليه ولم يكن فيها ما يصلح للتشبث، وكان هذا يحتاج إلى قوة بالغة ليثبت نفسه صاعدًا بهذه الطريقة.

مسح آرتي الغرفة بنظرة واحدة وهو معلق، النافذة مغلقة بمصراع من حديد، والباب الموصد أكثر صلابة منها، ركز بعينه على المشعل المثبت على الجدار ورأى فيه لمحة الأمل وسط كل هذا، وبحركة كادت أن تسقطه أرضًا مد إحدى يديه إلى جرابه وأخرج خنجرًا ونظر إلى المشعل بتركيز ثم رمى الخنجر بدقة لا يقدر عليها سوى الشوجان، فضرب المشعل من موضع معين وأسقطه من دساره على الأرض قرب الطاولة. ففاجأ الفئران التي ابتعدت عن المشعل وأصبحت تستعمر بقية الأرض كأنها بساط، ولم تلبث نار المشعل إلا أن أمسكت في قدم الطاولة فاشتعلت شيئًا فشيئًا حتى كبر لهيب النار وتحرك إلى الأثاث والكتان وفزعت الفئران وهاجت، وبعضها كان بلا عقل فصاروا يرمون أنفسهم في النار بلا هدى كأنما سُحرت أبصارهم، وبعضهم فر من المكان إلى الجحور.

هبط آرتي من تلك الزاوية متوجهًا إلى النافذة وحاول فتحها بكل قوته دون جدوى، وقد أصبح الدخان المتصاعد من النار واحتراق الفئران كالسحاب الأسود الخانق، فكان آرتي يسعل بشدة وعرف أن لحظاته في الحياة أصبحت معدودة لولا أنه حمل شمعدانًا ثقيلًا كان في الغرفة وركض به بقوة بالغة ليضرب النافذة مرة ومرتين وثلاث حتى انفتحت في الضربة الرابعة فقفز إلى الخارج بعد أن كاد يهلك.

وحتى قفزته هذه أوشكت أن تنهي حياته فالنافذة في أعلى قمة القلعة، ولو أنه لم يمسك بيده في حافة النافذة لهوى من كل هذا الارتفاع وانكسر عنقه وتفتتت عظامه.

نزل آرتي بمهارة بين ثنيات الجبل حتى وصل إلى الأرض وذهب يركض بفرسه في عزم ليلحق بجيش ذي القرنين الذي كان يتحرك وفي

قلوب رجاله طاقة تكاد تهد الجبال بعد الفوز الساحق الذي حققوه، فلما وصل إليهم آرتي قال له ذو القرنين:

- لا أجد معك شوالًا يا آرتي.

قال آرتي بحنق:

- ليس هذا بسحر ساحر، سأقطع عنقي بنفسي إن لم يكن هذا اللعين هو أنجرا ماينو بنفسه.

لقد كان آرتي مجوسيًا على دين قومه الذين يؤمنون أن للكون إلهين، واحد منهما هو إله الشر أنجرا ماينو، لكن ذا القرنين قال له:

- لو كان هذا هو أنجرا ماينو وهزمناه في كل هذه المعارك فلا بد أن يتنازل لنا إله الخير المجوسي عن عرشه.

لم يكن ذو القرنين يؤمن بدين قومه، بل يعتبره هراء لا قيمة له، حتى آرتي لم يكن يعبأ بهذا الدين، فقد كفر به بعد أن رأى عن قرب أفعال الكهنة الكبار الذين كان مقربًا منهم بسبب منصب والده الوزير.

ومضى ذو القرنين بجيشه الجرار حتى وصلوا إلى ساردیس عاصمة مملكة ليديا وحاصروها حصارًا شديدًا ووقعت معركة لا داعي لذكرها بتفاصيلها فما قبلها وما بعدها أشد منها، لكن المهم أن سايروس لم يخسر فيها جنديًا واحدًا كعادته.

وسقطت وانضمت ليديا كلها بجيوشها تحت حكم مملكة ذي القرنين، ورغم أن كروسوس ملك ليديا كان واحدًا من الأعمدة التي تآمرت لشن هذه الحرب، فإن ذا القرنين عفا عنه ولم يصبه بسوء، لكنه جرده من كل ثروته الفاحشة وضمها إلى خزينة الدولة مما جعل مملكة ذي القرنين شديدة الثراء والقوة.

ولم يضِع سايروس وقتًا بل تحرك إلى الأرض الملعونة، بابل، وكان ينتظره هناك جيشها الذين هم أشد البشر كفرًا، وكهنتها الذين هم أكثر البشر سحرًا، وعبيدها اليهود الذين هم أخبث البشر.

***

بابل وأي شيء في ذلك الزمان مثل بابل! مرت العين عليها ببطء كأنها الشهاب السائر في سماء الغروب حتى تنظر إلى كل شيء بدقة، فهذه المدينة كانت أغرب شيء بناه البشر في تاريخهم حتى هذه اللحظة.

فمن وسطها يبرز برج شاهق لولبي لا تقدر أن ترى قمته لأنها تلامس السحب المتكومة حوله، برج بابل الذي كتب عنه المؤرخون وأصحاب الأساطير كثيرًا من الكلمات واعتبروه عجيبة من عجائب الدنيا، لكن كل كلامهم لم يصفه حق الوصف، فمنظره له رهبة يستحيل أن تنقلها الكلمات. يكفي أن تعلم أن البرج هو في الحقيقة ثمانية أبراج داخل بعضها بعضًا، ومن يقترب منه يصيبه المس في الحال كأن هناك شياطين تحوم حوله تحرسه أو تستعمله لغرض ما.

بجواره عجيبة ثانية من عجائب الدنيا لم يعرفوا ماذا يسمونها فأطلقوا عليها حدائق بابل المعلقة، وهي تبدو للوهلة الأولى كأنها قاعدة هرم مدرج بيضاء يسيل من كل درجة منها شلال يسقي الدرجة التي تحته، وفي كل درجة أنواع من الأشجار لها ألوان ليست في الدرجة الأخرى.

لكن أعجوبة بابل الحقيقية كانت في تحصيناتها المستحيلة التي لم يفهمها المؤرخون بشكل كامل حتى هذه اللحظة، فمن المفترض أن نهر بابل منذ قديم الزمان يدخل هذه المدينة من شمالها ويجري

بداخلها ثم يخرج من الجنوب، لكن عندما تولت إيما رئاسة الجيش بلغ من جنونها وحسها الأمني المبالغ فيه أن تغير الخريطة الطبيعية تمامًا لأرض بابل، فحفرت نهرًا عريضًا يحيط بالمدينة في دائرة كاملة، وهذا النهر الدائري يلتقي مع نهر بابل في مدخل المدينة بالشمال ومخرجها بالجنوب، فأصبحت بابل مثل الجزيرة التي في وسطها نهر، فلا يمكنك أن تقترب منها إلا بقارب أو سفينة، ولا يمكنك أن تدخل إليها بالسفينة إلا عبر النهر من بوابة الجنوب أو الشمال، وهما بوابتان مصفحتان بالحديد والصلب، ولقد حظرت إيما الدخول أو الخروج من المدينة تمامًا حتى تنتهي الحرب على سايروس.

وحتى النهر الداخل إلى المدينة لم تتركه إيما في حاله، بل حولت مجراه الطبيعي إلى مجرى متعرج بشكل مستفز، حتى إنه يمر على الحي الواحد ثلاث مرات حتى يصاب الداخل إلى المدينة بالإنهاك ويكون مجبرًا على السير بسفينته في النهر في طريق متعرج هي التي رسمته.

ولم تكتف إيما بهذا القدر بل فعلت ما هو أشد، نصبت طواحين أفقية عملاقة تحت الماء، كل طاحونة يجرها أكثر من مئة ثور يتبدلون ليلًا ونهارًا بانتظام في غرفة مخبوءة تحت النهر، وهذه الطواحين تصنع تيارًا عنيفًا طاردًا من المدينة، فالسفينة التي تحاول الاقتراب تجد نفسها غير قادرة على التحرك قيد أنملة لأن هناك تيارًا عنيفًا في النهر يبعدها سواء دخلت النهر من الشمال أو الجنوب أو حتى اقتربت من الأسوار عبر النهر الدائري، وهذا التيار يتوقف عند دخول السفن التجارية فقط بإذن شفهي من إيما للقائمين على الطواحين، وفور أن علمت إيما أن سايروس يقترب منعت السفن التجارية تمامًا من الدخول للمدينة إلى أجل غير مسمى.

كثير من الأهالي لا يؤمنون بوجود هذه الطواحين أصلًا ويقولون إن هذا التيار الشديد يصنعه سحرة بابل الذين يقدرون على كل شيء، ولا يدري أحد حتى هذا اليوم ما هي الحقيقة.

حتى السور الذي يحيط بالمدينة من كل جهاتها هو سور أزرق مدرع ضخم بداخله سور مدرع آخر يماثله في الحجم، وبين السورين جسر علوي واسع كأنه شارع فيه بيوت صغيرة على جانبيه يسكن فيها الحرس، كلما انتهت نوبة مجموعة منهم يدخلون البيوت ليخرج زملاؤهم في اللحظة نفسها في نوبات تتغير كل يوم.

ووسط حدائق بابل المعلقة كانت إيما تجلس بداخل خيمة شفافة وحولها جنودها يأتون ويروحون عليها ليتلقوا التعليمات التي تتغير كل يوم حتى لا تترك فرصة واحدة للخيانة، لأنها تعلم أن أكبر جدار حصين في الدنيا يمكن أن يسقِطه خائن.

***

خارج أسوار بابل التي لا تُقهَر كان سايروس قد حضر وخلفه جيش بالغ الضخامة، ويبدو واضحًا تمام الوضوح أن سايروس كان يعلم دفاعات بابل قبل حضوره، فالجنود البابليون الأسرى الذين كانوا مع إيما في الشرفة أخبروه بكل شيء، لذلك لم يأتِ خاليًا، بل جاء بأسطول ضخم من السفن أوقفهم جميعًا في النهر بعيدًا عن بابل حتى لا يسحبهم التيار الصناعي.

وقف سايروس على ضفة النهر يعاين المكان بنفسه، وأفكاره تتقاذفه يمينًا وشمالًا، هناك تيار قوي حقًا يجعل النهر هائجًا كأنه بحر متلاطم الأمواج، وهذا يعني أن بوابة بابل الضخمة فوق النهر يستحيل

أن يكون قاعها واصلًا إلى أرضية النهر وإلا كانت البوابة ستوقف هذا التيار، فغالبًا هي مجرد بوابة فوق النهر، أما أسفلها فهو مفتوح حتمًا.

الطريقة الوحيدة التي يمكن التسلل بها لداخل المدينة هي من تحت الماء وهو أمر غاية في الجنون، فأي جندي هذا الذي سيغطس كل هذه المسافة مقاومًا للتيار العنيف ثم يتجاوز البوابة! لا بد أن يكون صاحب قوة جسدية بالغة ولديه مهارة في الغطس حيث سيدخل متسللًا في ظلمة الليل بحرص شديد ويرتدي ملابس سوداء، وينبغي أن يكون ذكيًا بارعًا لأنه سيدخل ويبحث عن سر هذه الطواحين ويعرف طريقة إيقافها وهو شيء سري، حتى إن الجنود الذين أسرهم لا يعلمون شيئًا عنها ويؤمنون كما يؤمن العامة أن هذا من صنيع السحرة.

ولا ينفع أن يكون متسللًا واحدًا بل عدة متسللين كلهم لديهم الأوصاف نفسها، يدخلون في الخفاء ويبحثون عن أي وسيلة توقف هذا التيار حتى يمكن للسفن أن تقترب فقط من هذه الأسوار.

نظر سايروس إلى آرتي مليًا ثم قال له:

- أحتاج إلى رجل قوي البنية شديد البراعة غواص، ينزل إلى هذا النهر ويسبح مقاومًا التيار حتى يصل إلى البوابة ويتأكد أنها مفتوحة من أسفلها.

قال آرتي دون أن ينظر إليه:

- لا تنظر إليَّ هكذا، فأنا والماء لسنا على وفاق.

نظر إليه سايروس بتعجب، لقد تخيل لبرهة أن آرتي هذا لا يعجزه شيء، لكن تبين أن نقطة ضعفه هي الماء، فقال له:

- لا بأس، ائتني بغواص قوي، ربما من صائدي اللؤلؤ.

ولم تغرب الشمس إلا وجاء آرتي برجل ضخم الجثة غواص قديم لا يُشَق له غبار، كانت مهمته فقط أن يصل إلى البوابة ويكتشف أسفلها ثم يعود، وقد نزل الرجل بلا تردد وسبح بقوة تحت الماء رغم التيار، وبقي سايروس وآرتي والرجال ينظرون إلى سطح الماء بانتظار خروجه، مر وقت لا بأس به ثم خرج لهم الغواص من عند البوابة وهو يرفع يده مشيرًا أن أسفلها مفتوح تمامًا.

وفجأة صرخ هذا الغواص نصف صرخة لم تكتمل، إذ انسحب فجأة إلى داخل النهر بقوة رهيبة وأصبح الماء يدور بعنف حتى ظهر لون أحمر رآه الجميع رغم ضعف النور في وقت الغروب، ووقعت قلوب الناظرين وهم يلمحون زعنفة مثلثة تبرز من الماء وتسبح في سرعة، ولم تمض لحظات حتى أتت زعانف أخرى كلها مثلثة تجمعت على رائحة الدماء.

وفتح الجميع عيونهم في ذهول، لقد لعبتها إيما بمهارة وحصنت مدينتها تحصينًا علويًّا وسفليًّا لم يخطر على بال إنسان، فقد ملأت النهر بقروش الكوسج المفترسة التي لا ترحم، التي تعيش حصرًا في المياه العذبة.

***

لم ير أحد سايروس غاضبًا كمثل غضبه في ذلك اليوم، ففي العادة يكون هادئًا باسمًا واثقًا، لكنها نيران الانتقام التي أوغرت في صدره مما فعله البابليون بأمه ليزا، وهذه التدابير الأمنية التي عملتها إيما حول بابل ستؤخره كثيرًا عن الانتقام، فتلك اللعينة احتاطت لكل شيء، المشكلة أن الجنود البابليين الذين أسرهم أخبروه أنها خزنت أكوامًا من المؤن تكفي بابل هذه عشرين سنة حتى إن أراد أحد أن يحاصرها يموت هو قبل أن تموت بابل.

وتحولت نيران الغضب في نفس ذي القرنين إلى طاقة دافعة زادت من بصيرته أضعافًا، وكما عملت إيما تدابير، عمل ذو القرنين تدابير لفك تلك التدابير، فلم ينته ذلك اليوم إلا وقد قسم جيشه إلى فرق صغيرة كل فرقة فيها ألف رجل، مئة يحرسون وتسعمئة يشتغلون، وأطلقهم لتنفيذ آخر شيء يمكن أن يتوقعه أحد.

ففي جنوب بابل، عند الجهة التي يخرج منها النهر، أمر رجاله أن يحفروا على كل جانب من جانبي النهر قنوات كثيرة كأنها فروع للنهر، كل قناة تخرج من النهر وتسير قليلًا ثم ترجع إلى النهر مرة أخرى، ولم يحفروا مدة شهر أو شهرين بل ظلوا يحفرون سبعة أشهر كاملة حتى صنعوا ثلاثمئة وستين قناة متفرعة من مسار النهر.

ولقد عملت هذه القنوات مفعول السحر حيث خففت من سرعة التيار يومًا بعد يوم حتى أوقفته تمامًا ولم يعد النهر يجري، وعلى الفور صعد جيش ذي القرنين على السفن الحربية وانطلقوا هاجمين على أسوار بابل كالكارثة، ووصلت أول سفينة إلى بوابة المدينة الحديدية والتصقت بها وبرز من السفينة أكثر من مئة حداد بعضهم يسلط النار الحارقة على البوابة وبعضهم يضربها بقوة، واستبسل البابليون فوق الأسوار في إطلاق السهام ليمنعوا السفن من الاقتراب لكنهم وجدوا وابلًا مضاعفًا من السهام ينطلق في وجوههم من جميع السفن، وكانت معركة ملحمية انهارت بعدها بوابة بابل الحديدية التي لا تُقهر ودخلت سفن ذي القرنين متتابعة لتدك المدينة دكًا.

دخلت السفن متتابعة وتجاوزت السور الأول فوجدوا السور الثاني بعده مباشرة لكن بوابته كانت مفتوحة مما أثار ريبة سايروس، لكنه تجاهل هذا ودخلت السفن إلى بابل مدينة الأساطير، ولم يكن مدخلها ممتعًا للنظر كما هو متوقع، بل إن إيما جعلت الداخل إليها يشعر

بالانقباض والرغبة في الرحيل، ففور أن تمر من السور الثاني لن تجد أي رصيف على أي ضفة من جانبي النهر، بل ستجد سورًا عاليًا يبرز من كل ضفة من الضفتين حولك حتى ستظن أنك تمشي في النهر وسط بناءين عاليين.

المشكلة أن الجنود البابليين الذين أسرهم لم يخبروه شيئًا عن هذا بل أخفوه عمدًا، اكتفوا فقط بإخباره بكل التجهيزات الأمنية الخارجية، وكان هذا خطرًا جدًّا ونذير شؤم بالغ، وقد عرف سايروس خطورته عندما وجدت السفن أمامها سورًا ثالثًا لا يعرفون عنه شيئًا، له بوابة حديدية مغلقة تماثل البوابة التي في السور الأول.

وقبل أن يفكر سايروس في معنى هذا أغلقت بوابة السور الثاني من ورائهم بعد أن دخلت آخر سفينة، فأصبحت سفن ذي القرنين محبوسة بين بوابتين مغلقتين وعن يمينهم وشمالهم سور عالٍ، وللمرة الأولى سقط قلب سايروس أسفل قدميه، فهذا كله يعني أن هناك فخًّا محكمًا ستظهر معالمه في الحال، وقد كان على حق.

ففي اللحظة التالية تبين له أن هذا السور الذي يحيط بهم عن اليمين والشمال فيه فتحات دقيقة لا تبشر بخير أبدًا، وفي حركة واحدة لم يتوقعها أحد خرجت من كل هذه الفتحات سهام نارية متتابعة في الهواء كأنها أمطار الجحيم، سهام هبطت على السفن المحبوسة كلها لتحرقها بلا رحمة، لم يكن هذا مجرد فخ، بل كان هو الهلاك ذاته، فالجنود لو تركوا سفنهم التي تحترق وقفزوا في النهر ستتلقفهم قروش الكوسج وتمزقهم إربًا، ولا شيء يهيج القروش أكثر من الدماء.

5
نهر الدم

خرجت إيما من حدائق بابل المعلقة بسرعة كأنما تلحق القدر، كانت تبدو شديدة القوة في حلة الحرب التي تلبسها وقد تركت رأسها مكشوفًا بذلك الشعر البني الأجعد الذي يميزها وتعقصه دومًا خلف رقبتها وملامحها تحمل غضبًا شديدًا، فرغم أنها نجحت في حبس سايروس وجنوده وأوقعتهم في فخ مميت يحترقون داخله في هذه اللحظة، فإن زوجها ملك بابل استدعاها على وجه السرعة لأجل شيء لا يحتمل الانتظار يتعلق بأمن المملكة، فتركت أرض المعركة وأمرت قادة الجيش أن يتابعوا تنفيذ الخطة التي وضعتها بحذافيرها وألا يحيدوا عنها قيد أنملة حتى تعود إليهم.

لكنها كانت قلقة وقلبها يرتجف، تخاف أن يكون سايروس قد فعل شيئًا كارثيًا كعادته جعل الملك يستدعيها بهذه الطريقة في هذا الوقت الحرج.

دخلت القصر الملكي وهي تدفع الباب بقدمها بقوة لتجد الكل في غرفة المائدة مجتمعين، زوجها الملك وجميع أقاربه وحكماء بابل

وسحرتها، لا يوجد وجه مهم تقريبًا إلا وهو واقف في تلك الغرفة، ولم يكن زوجها الملك بخير قط، بل رأته جالسًا على الأرض مرتعبًا ويتراجع على ركبتيه كأنما أحاطت به الشياطين.

ولم يكن حال الباقين بأفضل منه كثيرًا، بل إن النساء أخفين وجوههن في صدور أزواجهن من الخوف الذي يكاد ينطق من ملامح الجميع، فصاحت إيما بغضب:

- أي شيء لعين جعلكم تأتون بي إلى حفلكم السفيه، ألا يكفي أنكم تأكلون وتشربون وهناك جيش جرار يضرب حدود المدينة؟

أشار لها زوجها في رعب إلى حائط من الحوائط فنظرت في غضب لتجد بضع كلمات مكتوبة بالدم على الجدار بحروف كبيرة غير مفهومة.

«منًا منًا تقيل أوفارسين».

صرخت إيما بغضب:

- اللعنة عليكم! ألا يشغل عقولكم شيء إلا هذه التفاهات؟

قال زوجها الملك بصوت مرتعد:

- هذه الكلمات، لقـ... لقد شاهدت يدًا بشرية تخرج من اللامكان وتكتبها هكذا أمام عيني.

نظرت إليه في ازدراء، كانت تكرهه وتكره ضعفه وخنوعه ولولا أن القانون والأعراف لا يسمحان لامرأة أن تملك في بابل لقطعت رأسه السخيف منذ زمن طويل وأصبحت هي الملكة، كادت أن ترد عليه بصوت عال لكن أكبر حكماء بابل قال لها:

- ليس هو وحده الذي شاهد هذا، بل شاهدناه كلنا، كبيرنا وصغيرنا، كانت اليد تتحرك بلا جسد وتكتب هذه الكلمات بطريقة عنيفة مليئة بالغضب.

اتسعت عينها في شيء من الدهشة لم تنسِها ما بها من غضب وهي تنظر إلى وجوه القوم وترى فيهم صدق كلام الحكيم، فقالت له بغضب:

- فليكن هذا سحرًا، أو شيطانًا، لماذا أتيتم بي إلى هنا؟

نطق كبير سحرة بابل:

- يا سيدتي هذا ليس سحرًا ولا هو حتى قريب من السحر، فلو كان سحرًا لأبطلناه، لكن كلما ذهبنا لنمد أيدينا ونمحو الكلمة وجدناها كُتبت في مكان آخر قبل أن نمحو أي شيء.

وأشار لها فالتفتت لترى الكلمة مكتوبة أيضًا في عدة مواضع وحتى في السقف.

قال لها الساحر:

- إن هذه رسالة من الآلهة، وقد استدعيناك لأن هذه الكلمات تتعلق بالفرس الذين يهاجمون المدينة، فرغم أنه لا أحد منا فهم المكتوب فإن الكلمة الأخيرة منها تعني (فارس) حتمًا.

سكتت إيما وهي تنظر إلى الكلمات مجددًا وإلى الكلمة الأخيرة تحديدًا وقد شعرت بشيء غريب يتملكها، ذلك الشعور الذي يشعر به المحارب عندما يقترب منه خطر لا يراه، زفرت في قوة وهي تخرج كل مشاعرها وتطمئن نفسها أن هذا الشيء لا يتعلق بسايروس، فقد حصرته بطريقة يستحيل أن يهرب منها شيطان، ثم تمالكت نفسها وقالت في قوة:

- عن أي آلهة تتحدث يا سفيه؟ أهذه الأحجار التي تصنعونها بأيديكم؟ التي لو بصقت عليها لن تقدر أن تمسح عن وجهها البصقة.

كانت إيما كافرة بآلهة بابل كلها، وليس فقط آلهة بابل بل جميع الآلهة التي يُصنع لها تماثيل في الأرض، وكافرة بالسحر والسحرة فهي أكثر من يعرف أن سحرة بابل الذين تخاف منهم الأرض ليس لديهم في الحقيقة أي قوة، ولقد اختبرت هذا مرارًا ولو كان لديهم قوة لاستعانت بها في الحروب.

ثم تذكرت إيما شيئًا قفز إلى ذهنها فجأة، تذكرت رجلًا من أنبياء اليهود خرج في زمن أبيها نبوخذ نصر ولم تر في حياتها شخصًا مثله، الوحيد الذي بهرها وشعرت أن لديه قوة إعجازية غير مفهومة، فلو كان هناك إنسان يقدر أن يفسر هذه الكلمات فهو ذلك النبي لا غيره، إنها تذكر كيف أن أباها رأى ذات ليلة رؤيا أفزعته لكنه نسيها، ثم رآها مجددًا ثم نسيها، مرات ومرات حتى جمع الحكماء ليخبره أحدهم ما رأى ففشلوا كلهم إلا هذا النبي الذي دخل على نبوخذ نصر وحكى له الرؤيا التي نسيها وفسرها، كان أمرًا مستحيلًا لا يُصدق.

أرسلت إيما رسولًا يستأذن ذلك النبي ليأتي من حي اليهود ويرى هذه الكلمات بعينه، وليس على الأرض يومها شعب أذل من اليهود الذين أشركوا بالله ونجسوا المسجد الأقصى ووضعوا فيه الأصنام وذبحوا لها أطفالهم، فسلط عليهم ربهم جنود نبوخذ نصر فطردوهم من فلسطين وأخذوهم أسرى إلى بابل مربوطين بالسلاسل في ذل وهوان.

عندها خرج في أرضهم نبي اسمه دانيال.

وهو الذي جاء ليرى الكلمات..

وكان يلقبه أهل ذلك الزمان بالخضر.

***

لم يشهد الزمان أعجب من نبي الله الخضر، فلقد رصده المؤرخون في عدة أزمنة متباعدة كأنما أوتي علم الزمن، وفي تلك الليلة في قصر بابل وقف الملك ووزراؤه وحكماؤه وجميع السحرة والحكماء ينتظرون قدوم الخضر من ذلك الباب، وإن الله إذا اجتبى نبيًا ألقى عليه المهابة والجلال وكان هذا واضحًا في عيون القوم وهم يشهدون دخول الخضر إلى قصرهم في جبة خضراء تعلوها عباءة سوداء وعلى رأسه قلنسوة بلون الذهب، كان يملك عينين ثاقبتين لا تقدر أن تنظر إليهما مطولًا ولحية طويلة تقطر حكمة.

قالت له إيما وتأثير مهابته على وجهها ظاهر:

- أيها الصالح الجليل، أفتنا فيما ترى، فقد وعد ملك بابل من يقدر أن يفسر هذه الكلمات أن يجعله كبير الحكماء والرجل الثالث في المملكة.

نظر الخضر إلى الملك مباشرة وقال:

- فلتكن عطاياك لنفسك يا صاحب بابل وهب هباتك لغيري، ولتعلم أن الله أعطى عمك نبوخذ نصر ملكوتًا وعظمة وجلالًا فكانت ترتعد أمامه جميع الشعوب، فأيًا شاء قتل وأيًا شاء استحيا وأيًا شاء رفع وأيًا شاء وضع، فلما قسا قلبه وتكبر نزع الله ملكه وطرده من بين الناس وتساوى قلبه بالحيوان وكانت سكناه مع الحمير الوحشية فكانوا يطعمونه العشب كالثيران، وأنت عرفت هذا ولم تتعظ بل تعظمت على رب السماء وعبدت هذه الآلهة التي لا تبصر ولا تسمع، أما الله الذي بيده روحك فلم تعبده، حينئذ أرسل الله ملاكًا كتب هذه الكلمات على جدارك في وسط قصرك وفوق مائدتك.

كنت ترى في عيون الحكماء غيرة واضحة وهم ينظرون إلى مهابة الخضر، فأي حكيم يطمع أن تكون له مهابة حقيقية مثل هذه، كانوا جميعًا صموتًا كأن على رؤوسهم الطير لكن إيما هي التي تحدثت وقالت بلهجة متعجلة:

- أيها الجليل أخبرنا ماذا كتب ذلك الملاك؟

قال لهم الخضر:

- أربع كلمات ليس لها خامسة..

منًا منًا، أحصى الله ملكك وأنهاه.

وتكرار «منًا» يعني أن ملكك سينتهي عاجلًا في هذه الليلة.

تقيل، وُزنت أعمالك بالقسط فأخسرت الميزان، فرسين، قسم الله مملكتك وأعطاها إلى ميديا وفارس.

أصابت إيما نوبة من غضب شديد وهي تصرخ فجأة:

- محال، لقد حبسناهم كالجرذان، لا مفر لهم، لا مفر.

استدار الخضر مغادرًا المكان ببطء تاركًا إياها في صراخها وعلى وجهه أمارات الخشوع وهو يتمتم:

- اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء.

انطلقت إيما بسرعة خارجة من المكان متوجهة إلى أرض المعركة وهي تخشى كل ما تخشاه أن يكون سايروس قد عمل حركة تفاجئ قادة جيشها ولا يحسنون التصرف، فهي تعلم أنه لا يكافئ سايروس هذا أحد منهم، وأخذت تلعن نفسها أن غادرت أرض القتال لأجل هذا الملك السخيف، لكن كلمات الخضر ما زالت ترن داخل عقلها، منًا منًا، تقيل، فرسين.

وصلت إيما إلى أرض القتال واطمأنت قليلًا بسماعها صراخ جنود سايروس، فنظرت من موضع معين في السور ورأت الأسهم النارية تنطلق باستمرار من بين فتحات السور في تتابع حارق جعل جيش سايروس في مهلكة لا مهرب منها، بينما كانوا يرفعون الدروع ليصدوا السهام النازلة انحنى فريق منهم يملؤون دروعهم بماء النهر ويلقونها في وجه النيران حتى لا تشتعل في السفن، ولكن كثيرًا منهم كان يموت بالسهام وآخرين يقفزون في الماء فتلتقطهم أسنان القروش وتمزقهم بعنف، وهناك بعض السفن اشتعلت عن آخرها بالفعل.

لم تكن هناك أي إشارة أن هذا الوضع سينتهي أي نهاية أخرى غير التي تريدها، الأمر فقط مسألة وقت، فلا هم يقدرون أن يصوبوا سهامًا بدقة لتصيب الفتحات التي يطلق منها جنودها سهامهم، ولا هم قادرون على الهرب إلى الماء، ولا حتى على الخروج من الأبواب الحديدية قبل أن تقضي عليهم.

ظلت إيما تدور وتنظر إلى المعركة من هنا ومن هناك لساعة أو أكثر، حتى جاءها أحد رجالها وصاح:

- سيدتي، لا بد أن تري هذا بنفسك.

نظرت إيما من بين شقوق السور وفتحت عينها في ذهول ثم أخذت تصرخ بكلمة واحدة في غضب شديد:

- اللعنة، اللعنة، اللعنة.

***

قبل بضعة أشهر..

هذه بابل والماء من حولها.

وهذا نهر بابل يخرج من جنوبها.

وهذا جيش سايروس في الجنوب يحفرون القنوات ليبطئوا تيار النهر ليقدروا على الدخول.

إن خطة حفر القنوات بهذه الطريقة كانت شديدة البراعة ولقد نجحوا بها في دخول المدينة بالفعل، ورغم أن تنفيذها استغرق سبعة أشهر كاملة فإنها في الحقيقة كانت مجرد ملهاة أو مسرحية لجذب عيون العدو إلى هذه الناحية بينما الخدعة الحقيقية تجري هناك، في الشمال.

والآن انظر إلى شمال المدينة.

من هنا يدخل نهر بابل الذي يأتي للمدينة من منبع بعيد هو نهر الفرات الكبير الذي يغذي هذا النهر بالماء منذ آلاف السنين.

الخدعة كانت تجري هناك على بعد عشرات الأميال من بابل شمالًا حيث جمع سايروس أكثر من نصف مليون عامل من بلاد فارس وميديا وليديا ووضع عليهم آرتي قائدًا ومعه نصف جيش سايروس، وأمرهم أن يبنوا ثلاثة سدود متعاقبة على نهر بابل الذي يدخل للمدينة، مهمتها أن توقف المد الكبير الذي يغذي هذا النهر بالماء من الفرات، وأشار عليهم أن يتركوا هذه السدود الثلاثة مفتوحة حتى يأتي يوم معين وساعة معينة يغلقون فيها كل السدود.

ولم يستغرق بناء السدود أكثر من ثلاثة أشهر، بعدها أمرهم بحفر فرع للنهر يكون عميقًا جدًّا مهمته أن يسحب المياه من المجرى الرئيسي للنهر ويوصلها إلى وادٍ سحيق، وأمرهم أن يضعوا على هذا الفرع سدًّا رابعًا يجعلونه مغلقًا طيلة الوقت حتى لا يسحب المياه من النهر إلا عندما يأتي يوم معين وساعة معينة.

ولقد استغرق حفر هذا الفرع من النهر أربعة أشهر، انتهوا منه بالضبط في الوقت نفسه الذي انتهى فيه الجيش الآخر في الجنوب من حفر القنوات.

وقبل يوم واحد من اقتحام سايروس للمدينة أمرهم أن يغلقوا السدود الثلاثة فبدأ الماء في النهر يتناقص بشكل سريع لأن إمداد نهر الفرات قد انقطع تمامًا، لكن هذا التناقص كان غير ملحوظ للعين، ولم يأمرهم بفتح السد الرابع إلا بعد أن يدخل جيشه من الجنوب حتى لا تلاحظ إيما الخدعة.

ودخل ذو القرنين وجنوده بالسفن إلى بابل من جنوبها وأوقعتهم إيما في فخها المحكم، والحق يقال إن ذا القرنين لم يتوقع هذا على الإطلاق، وفي ساعة واحدة فقط وجد سفنه كلها تحترق وجنوده يموتون بألسنة الحريق وأسنان القروش، ولم يصمد معه إلا ربع الذين دخلوا معه في السفن، حتى وزيره هارباك رآه يحترق في إحدى السفن تاركًا وراءه حياته التي امتلأت بالحروب والدم.

لكن عين سايروس كانت على الماء الذي بدأ في لحظة معينة ينسحب بقوة بالغة ناحية الشمال كأن هناك شيئًا عظيمًا يسحبه، كان العمال على السدود لحظتها قد فتحوا السد الرابع فانطلق الماء من النهر في فيضان عظيم ليدخل في المجرى الفرعي الذي حفره العمال ويسقط في الوادي السحيق في شلال ضخم وبدأ نهر بابل يفرغ من الماء تمامًا.

وكان على ذي القرنين أن يصمد ساعة أخرى فقط، وكانت أشد ساعة على نفسه لأنه خسر فيها أغلب الجيش الذي معه ولم يصمد معه إلا قليل لا يتجاوزون الألف.

ساعة كاملة فرغ فيها نهر بابل تمامًا من الماء وفوجئت إيما بنهرها الذي فعلت فيه الأفاعيل قد جف تمامًا وقروش الكوسج تتلوى في

اختناق على الأرض غير قادرة على التنفس، ونيران السفن تصنع أدخنة سوداء تغطي الرؤية.

وفجأة سمع الأهالي في الشمال صيحات جيش جرار يدخل عليهم من مجرى النهر الجاف، أكثر من مئتي ألف جندي من ليديا وميديا وفارس عليهم قائد مجنون يدعى آرتي، دخلوا من تحت البوابة الشمالية التي كانت مفتوحة من أسفلها لأجل النهر.

وفي جنوب المدينة بعد أن فرغ النهر وجف ماؤه هرب ذو القرنين من الفخ بالألف الذين بقوا معه ودخلوا من أسفل البوابة الثالثة إلى قلب المدينة من جنوبها واشتبكوا في حرب ضروس مع جيش كبير جدًّا وضعته إيما في الجنوب لاستقبالهم.

ولقد غلبت الكثرة الشجاعة وتساقط الرجال الألف الذين كانوا مع ذي القرنين واحدًا تلو الآخر حتى هلك أكثرهم ولم يبق معه إلا مئة صبروا حتى وصل جيش آرتي من الشمال ليضرب جيش العدو من ظهره في مفاجأة قاسية.

وكانت ملحمة كُتبت في صفحات التاريخ بأقلام مذهولة، فهذه المدينة كانت أحصن شيء على الأرض بعد أن تولت إيما قيادتها، ولم تمض ساعة أخرى إلا وقد هُزمت بابل هزيمة نكراء وانطلق جيش ذي القرنين بغضب إلى داخل المدينة يريدون أن يعيثوا الفساد ويقتلوا الرجال العزل والنساء كما اعتادوا طيلة عمرهم في الحروب، لكن ذا القرنين منعهم أن يمسوا شعرة واحدة من أي إنسان لا يحمل السلاح.

ودخل ذو القرنين بجنوده إلى قصر بابل الكبير ووجدوا ملك بابل قد هرب ومعه كل وزرائه وعائلته وسحرته وجنود قصره، وسقطت أسطورة بابل التي لا تُقهَر. ولم يكن هذا غريبًا، فقد كان ملكًا جبانًا على كل حال هو وجميع أهله.

مشى ذو القرنين في القصر الذي كان كل شيء فيه ينطق بالفخامة والعظمة، تماثيل وعواميد وآلهة صنعت أساطير امتدت لمئات السنين كلها سقطت اليوم كأن لم تكن يومًا ذات شأن، نظر ذو القرنين يمينًا وشمالًا باحثًا عن أي أحد يمكن أن يكون قد بقي للقتال لكنه لم يجد أحدًا، حتى وصل إلى غرفة العرش وفتحها على مصراعيها، وهناك وجد شخصًا واحدًا لم يهرب من كل هذا.

إيما..

كانت تقف بكامل زيها الحربي وملامحها الصارمة الجميلة وهي تمسك درعها بيد وسيفها بيدها الأخرى وهي تقول:

- لقد أخبرتك أني سأقوم بك وحدي.

ولم يملك سايروس إلا أن ينظر إليها بشيء من الإعجاب الحقيقي رغم كل شيء، لم يكن حولها أحد من الجنود، لقد اختارت أن تبقى وحدها لتدافع عن أرضها حتى آخر نفس في روحها.

***

كان سايروس وسط جنوده ورجاله بينما هي تقف منفردة رافعة السيف ولا يظهر على ملامحها خوف على الإطلاق، تقدم منها سايروس بخطوات بطيئة وأحس بحركة الجنود خلفه يريدون الهجوم معه فرفع يده لهم محذرًا ومشى إليها بثقة بالغة ولم يهتم حتى أن يخرج سيفه، فقط كان ينظر إلى عينها مباشرة ويقترب.

وعندما لم يكن بينه وبينها سوى مقدار خطوة واحدة رفعت إيما سيفها بأقصى سرعة وهوت به على رأس سايروس الذي كان ثابتًا لا يتحرك، ثم في لحظة مال إلى الخلف قليلًا بسرعة لا يقدر عليها

سواه وامتدت يده بمهارة إلى جنبه ليسحب خنجرًا ويخدش به يد إيما الممسكة بالسيف فصرخت بألم وسقط منها سيفها.

وفي لحظة ألمها كان سايروس قد سحب سيفه من غمده وهوى بالسيف على عنقها في قوة بالغة ولم تقدر أن تتفاداه بأي طريقة، فأغمضت عينيها في رعب ثم فتحتهما بدهشة لتلحظ السيف يكاد يمس عنقها وسايروس ينظر إليها نظرة تجمع بين الثقة والحزم، ورغم ذلك لم يظهر عليها شيء من الخوف.

قال لها سايروس:

- هل لديك كلمات أخيرة قبل أن أقص عنقك؟

كانت إيما تعلم أنها النهاية فنظرت إلى عين سايروس وقالت له أكثر شيء عجيب يمكن أن يقال ككلمات أخيرة، قالت:

- هل كنت تعني حقًّا ما قلته في تلك الشرفة؟

نظر إليها سايروس بتساؤل حقيقي يختلط بالحيرة فقالت له:

- إنك تكرهنا.

تأملها سايروس بشيء من التمعن وعينه لا يظهر فيها سوى الاستغراب من طريقتها وشخصيتها لكنه قال لها:

- ما الذي يمكن أن يحبه العاقل فيكم؟ كل شعبكم يكرهكم ولا تشعرون؟

سكتت قليلًا فاستدار سايروس وتشاغل بالحديث مع الجنود معطيًا لها ظهره ومانحًا لها فرصة ذهبية لا تحصل مرتين، فهو يمسك بسيفه في تراخٍ ويمكنها في حركة واحدة أن تلتقط خنجرًا من جرابها وتغرزه في ظهره في ضربة قاتلة، حتى إن آرتي تحرك بطريقة غريزية ليمنع هذا لكن إيما فقط كانت متجمدة تنظر إلى رأس سايروس من الخلف

وعينها تائهة شاردة، وظهرت ارتجافة على شفتيها وفي ذهنها خواطر متصارعة، لماذا لم تقتله بالخنجر، لقد هزمها ليس مرة واحدة بل ثلاث مرات، لماذا لم تقضِ عليه؟

استدار لها سايروس مجددًا وقد انتبه من حركة آرتي أنه قد فعل شيئًا خاطئًا جدًا، ونظر إلى إيما وقال لها مباشرة:

- لماذا لم تفعليها؟ ألم أخبرك منذ قليل أنني أكرهكم؟

نظرت إليه بدهشة للحظة ثم ردت عليه وهي تستجمع نفسها:

- لست أقتل الناس من ظهورهم.

ظهر على عين سايروس شيء من الغضب وقال:

- ألهذا قتلتم أمي غدرًا؟

قالت له بسرعة:

- لم نقتلها وهي عزلاء، بل كانت تحمل السلاح تحارب به فماتت وهي محاربة، وكل من قتلناهم هناك حملوا علينا السلاح وتركنا البقية بسلام، كانت ضربة سريعة انسحبنا بعدها، الغرض منها استدراجكم.

مد سايروس يده بقوة وأمسك بتلابيبها بيد واحدة ولم تبدِ مقاومة وهو يقول لها:

- أي سلاح هذا الذي رفعوه عليكم، العصي والخناجر؟ أي كرامة هذه التي لديكم أن تضربوا شعبًا فقيرًا في بيوتهم وتروعوا أمنهم؟

قالت له إيما بعصبية:

- هكذا هي الحرب خدعة منذ آلاف السنين، لا تحاكم الناس على شيء معتاد ومتوارث لأجل شيء تؤمن به أنت وحدك.

قال سايروس وقد دفعها بقوة حتى كادت تسقط:

- بئست الخدعة وبئس الحرب، أما نحن فلا نقتل النساء، ولا نسفك دمًا إلا في حرب، فاذهبي من هنا حرة طليقة آمنة لا يتعرض لك أحد، وسيبقى قصرك في حدائق بابل المعلقة ملكك كما هو لن يقربه أحد.

نظرت إليه في دهشة حقيقية، لم تكن قد رأت من قبل رجلًا مثل سايروس ولا شهد العالم ملكًا مثله، كانت قد هيأت نفسها للموت كالمحاربين، لكنه تركها هكذا ببساطة، لقد سمعت أنه عفا عن كروسوس لكن لم يأت على خاطرها أن يعفو عنها هي بالذات بعد أن أهلكت نصف جيشه وكادت له ثلاث كيدات.

كانت تشعر بمشاعر لا يمكن وصفها، هي تفضل الموت، إن عفوه هذا يشعرها أنه لا يعتبرها خطرًا، لكنها غادرت المكان وهي تنظر إلى وجوه الجنود الذين لم يكونوا راضين بأي حال عن هذا العفو.

وبعد أن انصرفت إيما وانصرف الجنود، لم يبق مع ذي القرنين غير آرتي الذي وقف معه في إيوان كبير كالشرفة العملاقة وحولهما كل ما يمكنك تخيله من زخارف وعواميد بابلية وتماثيل، وضوء القمر يلقي بنفسه على صفحة السماء وسط النجوم.

تنهد ذو القرنين بعمق وهو ينظر من الإيوان إلى القمر، لقد أصبح في هذا اليوم ملك فارس وميديا وليديا وبابل، أكثر من نصف الأرض التي يعرفها الناس. قال له آرتي:

- لم أشهدك غبيًّا، أي مقاتل هذا الذي يستدير لخصمه بهذه الطريقة الساذجة؟ لو أني في موضع هذه الفتاة لكنت غرزت الخنجر في مؤخرة عنقك، ثم كيف تعفو عن شيطانة مثل هذه؟ أتظنها لن تقلب المملكة كلها فوق رأسك؟

قال له سايروس دون أن ينظر إليه:

- هكذا هي المرأة يا آرتي، إذا هزمها رجل في نزال عادل بلا ظلم أو خيانة فهي تنهزم بنفس راضية، أما الرجل فلو هزمه رجل مثله في نزال عادل أو غير عادل فهو لا ينهزم بنفس راضية أبدًا، ولا يهدأ حتى يرد الكيل.

قال الجملة الأخيرة وهو ينظر إلى آرتي الذي فهم أن سايروس يرمي عليه الكلام فقال بحدة:

- أي حديث هذا يا ملك الأرض؟ هل تعني أني لن أهدأ حتى أزيلك من فوق العرش وأجلس مكانك؟

نظر إليه سايروس مستغربًا من صراحته لكنه قال:

- إن مثلك يا آرتي لا يشعر باللذة وهو يهزم خصمه بالخيانة، بل أنت لن تهدأ نفسك حتى تهزمني فيما هزمتك فيه يومًا في الشوجان، فكلانا يعلم أن النزال الذي هزمتك فيه لم يكن عادلًا، لأنك لم تعرف من أنا يومها، بينما كنت أنا أعرفك جيدًا، وقاعدة القتال الأولى أن تعرف خصمك حتى تقدر أن تهزمه.

سكت آرتي وهو ينظر إلى سايروس قليلًا ولمعة الجذل تظهر في عينيه ثم قال:

- سأنتظرك يا سايروس كما ينتظر القدر ضحاياه، وأعدك أن أشج رأسك كما شججت رأسي يومها.

قال له سايروس:

- عزائي لك في موت أبيك يا آرتي.

قال آرتي بملامح جامدة:

- لقد مات محاربًا كما كان يبغي طيلة حياته.

استدار آرتي لينصرف من المكان فسمع سايروس يقول له:

- كيف فعلتها يا آرتي؟

نظر إليه آرتي وقال:

- كيف فعلت ماذا؟

قال سايروس:

- كيف اختطفت شـتاجـا من وسط قصره بين كل هؤلاء الجنود؟

ضحك آرتي ضحكة حقيقية وقال:

- أتريد ألا تجعل لي شيئًا واحدًا أكون أفضل منك فيه يا سايروس؟

واستدار آرتي منصرفًا، وسايروس ينظر إليه مبتسمًا، لقد كانت هذه المرة الوحيدة التي رأى فيها آرتي يضحك منذ أن ماتت أخته إينارا.

***

أضواء، وزهور منثورة على الأرض، وضجيج، الكثير من الضجيج.

كانت بابل اليوم في زينة، وأهلها في عرس.

وليست كلمة عرس هنا نوعًا من المبالغة الأدبية، بل هو عرس حقيقي يحدث فقط مرة واحدة في السنة، فكل امرأة عزباء في بابل هي عروس في هذا اليوم، وكل شاب أعزب هو عريس.

آلاف من البشر يرتدون أحسن ما لديهم من أزياء ويتوجهون إلى مكان واحد هو أجمل بقعة في بابل كلها، حدائق بابل المعلقة التي تصبح يومها عروسًا للأرض بكل ما يضاء فيها من أنوار، حتى يقال إن الطير فوق السحاب تزيغ عيناه من نورها.

شموع كثيرة ومشاعل ومصابيح، زهور من أنواع لا يراها الشخص العادي في يومه العادي، أفواج من النساء يبدين زينتهن وعطرهن الذي يمكن أن تتنسمه قبل أن تدخل من باب الحدائق.

كانت إيما تمشي وحيدة بين الأشجار والأنوار والزهور وصوت الشلالات التي تحبها يكاد لا يصل إلى أذنها من الضجيج، وعلى الرغم من أنها كانت يومًا قائدة جيش بابل فإنها لم تكن تؤمن بمعتقدات قومها ولا تحب عاداتهم بل تجدها سخيفة ومهينة في بعض الأحيان.

مثل هذا العرس الكبير الذي يطلقون عليه عرسًا وهو سوق للزواج، تُنصب فيها المنصات وتصعد عليها النساء ويزدحم الشباب عليهن كل واحد يصيح بالثمن الذي يريد أن يدفعه، ثم تعطى الفتاة لصاحب أعلى سعر ليتزوجها، فهو مزاد كبير للنساء.

ولا بد أن يأتي الشباب في أول اليوم لأن الجميلات يعرَضن أولًا، والذين لا يملكون مالًا كثيرًا ينتظرون حتى يبدأ عرض متوسطات الجمال ويختارون لأنفسهم واحدة، أما القبيحات فلو كنت فقيرًا ستأخذ واحدة منهن في آخر اليوم ويعطيك أهلها فوقها مالًا ليتخلصوا منها، فتنصرف من السوق ومعك امرأة قبيحة وأموال.

كانت إيما تضع على وجهها قناع سحرة الماجي النصفي حتى تخفي هويتها، لأنها صاحبة هذه الحدائق وأميرة قصرها المنيف، لم تعد تتحمل نظرات البشر، وليس أشد على الإنسان من أن يكون عزيز قوم ذل، فرغم أنها ما زالت سيدة القصر فإن السلطة ذهبت منها.

لطالما أرادت أن تمنع هذه السوق أن تقام في قصرها لكنها لم تقدر، فهي الطريقة الوحيدة لزواج الشعب هنا.

تذكرت زوجها السابق الجبان الذي ترك البلاد وهرب عبر الممرات السرية للملوك، ورغم هذا بلغها أنه أُمسِك به وقُتِل على حدود المدينة. الذي أمسك به هو آرتي مع فرقته العسكرية، ولم يكن آرتي يجنح للعفو مثل سايروس.

توقفت أفكارها قليلًا عندما أتت على ذكر سايروس، لم تكن تدري لماذا لم تقتله في ذلك اليوم، لقد جيشت الجيوش لحربه ثلاث مرات خسرت فيهم خسارة فادحة كلفتها عرشها في النهاية، في كل مرة كانت تفعل ما بوسعها لتتخلص منه وتمسحه وجنوده عن وجه الأرض، ورغم ذلك يهزمها ويكسر شوكتها، ثم لما واتتها الفرصة وأعطاها ظهره مفتوحًا للقتل لم تقدر أن تفعلها، لم تكن صادقة معه حين قالت إنها لا تقتل الناس من ظهورهم، فهي لا تعتني بهذا المبدأ كثيرًا بل تقتل أعداءها بكل طريقة ممكنة.

كانت تنظر إلى ضحكات الشباب والنساء حولها وهي شاردة حتى أتاها صوت من ورائها يقول:

- ما الذي أخرجك من قصرك؟ هل سمعت أخيرًا ضجيجًا أعلى من الضجيج الذي تصنعينه دومًا يا إيما؟

التفتت بحدة إلى مصدر الصوت فإذا هو سايروس، كان يضع قلنسوة كبيرة على رأسه ليخفي نفسه، فلو عرف الناس في هذه السوق أن ملك الأرض هنا سينقلب المكان رأسًا على عقب.

نظرت إليه بدهشة وهو يحدق إلى عينها الظاهرة من القناع وقد عرفها، ورغم أن سايروس كان متخفيًا فإنه كان يملك ملامح مميزة جدًّا جعلت واحدًا من المارة يتوقف قليلًا لينظر إليه بتمعن لكن سايروس أمسك بإيما من كمها وسحبها وهو يقول بحزم:

- هيا من هنا.

كادت أن ترد عليه بحزم أكبر لكنه كرر عبارته بطريقة آمرة قوية اخترقتها فتركته يقودها من كمها وهي تسير وراءه وتنظر إلى ظهره في دهشة وهو يسير بها وسط الزحام، كانت دهشتها من نفسها، لماذا تسير وراءه هكذا؟ ألأنه هزمها مرة بعد مرة حتى يئست منه إلى الأبد؟

نفسها تحدثها أن هذا ليس هو السبب، ظل سايروس يسحبها حتى ذهب بها إلى موضع من الحدائق ليس فيه زحام ولا منصات ولا أسواق، مكان باهر مليء بالشلالات والورود والعواميد المزينة، عندها ترك كمها والتفت لها وأنزل قلنسوته ونظر إليها مباشرة وقال:

- هل لك في أن أعطيك خيرًا مما أخذته منك الحرب؟

حدقت إليه من وراء قناعها وقالت:

- أي شيء هذا؟

قال لها بجدية:

- حكم بابل.

قالت بدهشة:

- بعد كل ما حدث بيننا؟

قال لها بهدوء:

- ألم تبقي وحدك تدافعين عن هذه الأرض بعد أن فر منها الجميع ولم يبق معك حتى جندي واحد؟

قالت وعقلها مليء بالخواطر:

- بلى.

فقال بلهجة قوية:

- فمن أجدر منك أن أجعله على عرشها؟ ولكن لي شرطًا واحدًا يا أميرة الحرب.

قالت بتساؤل:

- أي شرط؟

قال بسرعة:

- تكونين لي زوجة.

اتسعت عين إيما واختلجت مشاعرها وهي تنظر إليه بلا تصديق، لقد صدمها بطريقته ومباشرته، وصمتت تمامًا وهي تنظر إليه للمرة الأولى ليس كمحاربة تريد أن تفتك به وبجيشه، ولكن كفتاة، كأن هذا الذي يسير في روحها الآن هو شيء تشعر به للمرة الأولى، شيء دفنته وراء دروعها وأسلحتها طويلًا، لقد عرفت لماذا لم تقتله في ذلك اليوم رغم أن ظهره كان مفتوحًا تمامًا ولا يحتاج إلا إلى حركة واحدة وتنتهي أسطورته.

ولم تقدر إيما على الكلام وسايروس ينظر إليها بوجهه القوي ينتظر منها أي كلمة، لكنها لم تنطق.

***

كان زواج سايروس وإيما أسطوريًّا بحق، فكلاهما سليل ملوك من مملكتين عظيمتين، وكلاهما محبوب في أرضه بل معشوق عند شعبه، وقد سبق هذا الزواج ترتيبات كثيرة وتفاصيل لا حاجة لذكرها في شيء، وبسببه فقط توحدت الشعوب والجيوش من الممالك الأربع، ليديا وميديا وبابل وفارس، مما صنع مملكة رهيبة مستعدة لغزو العالم كله، اسمها الإمبراطورية الإخمينية.

ورغم أن هذه الممالك الأربع في الإمبراطورية فيها أديان وثنية مختلفة فإن ذا القرنين لم يتعرض لأهل أي دين ولم يمس معابدهم بسوء رغم أنه لا يؤمن بأي منها على الإطلاق، لكنه نزع أي سلطة سياسية من الكهان والسحرة الذين كانوا في منزلة تعلو أحيانًا عن الحكام، مما جعله مكروهًا في أوساط الكهان جدًّا رغم أنه محبوب بين الشعب.

وحرر ذو القرنين اليهود وأعادهم إلى الأرض المقدسة التي أخرجهم منها نبوخذ نصر، فأعاد لهم شملهم بعد أن كانوا مأسورين مستعبدين لعشرات السنين، لذلك تجدهم يعظمون سايروس ويعتبرونه الإنسان الوحيد غير اليهودي في التاريخ الذي له عندهم شأن كبير.

وفي ليلة من الليالي القمراء، وستارة الليل تعلوها النجوم وتتألق، كان سايروس وإيما يتمشيان ببطء على برج بابل الشاهق والعين تدور حولهما تتابعهما في اهتمام.

وإن الماشي على قدميه صعودًا على برج بابل يحتاج إلى أكثر من ساعة من السير الحثيث دائرًا في الطريق الصاعد حول البرج ليصل إلى القمة، فلم يشيد الإنسان في تاريخ الأرض بناء أطول من برج بابل ولا بلغ ثلث طوله حتى في العصر الحديث، فهو يتجاوز بالمقاييس الأخيرة كيلومترين ونصف، حتى إنه اخترق السحب العالية في السماء وعلا عليها بكثير.

كان سايروس وإيما يمشيان بتؤدة صعودًا على البرج تلفح وجهيهما النسمات وهما ينظران إلى المملكة الواسعة على ضوء النجوم، حتى قالت إيما:

- أتدري لماذا بنى الأقدمون هذا البرج يا سايروس؟

نظر إليها سايروس متسائلًا فقالت وهي تنظر إلى الأعلى:

- كانوا يريدون رؤية الآلهة التي تحكم العالم من فوق السحاب.

قال لها سايروس:

- وهل رأوا واحدًا يركض هنا أو هناك؟

ابتسمت إيما وهي تقول:

- لم يروا شيئًا، فقط رأوا مدينة بابل من الجو وحجمها أصغر من كف اليد.

سكت سايروس ولم يعلق بشيء حتى قالت له إيما:

- سايروس، بماذا تؤمن أنت؟ بآلهة فارس؟

قال لها بنبرة جادة:

- لقد كبرت يا إيما وأنا أرى قومي المجوس يشعلون النار في الصحاري والجبال ويعبدون إلهين، يقولون إن أحدهما إله الخير الكبير المتعال والآخر إله الشر القوي الخبيث، والاثنان يتصارعان في كل يوم من أيام الدنيا حتى يأتي يوم ينتصر إله الخير في النهاية ويعم السلام الأرض، لطالما حدثتني نفسي بأن هذا هراء، فلو كان إله الخير هذا ربًّا بحق، لما كان هناك إله آخر معه يقترب من قوته لدرجة أن يعتبر خصمًا له يصارعه ويقاتله.

نظرت إيما إلى السحاب بشرود وهي تقول:

- أنتم في نعيم بأرض فارس، لو كنت لدينا ها هنا لقتلت نفسك من فوق هذا البرج، إن قومي هنا يؤمنون أن الإله الكبير المتعال تزوج إلهة أنثى في قديم الزمان وأنجبا آلهة شقية مزعجة فأراد الإله أن يقضي عليهم، لكن زوجته رفضت، لكن الأولاد الأشقياء عرفوا أنه يريد قتلهم فتحينوا الفرصة التي نام فيها وسرقوا قوته الإلهية وخلقوا بها الإله مردوخ.

نظر سايروس إليها وهو يقول:

- يعني هم يعبدون مردوخ في النهاية؟

قالت إيما بسخرية:

- بل يعبدون كل هؤلاء، لطالما شعرت أن هذا خطأ، وأن هناك حقيقة في مكان ما لكننا أضعناها.

شرد سايروس بدوره حتى قالت له:

- أتدري؟ لقد اقتربت من اليهود ومال قلبي إلى دينهم لكنني سرعان ما أبعدت نفسي، فهم قوم تقطر منهم الخباثة ويستحيل أن يكون دينهم هو الحق.

قال لها سايروس:

- كيف تقطر منهم الخباثة وأنتم الذين دمرتم بيوتهم ومعابدهم وأخذتموهم أسارى إلى بابل؟ لقد تعاملت معهم مرة واحدة، جاؤوني بعد أن ملكت بابل وطلبوا مني طلبًا رأيته تافهًا جدًّا وصغروا في عيني كثيرًا، لكن ليس من حقكم أن تأسروهم أو تستعبدوهم دون ذنب.

تنهدت طويلًا وقالت:

- لو أنك عرفت اليهود يا سايروس لفعلت بهم أكثر مما فعلنا، لكني سأصدقك القول، إن فيهم رجلًا نبيًّا يقال له الخضر لو رأيته لأكبرته، لم أر في حياتي إنسانًا مثله، لقد أبهر قلبي منذ كنت صغيرة.

حكت إيما له ما فعله الخضر مع أبيها نبوخذ نصر ثم ما فعله أيضًا مع زوجها الملك في ليلة دخول سايروس بجيشه، وكيف كان يتحدث بثقة تامة عن نهاية ملكهم مما أصابها بالجنون، وكان سايروس يستمع إليها وملامحه يبدو عليها التأثر وقد لفتت نظره كلمة نبي التي قالتها، وأراد أن يسألها عنها إلا أنهما سمعا صوت جواد يركض بقوة صاعدًا وراءهما على البرج حتى وصل إليهما أحد الجنود ونزل من جواده منحنيًا في إجلال وهو يقول:

- سيدي، إن أولئك القوم اليهود قد صنعوا ضجة عالية جدًّا في المدينة، يريدون رؤيتك على وجه السرعة.

قال له سايروس:

- وماذا بهم؟

قال له الجندي:

- إن كبار أحبارهم يمسكون برجل يدعى الخضر يقيدونه بالسلاسل ويريدون أن يعدموه بأبشع طريقة ممكنة.

6
الخضر

ساحة الشوجان التي كاد ينساها وتنساه، بشر من كل مكان جاؤوا فقط لرؤيته، هتافات ونيران تشتعل فرحًا وصياحات كلها باسمه، وهو لا يعتني بكل هؤلاء، بل ينظر إلى موضع معين بين الحشود حيث تقف أخته الصغيرة إينارا التي لم تكن تفوت منازلة له إلا حضرتها، وهتافها وضحكها يعلو على كل أحد، لكنها اليوم تقف بين الحشود ولم تعد تهتف ولا تضحك، بل كان الجميع يهتفون حولها وهي تبكي بحرقة حتى لتسمع نحيبها.

اختلج قلبه فرقًا عليها وتقدم بجواده إلى ناحيتها بلهفة، لكن هبت ريح عاصفة جعلته يرفع يده ليحمي عينه وهو يجاهد لينظر حتى رأى رجلًا طويلًا دخل الساحة مرتديًا عباءة سوداء وقناعًا نصفيًا مخيفًا، عرفه قبل أن ينظر إلى شكل عينه فالجموع المحيطة لما أحسوا بدخوله فزعوا وفروا من المكان يمينًا ويسارًا بلا هدى، وبقيت إينارا وحدها تبكي.

رمى آرتي عصاه وأخرج سيفه الطويل وقبض بقدمه على الجواد ليتحرك بحركة هجومية، لكن الجواد انسحقت قدمه فجأة وسقط مكانه كأنما انقصمت مفاصله وأسقط آرتي معه على الأرض فتمرغ وجهه في التراب، ورفع رأسه بغضب عارم ينظر إلى الكاهن غريم، وما لبث أن تحول هذا الغضب إلى دهشة وثورة، فلا هو وجد غريم، ولا وجد إينارا.

ومن فجعته استيقظ من نومه وجبينه متعرق وشفتاه ترتجفان وهو يتمتم:

- إنها هي!

فاضت عين آرتي بالدمع الذي انهمر على خديه كاسرًا ذلك القناع الصارم الذي يضبعه على ملامحه في الحرب والسلم، كان يبكي لأنه يلوم نفسه في قرارة نفسه، لقد ركن إلى الراحة ونسي إينارا، وازدادت سخونة دموعه النازلة حتى أصبحت مُحرقة.

وتحولت عيناه من كثرة الدموع إلى الجحوظ ثم خامرهما الغضب، لو أن هذا الكاهن السافل مضى إلى أغوار كهوف الأرض فسيحرق الأرض كلها ليخرجه من غوره الذي دخل فيه ثم ليمزقنه قطعًا يحشرها في فمه القذر ليأكل من لحم نفسه كلما جاع.

ولم يبت آرتي ليلته في ذلك البيت الوثير الذي غنمه بعد الحرب، ولم ينتظر شروق الشمس بل انطلق من فوره حاملًا عدته متوجهًا ناحية آخر مكان يمكن أن يذهب إليه عاقل في هذا الوقت، قلعة أوتشيسار.

فالقلعة آخر مكان رآه فيه، والموضع الوحيد الذي يمكن أن يلتقط منه طرف الشعرة التي سيصل بها إلى رأسه الخبيث، وبالفعل وصل آرتي إلى كبادوكيا عازمًا على دخول المكان الذي كاد أن يلقى حتفه فيه، وفي داخله صوت يمنعه من الاقتراب لكن صوت روحه المنتقمة علا على كل الأصوات.

وصل آرتي إلى قلعة أوتشيسار في ظلمة الليل الحالك والقمر يستتر وراء السحاب الرمادي فيزيد الظلمة والسواد، ورغم أنه رأى القلعة من قبل فإن قلبه وقع عندما رآها ليلًا وارتجف، فالأنوار الحمراء الخافتة الصادرة من نوافذها المنحوتة في الجبل كانت أشد شيء إرعابًا على النفس في هذا الظلام، ولم تكن القلعة مهجورة كالسابق، بل إن أفواجًا من السحرة كانوا يدخلون إليها ويخرجون، بأرديتهم السوداء وأقنعتهم الشيطانية.

ابتلع آرتي ريقه ببطء وهو يتذكر دخوله الأول وذلك الباب الذي أغلق من تلقاء نفسه تتبعه النافذة، وإن البشري مهما بلغت قوته فهو أسير لفطرته بالخوف من المجهول، وآرتي في هذه اللحظة كان ينظر إلى المجهول ذاته، فهو لم يهتم يومًا بأن يسمع عن هذا العالم ولا كانت تبهره حكايات العوام الحمقى وأرباب الأساطير، حتى رأى بنفسه أفعال غريم الشيطانية وكاد يؤكل حيًّا.

نفض آرتي عن نفسه جميع خواطر الجبناء وتذكر مشهدًا واحدًا، رأس أخته إينارا في ذلك الصندوق، فهو مشهد يجعل دماءه تغلي وتفور في عروقه لأيام، لقد جرب القوة المباشرة في مواجهة الكاهن اللعين ولم تفد بشيء، وإن أغبى شيء يفعله المرء أن يواجه خصمًا لا يدري عنه شيئًا، أما اليوم فقد قرر أن يدخل بقدميه إلى عرين الذئاب ليس كفريسة، بل كذئب.

عزم أن يدس نفسه وسط هذه الأفواج السائرة ككاهن منهم حتى يصل إلى رأس الأفعى.

حانت منه نظرة مدققة إلى جوانب الجبل، كل شيء هنا ينطق بالشر المقيم، حتى همهمات السحرة تسمعها في الجو كأنها التراتيل، كل شيء هنا يكاد يقسم له إنه ينظر إلى قلعة يسكن فيها الشيطان ذاته.

***

نزل ذو القرنين من فوق ثنيات البرج الكبير ووراؤه إيما التي اعتمر وجهها بالقلق بينما كان هو يشعر فقط بالفضول تجاه ذلك الرجل الملقب بالخضر الذي أمسك به قومه ليعدموه، وتذكر بينه وبين نفسه ذلك الطلب الغريب الذي طلبه منه اليهود قبل أيام وشعر أن الأمر يتعلق به بشكل ما.

دخل سايروس القصر ليجد البهو مزدحمًا عن آخره بحكماء اليهود وشيوخهم بلحاهم الطويلة ووجوههم المتحفزة وبينهم رجل نبي له هيبة ربانية لم تنجح السلاسل التي يقيدونه بها في إخفائها.

جلس سايروس على العرش وهو ينظر إليهم في تساؤل حقيقي فتقدم كبيرهم وقال:

- ألست أنت الملك الذي لا يُظلم عنده أحد وقد قلت بأعلى صوتك أمام هذا القصر إن من لديه مظلمة يأتي مباشرة إلى بابك؟

قال سايروس بحذر:

- بلى.

فقال كبيرهم:

- ألم تعاهد هذا الشعب اليهودي أن كلمتك التي تخرج من فمك هي دين عليك إلى الأبد ولا ترجع فيها؟

قال له سايروس:

- بلى.

قال الرجل:

- ألسنا قد أتيناك قبل أيام وعاهدتنا أن تنفذ ما طلبناه منك وكتبت بذلك مرسومًا ملكيًا بالتنفيذ وعليه ختمك؟

قال سايروس:

- بلى، قد جئتموني قبل أيام وقلتم إن دينكم يأمركم أن تحتفلوا بنجاتكم وعودتكم إلى الأرض المقدسة بأن تمتنعوا عن الصلاة شهرًا كاملًا، وطلبتم مني أن أعينكم على تنفيذ دينكم هذا بأن أكتب مرسومًا ملكيًا يسمح لكم بالقبض على اليهودي منكم الذي تجدونه في هذا الشهر يصلي وتسلمونه إلى الدولة لتنفذ فيه الحكم الذي يرتضيه الشعب اليهودي، فكتبت لكم المرسوم، فأنتم أدرى بأمور دينكم، لكني اشترطت عليكم أن يرضى بهذا الحكم أغلبية شعبكم اليهود.

قال له كبيرهم:

- فقد خرج علينا هذا الرجل يزعم أنه نبي أرسله ربنا، ونحن نعرف ربنا ونعبده منذ مئات السنين، وها هو يخالف أول حكم ديني قررناه بعدم الصلاة، فإنا نراه كل يوم في بيته يفتح كوّة السقف ويصلي للرب رغم المرسوم الذي كتبته بيدك أيها الملك، وها نحن قد قبضنا عليه وقيدناه، وهذا هو شعبنا قد اجتمع أمامك ليحكموا فيه بحكم الرب.

نظر سايروس إلى بقية الشعب اليهودي الذي اجتمع خارج القصر وقد أثاروا ضجة كبيرة فأمر الحراس أن يهدئوهم، ونظر إلى نبي الله الخضر الذي لم يظهر على ملامحه أي لمحة من الخوف وقال له:

- أيها الرجل، هل صليت مخالفًا لدين قومك كل يوم بعد أن كتبنا المرسوم؟

نظر الخضر إلى سايروس نظرة اخترقته من داخل قلبه، وليس كل أحد يتحمل نظرة نبي، وقال له:

- من ذا الذي عندما يحتفل يرتاح من صلته بربه؟ إنما الصلة بالله راحة للروح، وإن الصلة بالله هي الصلاة.

قال له سايروس:

- أيها الرجل، أليس ربك هو ربهم؟

قال الخضر بصوته الذي ينفذ إلى أعماق النفس:

- بل ربي الله لا إله إلا هو، أما هؤلاء فيعبدون أهواءهم كما عبدها أجدادهم من قبل.

لفت اسم الله نظر سايروس فقال:

- الله؟

فقال له الخضر وهو ينظر إلى عينه مباشرة:

- الله الواحد الفرد الصمد، لا ثاني له ولا شريك له، خالق السماوات والأرض وما بينهما ورب الخلائق.

ظهر شيء من الالتماع اليسير في عين سايروس وهو يسمع كلمة التوحيد لأول مرة في حياته فقال له الخضر:

- يا ذا القرنين إنما هو الله وحده الذي أنجاك من قوم شداد غلاظ وكنت أنت مضغة طرية لا تملك لنفسك نفعًا ولا ضرًّا.

قال كبير اليهود:

- سيدي، إنه يبعد انتباهك عن الذنب الذي اقترفه.

رفع سايروس يده في وجه الرجل ليصمت تمامًا ونظر إلى الخضر الذي أكمل:

- يا ذا القرنين إنما هو الله وحده الذي أخرجك من ظلمة السجن ووهب لك قلوب الخلائق من الشرق والغرب ومكنك في الأرض وآتاك من كل شيء دون أن يعرفه عقلك، لكن روحك تعرفه.

لم يدر ذو القرنين ماذا أصاب روحه وهو يستمع لهذا الكلام، كأنها وجدت سكنها، لقد كانت إيما على حق، هذا الرجل يختلف، لقد أصاب

روحه في كبدها بكلمات قليلة، فلطالما آمن ذو القرنين أن ما يفعله قومه هراء، وأن كل آلهتهم المتعاظمة ليس بينها وبين الجدران أي فارق.

ظهر التأثر واضحًا على وجه ذي القرنين لكنه استجمع نفسه سريعًا، فكم من ساحر يجيد الكلام، ويلعب على نفوس البشر، فقال بحزم:

- فإن كان الله ربك قد نظر إليَّ وأنا طفل لا حول لي ولا قوة، أفلا ينظر إليك وأنت نبيه، فكما أنجاني من كل شيء، سينجيك.

ثم نظر إلى حراسه وقال:

- كما جاء في مرسومنا الذي كتبناه لهؤلاء اليهود، سيُعدم هذا الرجل الملقب بالخضر بالطريقة التي تعتمدها قوانين بابل في الإعدام.

هلل اليهود الواقفون تهليلًا عظيمًا وفرح الشعب من فرحة كبرائهم فقد كانوا يقودونهم كما تقاد الأنعام، ونظر ذو القرنين إلى الخضر فوجد في ملامحه شيئًا من الرضا.

أبعد ذو القرنين عينيه عنه، فلا يمكن للإنسان العادي أن ينظر إلى وجه نبي طويلًا من الهيبة التي ينزلها الله على أنبيائه وأصفيائه، واقتاد الحراس الخضر خارجين من المكان ليعدموه، لكن ذا القرنين قال وهو ينظر إليه من ظهره:

- لماذا سميتني ذا القرنين؟

التفت له الخضر وقال:

- كما مكَّنك الله في الأرض، وآتاك من الأسباب، سينبئك بهذا في حينه.

ومضى الخضر مع الحراس إلى المكان الذي سيُعدم فيه حسب قوانين بابل، وكما كانت بابل أسطورية في كل شيء كذلك كانت طريقة إعدامها أسطورية، فلديهم بئر عميقة ليس فيها ماء، بل هي جب أو

حفرة عميقة في الأرض عامرة بأشرس أنواع الأسود في الأرض، تُجوَّع بطريقة قاسية حتى تعمى عيونها عن أي شيء إلا الالتهام بلا رحمة.

وهناك عند رأس البئر دفع الحراس بالخضر الذي لم يقاوم، بل ترك نفسه يهوي إلى البئر، وأغلق الحراس الفوهة وراءه بإحكام.

وجاء ذو القرنين لينظر إلى كل شيء بنفسه، وأخذ الحديدة التي عليها ختمه الملكي وغمسها في النار وختم بها على فوهة البئر، ليعلم كل أحد أن الاقتراب من هذه البئر محظور تمامًا بأمر ملكي ولا يفتحه إلا الملك نفسه.

***

سبعة أيام طوال وعينه لا تكاد تغفل عن النظر إلى هذا الكيان الشيطاني من كل موضع فيه، وفي كل مرة يزداد يقينه أن هذا الشيء يستحيل بناؤه بأيادٍ بشرية، لفت نظره أن أفواج السحرة التي تأتي هنا ليسوا على نوع واحد، فمنهم سحرة ميديا وفارس المقنعون بالقناع النصفي وهم سحرة الماجي الذين تطور عنهم دين المجوس وهو يحمل اسمهم، وسحرة بابل ذوو الشعور الطويلة جدًّا، وسحرة ليديا الذين كان أغلبهم نساء، وهم ليسوا على مقام واحد بل إن الكبار منهم يرتدون عباءات حمراء والأقل مقامًا عباءاتهم سوداء والصغار لا يرتدون عباءات.

منهم في عمر الشباب وكثير منهم عجائز بوجه متجعد مرعب ذكورًا وإناثًا، وعلى الرغم من نفس آرتي الثائرة فإنه ليس على وجه الأرض رجل يملك قدرته على المراقبة والتسلل، فيمكنه أن يراقب فريسته لأيام طويلة حتى إذا انقض هتك روحها هتكًا بلا رحمة ولا منفذ للهروب.

لاحظ آرتي أن هؤلاء الأنجاس لا يأتون هنا إلا ليلًا، أما في النهار فينصرفون إلى معايشهم، لكن بعضهم يبقى في القلعة ليل نهار، وقد

أدهشه هذا فهو لما أتى للجبل كان المكان مهجورًا تمامًا عندما دخله في الصباح، أيكون هذا له صلة بيوم المعركة الكبرى؟ لم يكن يدري تحديدًا، لكن الشيطان غريم لم يظهر في المكان ليلًا أو نهارًا طيلة سبعة أيام، وإن الشيء الوحيد الذي يصبره على هؤلاء النجس أنه يجب أن يراقبهم ويندس وسطهم حتى يسمع فقط أحدهم يذكر كلمة غريم وسيسير وراء من يقولها أيامًا. ولولا هذا لكان ذبحهم جميعًا أو حرق هذا الجبل ليشويهم داخله.

مراقبة السحرة الكبار كانت خطرة جدًّا، فإن أحدهم كاد يكشفه ذات مرة عندما التفت وراءه بحدة في لحظة مباغتة كأنه يشعر أنه مراقَب، فطفق يراقب السحرة الصغار والساحرات ويسمع لمحاوراتهم خارج القلعة الجبلية وحاول أن يفهم لكن كلامهم الغامض كان يزيده حيرة، فقط وجد أن كلمة قربان تتكرر كثيرًا في حديثهم وهناك طقس كبير يحضرون له في الغالب لكنه لا يدري ما هو.

وفي لحظة معينة أيقن آرتي أن وقت الدخول إلى هذا العرين قد حان، فلا شيء يمكن أن يأخذه من الخارج أكثر مما أخذ، فبدأ ينظر إلى وجوههم التي تعكس أرواحًا معتمة حتى يختار واحدًا يشبهه في القوام الخارجي وفي الملامح اليسيرة الظاهرة من القناع.

ولم يلبث أن وجد ضالته في شاب من سحرة فارس ممشوق القوام حاد العينين، ففاجأه ذات مرة في غفلة وقيد عنقه بيد من فولاذ وكممه وسحبه خارجًا، وببضع لكمات كسرت فك الرجل وبضعة تهديدات أخرى بفقء عينيه أجبرته أن يخبره بموضع غرفته بالضبط داخل هذا العرين، وأخذ منه كل ما يعرفه عنه السحرة الآخرون، وقيده بإحكام يستحيل أن ينفك منه أحد وهدده إن وجد أي معلومة مما يقول خاطئة فسيعود إليه وسيذبحه ببطء ليشعر بكل آلام الموت الممكنة.

ارتدى آرتي قناع الشاب ورداءه وعباءته السوداء التي تعبر عن ساحر في المراحل الأولى للشر، وإن أكبر حلم يحلم به الشاب في هذه الممالك القديمة أن يغدو ساحرًا، فالسحرة في تلك الأزمان أهم من الملوك، لأنهم كهنة الدين والواسطة بين الملوك والشعب وبين الشعب وبين الآلهة.

مشى آرتي بثقة تامة وسط السحرة وهو يتوجه بقناعه إلى باب قلعة الشيطان ودخل بلا إبطاء كأنه يفعل هذا يوميًا، ورغم أنه دخل في السابق فإن هذا المكان في الليل يشع طاقة خوف كأنها تبَث من الأرض ذاتها، هناك قناديل كثيرة مشتعلة على الحوائط، وهي ليست قناديل عادية مثل التي يستخدمها البشر بل هي جماجم لموتى، بعضها ما زالت تظهر فيها بقايا دماء متجمدة رغم التنظيف.

كان لكل ساحر صومعة محفورة في هذه القلعة يأتيها ليلًا، وبعض هذه الصوامع كان مفتوحًا يمكنه أن ينظر بداخله، لم يدقق آرتي كثيرًا في غرف الآخرين حتى لا ينكشف فهو سيدخل بنفسه إلى واحدة بعد قليل، لكنه كان يسمع الكثير من الترانيم صادرة من الغرف. لكن بعضها كان يصدر منها أصوات صراخ أو عواء بشري غريب مما أفزع قلبه قليلًا لكنه تمالك نفسه.

كانت فكرة شديدة الرعب أن تمشي في مكان تعرف فيه أن شياطين الأرض يأتون إلى هذه القلعة كل ليلة ليخدمهم هؤلاء السحرة، ويذبحون لهم الذبائح ويقدمون لهم القرابين أو يتلون عليهم التعاويذ والتهاويل.

حرص آرتي ألا يبدو عليه أي شيء من التوتر وهو يسير وينظر حوله دون أن يحرك رأسه و...

- هل حضرت قربانك يا كين!

اخترقت المقولة ظهره وهو يعرف أنها موجهة له، فكين هذا هو الساحر الذي يتنكر في زيه، استدار آرتي بثقة بالغة ونظر إلى السائل

وأومأ له رأسه إيجابًا ببطء دون أن يتكلم، ثم استدار يكمل طريقه وبقي الرجل ينظر إليه قليلًا في شك ثم انصرف إلى حاله.

كان آرتي قد عزم أن يتكلم في أضيق الحدود، ولو اضطر فسيتكلم همسًا ويشير إلى رقبته كأن لديه مشكلة ما، والمهم ألا يبدو على وجهه أي شيء.

انقطعت أفكار آرتي حينما انتهى من الغرف ووصل إلى القاعة الكبرى في المنتصف، ولم يقدر أن يمنع المشاعر من أن تظهر على وجهه، فالمكان لا يمكن ان تراه دون أن يهتز قلبك هزة لا بأس بها، فهناك ألف ساحر على الأقل فهذه القاعة الكبرى كل بضعة منهم في شأن.

ولولا كثرة البشر ها هنا للاحظ أحدهم ذهول آرتي الذي يتصنع أنه واحد منهم، مشى آرتي وسطهم ينظر يمينًا وشمالًا، البعض يمسكون برؤوس حيوانات تسيل منها الدماء ويكتبون بها أشكالًا على الأرض في تدريب على طقوس سحر النكرومانسر الأسود، وآخرون لهم شعور طويلة يتلون من كتاب ويتحركون حركة يسيرة متماثلة، وعلى الجانب رجال ونساء عبيد عراة يبدو من وجوههم أنهم مأخوذون للموت وعلامة النجمة الخماسية تطبع بالحديد الساخن على أجسادهم.

وفي كل موضع منظر أغرب من الذي قبله، نساء شابات يرتدين عباءات حمراء شفافة وأقنعة كاملة تتقدمهن امرأة تقودهن إلى مكان ما، تمائم تصنع من عظام وجلود مكتوب فيها بالدماء، عُقد تشتعل نارًا ويُنفث فيها فيزيد اشتعالها، باختصار كانت خلية نحل من السحر الأسود.

القاعة مفتوحة من أعلاها على السماء تخرج فوهتها من رأس الجبل، فالأيدي الشيطانية التي نحتت في هذا الجبل فرغته من المنتصف أولًا

لتصنع هذه القاعة وحدها، جدران القاعة كانت من تلك التشاكيل المدببة التي تكون في كهوف الجبال.

ازدرد آرتي لعابه بصعوبة وهو يحاول عدم الالتفات إلى كل منظر من هذه المناظر حتى لا يُقضى عليه، ثم فجأة توقف الكل عما يصنعون وسكتت الأحاديث كلها وجاء رجل يرتدي عباءة حمراء وقناعًا فضيًّا أملس ليس عليه أي ملامح كأنه سطح درع مصقول وقال:

- في ذات اليوم المعلوم تأتون جماعات وتدخلون فرادى يأتي كل من صنع بما صنع وكل من ضحى بما ضحى الرخيص يأتي بالرخيص والنفيس يعلو ويثير إعجابًا في عين الآلهة.

ولم يتحدث بكلمة أخرى إذ بدأ الكل ينصرفون إلى الصوامع واستدار آرتي بدوره ليذهب إلى صومعة اللعين الذي يتمثله، ولم يبحث كثيرًا أو يتردد، فوصف ذلك الساحر كان دقيقًا.

وصل آرتي إلى الغرفة ودخلها بلا تردد لكنه توقف فجأة لما زكمت أنفه رائحة دماء مذبوحة فأمسك أنفه في تقزز وأغلق الباب سريعًا لئلا يلحظه أحد، وأسند ظهره إلى الباب وأخذ يتطلع إلى الغرفة وكل ما فيها حتى رأى الشيء مصدر الرائحة، وانخلع قلب آرتي الجامد الذي لا يهزه شيء، انخلع حتى إنه سقط بركبته على الأرض وعينه تتسع في فزع شديد، وغضب.

***

تقول الشريعة البابلية إن المجرم يجب أن يقضي في جب الأسود يومًا وليلة دون نقصان، ويُمنع على الحرس منعًا باتًّا أن يلقوا طعامًا للأسود خلال تلك الفترة حتى تنقض بكامل شراهتها على الفريسة المعدمة فتقطع أوصالها، وكان اليوم قد مضى وبقيت الليلة، وسايروس

يروح ويجيء في شرفة قصره الواسعة ولا يقدر عقله أن يفكر سوى في شيء واحد امتلك جميع كيانه وظهر على ملامحه وعينه الحائرة.

- ما بك يا سايروس؟ أنت لست أنت.

قالتها إيما في قلق وهي تنظر إلى زوجها الذي اعتادت أن تراه قويًا واثقًا في جميع أحواله، أما هذه الساعة فهو رجل تاهت عيناه ولم تعودا ثابتتين مثل السابق، نظر إليها بشيء من الكدر وقال:

- ما شعرت بمثل هذا إلا مرة واحدة يا إيما أذكرها كأنها بالأمس، تلك اللحظة التي عرفت فيها أن أبي هرمز ليس هو أبي، أحسست ساعتها أن الجدار الذي كانت تستند عليه روحي قد وقع.

لم تعتد إيما من نفسها أن تخالجها مشاعر مثل هذه لكنها شعرت بطائف من الحب ناحية هذا الرجل الذي كانت تحاربه ثم أحبته، فقالت له بقلق ظهر جليًا في صوتها:

- ما الذي أوقع روحك اليوم يا سايروس؟

قال لها من بين حيرته:

- شعرت اليوم أن روحي وجدت ذلك السؤال الذي كانت تطمع أن تدور به على الخلائق، أرب واحد خير أم أرباب متفرقون؟ تمنيت أن أسمع شخصًا واحدًا يقولها حتى أتى هذا الرجل وصدع بها في وجوه القوم ولم يخف وهو يعرف أنه سيموت، وكأنه يقول لي إن الشيء الذي طالما آمنت به هو الحق الذي لم تجرؤ أن تصدع به، رغم أن روحك تعرفه وتوقن في كل مرة تقع فيها في كرب أنه سيكشفه وينقذك كما يفعل دائمًا.

قالت إيما محاولة تهدئته:

- فهذا يشد من أزرك يا سايروس ولا يوقع روحك.

قال سايروس بشيء من الغم:

- المشكلة أنني بعد أن وجدت كل هذا ألقيت الرجل في جب الأسود كأنما تأثرت مشاعر روحي فجأة ببعض الأفكار التي أتت على خاطري تشكك فيه.

قالت له إيما:

- أتدري يا سايروس؟ عندما سمعتك تأمر أن ترميه في جب الأسود أردت أن أهرع إليك وأمنعك عن هذا، لكني وجدت أن ما فعلته هو الحق، فهذا الرجل يقول إن ربه هو الذي أنقذك من الأهوال العظام منذ مولدك، ذئب مفترس وإعدام محقق وحروب غاشمة، أفلا ينقذه هو من بضعة أسود وهو نبيه؟

شردت عينا سايروس قليلًا ثم قال لها:

- آرتي مختفٍ منذ أيام لا أثر له.

قالت بعصبية:

- أيترك عسكره ويمضي هكذا دون أن يبلغ الملك؟

قال لها بهدوء:

- وهل آرتي هذا يعتني بأي شيء؟ إنه كالجواد الجامح الذي عضه كلب فأصيب بالسعار، لكني أعلم جيدًا أين ستأخذه دماغه، وأتمنى أن يعود مما هو فيه، حيًّا.

وظل سايروس شاردًا طوال الليل وكلما تسلل إليه النوم تنبه عقله من التفكير، حتى سقط رأسه إلى جانبه من الغفوة وجذبه سلطان النوم حتى تملك منه، ورأى حينها رؤيا جعلته يقوم من مقامه كالملسوع.

رأى نفسه راقدًا بأرض جبلية وحوله غابة كثيفة والليل ينسدل رويدًا رويدًا على الأجواء، وهناك صوت ذئب يزوم بالقرب من رأسه، رأى نفسه

في الرؤيا يحرك يديه ورجليه في الهواء، ثم فطن إلى أنه طفل مولود رغم أن عقله واعٍ تمامًا، فكف عن تحريك أطرافه بهذه الطريقة ونظر إلى الذئب في رعب، وفي نظرته إلى الذئب شاهد أباه هرمز وهو يختبئ خلف صخرة ويضع يديه على أذنيه ويبكي، كان سايروس يرى مشهدًا من ماضيه، في أول يوم له في الحياة.

كف الذئب عن الزوم الغاضب وسكنت عينه وذهب عنها الشره ونظر إلى جهة معينة في سكينة.

نظر سايروس إلى الجهة التي ينظر إليها الذئب فقابلت عينه جبة خضراء تعلوها عباءة سوداء، فرفع عينه في سرعة فعرف أن الرجل الذي يرتدي الجبة هو الخضر، والذئب ينظر إليه في فرحة ثم يدني رأسه ويتشمم الطفل في ود ثم يلعق خده، ثم نظر الذئب إلى الخضر بامتنان وغادر المكان في سلام.

قام سايروس من رقدته في فجع، هذه الرؤيا ليس لها سوى معنى واحد ليس له ثانٍ، تحرك سايروس بسرعة ونزل على درجات سلم القصر وخرج منه في خطوات كأنها الركض، وكل من يراه يظن أن هناك مصيبة أو حربًا من نوع ما فالملك سايروس لا يراه أحد هكذا أبدًا.

دخل سايروس إلى الموضع الذي فيه جب الأسود ووجد الحراس واقفين عليه كما أمرهم ليس فيهم خدش واحد وكلهم يقظون لا تطرف لهم عين، فقال لهم في عجلة:

- هل الرجل بالداخل؟

ظهرت على وجوههم الدهشة من السؤال نفسه، فإلى أين يمكن أن يذهب الرجل أصلًا؟ تجاوزهم سايروس ومد رأسه لينظر داخل البئر فوجد الفوهة مغلقة فقال:

- افتحوا هذه الفوهة الآن.

قال له أحدهم:

- سيدي، لن تقدر على رؤية شيء من هنا، إن كنت تبغي رؤية الأسير فلتنزل عبر السلم إلى باب غرفة البئر السفلى.

وقبل حتى أن ينظر سايروس ناحية السلم تجمد في مكانه وهو ينظر إلى فوهة البئر في دهشة.

فقد وقعت عينه على الختم الذي نحته بنفسه موجودًا كما هو لم يمَس بسوء مطلقًا.

إلا أن الختم كان مقلوبًا رأسًا على عقب.

وطال تجمد سايروس، فقلب الختم المنحوت على الصخر مستحيل بأي طريقة في الدنيا.

مستحيل على بني الإنسان، أو بني الشيطان.

***

ظل آرتي برهة جالسًا على الأرض ينظر من بعيد إلى شيء أكثر بشاعة من جميع تخيلاته، طفلة صغيرة لم تتجاوز الخامسة مقطوع رأسها وموضوع على الطاولة، ولم تكن لها ملامح يمكن وصفها فعيناها منزوعتان، والأكثر رعبًا أن إحدى العينين موضوعة وحدها في إناء زجاجي تسبح في سائل شفاف وحولها عروقها.

إن هؤلاء النجس يضحون بالأطفال، لكن ليس هذا تحديدًا ما جعل مفاصل آرتي تتفكك ويسقط على الأرض، بل لأنه فهم.

إن رأس إينارا كان مثل هذه الطفلة تمامًا، بلا عيون، هذه طريقة الأقذار في تقديم الأضحية، شعر آرتي بغصة دامية في روحه أورثته مزيدًا من البغضاء التي كادت تخرج من عقالها وتدمر كل شيء، لكنه

أغمض عينه في حنق ثم قام من مكانه لينظر إلى الغرفة حوله في امتعاض.

أكثر الأغراض هنا ليست مفهومة بالنسبة إليه غير أنها تنبعث منها طاقة شر تنفر منها النفس، دمى كثيرة وإبر مغروزة في أعناقها وحبال معقودة وجواهر وقنينات مليئة بالدماء، كتب كثيرة متبعثرة بين مكتبة وطاولة أو ملقاة على الأرض بلا نظام.

تقدم آرتي من الكتب ببطء، لقد قالها سايروس مرة، أنت ستنهزم حتمًا إن واجهت خصمًا لا تعرف عنه شيئًا، ولا يمكن فهم هذا الكاهن دون معرفة أي شيء عن هذا الشيء الذي يتقنه ويعلو به على الجميع، السحر، وهو لا يعرف شيئًا عن السحرة سوى أنهم أقذر البشر، لكن هذا لا يكفي.

مد يده إلى كتاب مفتوح على مصراعيه، إن لديه وقتًا كبيرًا هنا ليفهم، نظر مجددًا إلى الجثة التي لا تكف رائحتها تضرب أنفه بقوة ثم أعرض عنها وأمسك بالكتاب.

وجد آرتي نفسه يستغرق في القراءة وعينه تلتهم السطور التهامًا، كانت يده ترتجف عند كلمات معينة بينما هناك صفحات كاملة يمررها بلا قراءة.

الآلهة لا تُعطي عطاءها إلا لمن يستحق، ولا أحد يستحق سوى الذي يضحي لها بأغلى شيء.

إن أنفس شيء تضحي به للآلهة هي الروح فهي الجوهرة الغالية، والدم الذي يحمل الحياة هو أغلى سائل تحبه الآلهة.

البشر هم على قمة الأرواح الغالية والتضحية بهم تعني الدرجة العالية.

الطفل البشري هو البغية العظمى والضحية الأكمل لأن دماءه طازجة وروحه لم تتلوث بشيء.

ازدرد آرتي لعابه في صعوبة، إذا كان هؤلاء السحرة الأنجاس يضحون بالأطفال ولا يدري أحد بهذا فيجب أن يكون هناك شيء في القرية يجعل اختفاء الأطفال المتكرر هو شيء لا يثير الشك.

تذكر آرتي الأساطير التي كان يشيعها كهان الماجي في مملكة ميديا عن أرواح الهال الشريرة التي لها أنياب حادة وشعور طويلة وتخطف المواليد بعد أربعين يومًا من ولادتهم، إن الشعب يصدقون هذا كعقيدة راسخة، وهو نفسه كان يصدق، فلو اختفى طفل من بين أيديهم يقال لهم إن شياطين الهال قد أخذته، بينما في الحقيقة قد اختطفه السحرة الأقذار.

ظل آرتي أيامًا يقرأ ثم يخرج من الغرفة بحذر ليستكشف المكان من حوله حتى اكتفى وقرر أن يصعد إلى الدرجة العليا مباشرة، غرفة غريم في قمة الجبل، زفر آرتي زفرة أخرج فيها كل ما بداخله وقام متوجهًا إلى النافذة ونظر حوله بحذر، ثم قفز إلى الخارج.

كان يرتدي السواد القاتم حتى لا يظهر للعين وهو يتسلق الجبل في الليل، وأصبح يقترب شيئًا فشيئًا من القمة حتى بلغ النافذة العليا ودفعها بقدمه فانفتحت بلا صعوبة.

يبدو أن أحدًا لم يصلح هذه النافذة بعد أن ضربها بالشمعدان في يوم الفئران، الغرفة مظلمة تمامًا وهذا طبيعي فالخبيث ليس هنا، أشعل آرتي شمعة أخرجها من جرابه ووضع فوقها جزءًا من عباءته بحرص حتى لا ينتشر ضوؤها إلى السقف ويُرى من النافذة، كل شيء على حاله كما تركه في ذلك اليوم.

يبحث عن أي آثار تدل أن هناك أحدًا استخدم هذه الغرفة مؤخرًا لكن لم يجد شيئًا، وفي الغالب غريم لم يأت إلى هنا منذ ذلك اليوم، استدار بحذر إلى النافذة ليغادر المكان لكن الباب انفتح وراءه ببطء محدثًا ذلك الصرير البغيض فاستدار آرتي وراءه في سرعة ليجد آخر شخص على الإطلاق يريده أن يراه في هذه اللحظة.

***

توجه سايروس إلى السلم ودقات قلبه تتسارع، ما زال عقله يرفض تصديق أن الختم قد انقلب من تلقاء نفسه، لا بد أن في الأمر خدعة ما، كان عقله يعمل بكل طاقته التحليلية التي وهبه الله إياها وهو ينزل على درجات السلم حتى وصل إلى القاع حيث غرفة البئر السفلى التي تدخل على جب الأسود بباب حديدي له قضبان كأبواب السجن، ونظر سايروس نظرة واحدة عبر القضبان، نظرة واحدة فقط وتوقف عقله عن كل أنواع التحليلات وتسمر مكانه بلا حراك، إلا ارتجاف عينيه المتسعتين وهو ينظر داخل الجب.

وجاء الحرس من ورائه وتصلبت أطرافهم وهم ينظرون إلى الداخل في ذهول، وبعضهم سقط على الأرض مغشيًا عليه وآخرون فروا خارج المكان من شدة الخوف وأصدروا ضجة عالية في القصر ولم يقدروا حتى أن يشرحوا لإيما التي رأتهم يشهقون وهي تركض من بوابة القصر إلى مكان الجب، ودخلت إيما بنفسها لتنظر إلى أغرب مشهد يمكن أن تراه عين ويستوعبه عقل، وأخذت الصدمة التي أخذها الجميع فألصقت رأسها بالقضبان لترى عن قرب.

فمن المفترض أن هذا الجب هو بئر سحيقة مظلمة في الأرض وفوهتها تكون دومًا مغلقة إلا في اللحظات التي يأتي فيها أسير لإعدامه،

وأرضية البئر صخرية هُيِّئت لتعيش عليها الأسود، لكن المشهد الحاصل بالداخل كان من المستحيل الذي لا يمكن حتى للخيال أن يهضمه.

فالرجل الذي يفترض أن يكون مأكولًا ها هو قائم هناك يصلي، ولم يكن هذا هو المرعب.

المرعب أن أرضية البئر كلها أصبحت خضراء كأنما هي ربوة مطيرة تحت عين الشمس، وكانت الأسود ترقد عليها في كسل وبعضها يشاكس بعضًا كأنما لم يُتركوا يومًا وليلة بلا طعام.

وكانت هذه معجزة نبي الله الخضر، ولهذا سماه ربه بالخضر، لأنه جلس على أرض يابسة بيضاء، فإذا هي تهتز تحته خضراء.

في هذا اليوم آمن ذو القرنين برب العالمين، وآمنت زوجته إيما، وكل من رأى المعجزة من الحرس ومن جاء وراءهم من قادة الجيش والأمراء وكبار القوم، وأمر ذو القرنين باليهود أن يأتوه، كل كبارهم الحكماء الذين أضلوا قومهم منذ مئات السنين.

فلما وقفوا أمامه قال لهم:

- يا يهود الشر إن أسيركم قد نجا، لم تأكله أسود بابل.

قال كبيرهم بسرعة:

- لقد حدث هذا يا سيدي أكثر من مرة، فالأسود تكون قد شبعت في اليوم الماضي ولديها بقية من طعامها، اتركه يومًا زائدًا فقط وسترى جسده ممزقًا بين دمائه.

قام ذو القرنين من عرشه وأمسك بتلابيب كبير اليهود بيد واحدة وقال:

- تعال فاستمع إلى زئيرها بنفسك.

وصاح في الحراس:

- أمسكوا بكل من في هذه القاعة من يهود الشر واتبعوني إلى جب الأسود.

وسحب كبيرهم بيده من قفاه وهو يجره وراءه جرًّا بإذلال وإهانة والحرس من ورائه يقيدون بقية حكماء اليهود، حتى جاؤوا إلى البئر فأمر ذو القرنين أن تفتح الفوهة ففُتحت، وبحركة واحدة من ذراعه القوية رفع سايروس كبير اليهود ورماه في الفوهة فتجمعت عليه الأسود ومزقته بغضب وهي تنهش لحمه في هياج.

ورمى الحراس بقية اليهود إلى الفوهة واحدًا واحدًا، حتى إن كل أسد بالأسفل حصل على فريسة كاملة أو فريستين، وقطع ذو القرنين دابر القوم الذين كفروا بربهم وقتلوا أنبياءهم وأضلوا أمتهم.

ولم تغرب شمس هذا اليوم إلا وجميع أرض بابل قد آمنت بالله الواحد الذي لا شريك له.

ولما أشرقت الشمس في يوم جديد كتب ذو القرنين مرسومًا ثانيًا خاصًا باليهود، أن يسمح لهم ببناء مسجدهم الذي هدمه نبوخذ نصر، يبنونه كما كان على عهد سليمان وليس الهيكل الشيطاني الذي كان حكماؤهم يذبحون فيه للطاغوت، وكتب في المرسوم أن خزينة الدولة ستعطي اليهود كل ما يحتاجون إليه من ذهب وفضة وحجر وعجول وكباش وقوانيس لأجل أن يبنوا المسجد الأقصى.

وعيَّن ذو القرنين نبي الله الخضر وزيرًا له وصاحب لوائه الأعظم، وفي قاعة القصر البابلي الذي أزيلت منه كل تماثيل الآلهة وبينما اجتمع سايروس وإيما وجميع الكبراء جاء الخضر وهو يحمل كتاب الله التوراة التي لم تحرَّف، ووضعها على طاولة أمام سايروس وقال له:

- اقرأ من هنا يا ذا القرنين.

فقرأ ذو القرنين:

«هكذا يقول الرب أنا خالق كل شيء، ناشر السماوات وحدي

لا إله إلا أنا

خالق النور والظلمة

أنا القائل عن القدس ستعمرين كما خربت

أنا القائل عن أنهار بابل ستجفين وتنشف قنواتك من الماء

ويعبر إليك عبدي سايروس الذي أمسكت بيمينه لادوس أمامه أممًا طاغية

هكذا يقول الرب لمسيحه سايروس، أنا أفتح أمامك الأبواب كلها وأكسر مغاليقها

أنا الذي دعوتك باسمك في كتابي وأنت لم تعرفني

فأنا الرب وليس آخر، لا إله سواي

مكنتك في الأرض ولم تعرفني

لكي تعلم الأمم من مشرق الشمس إلى مغربها أني أنا الرب وليس آخر

خالق السماوات والأرض ومن فيهن».

شعر سايروس برجفة تجتاح روحه كلها، رجفة مرتعبة، إن هذا الكتاب يذكر اسمه، ويصف عبوره إلى بابل وتجفيف أنهارها، ويقول إنه مسيحه يعني مختص من الرب بمهمة مقدسة، وهو كتاب مكتوب منذ عقود كما هو واضح على صفحاته المهترئة. أحس بأنه يقف أمام شيء كبير لا قبل له به وأراد أن يترك كل شيء ويفر إلى أقصى الأرض، لكن هذا الله الذي بيده مقادير كل شيء، فأين المفر منه ولو توليت شرقًا وغربًا. تسارعت دقات قلبه حتى سمعها بوضوح وآلمته كثيرًا، كأن قلبه أراد أن يهلك نفسه ليهرب هو الآخر.

حتى إيما لم تصدق نفسها مما قرأت، فكل شيء حدث مكتوب هنا في سطرين، حتى تجفيف الأنهار، لم تكن تدري بما تشعر، لكن نظرتها إلى زوجها سايروس أصبحت أكثر من نظرة ملكة إلى زوجها الملك، بل نظرة إلى مختار مخلص من عند الله.

أما سايروس فقد نظر إلى الخضر وقال وهو ينظر إلى صفحات الكتاب في شرود:

- لقد كان اسم جدي سايروس أيضًا، وكان ملك آنشان، لكنه لم يحارب بابل ولم يجفف الأنهار ولا عمَّر القدس بعد خرابها.

قالت إيما تسأل الخضر:

- يا نبي الله، أنت قلت اقرأ يا ذا القرنين، فما ذو القرنين؟

قال لها الخضر وهو ينظر إلى ذي القرنين:

- ثلاث علامات كتبها الله عليك، واحدة انقضت في الماضي

والثانية تحدث في هذه الأثناء والثالثة يأتيك تأويلها فيما يلي من الأيام.

قال له سايروس:

- أي علامات؟

قال الخضر:

- كنت في ولادتك سليل طرفين من الملوك متحاربين منذ بدء الزمان، فأمك أميرة من ميديا وأبوك ملك فارسي، ولما بلغت أشدك جمعت بين القرنين أو الأمتين في تاج واحد وأمة واحدة هي مملكة فارس، فهذه علامة الماضي.

نظر سايروس إلى الخضر ودقات قلبه ازدادت شدة، والخضر يكمل:

- وعلامة الحاضر أنك تزوجت هذه الأميرة، وجمعت بين قرنين وأمتين كان من المستحيل أن يجتمعا في يوم على الأرض، فارس وبابل، جمعتهما في تاج واحد وأمة واحدة هي المملكة الإخمينية.

وقبل أن يسأل سايروس قال الخضر:

- أما العلامة الثالثة فمن وحي الكتاب يأتيك تأويلها بأقرب مما تظن.

وارتدى سايروس التاج الذي عُرفت به صورته في التاريخ، تاج همهم كما سماه المؤرخون، وهو تاج عريض عليه قرنان عظيمان، وثلاث شموس.

ومن هنا ابتدأ كل شيء...

***

رفع آرتي رأسه بحدة ليرى القادم خلف الباب الذي وقف بعباءته الحمراء الطويلة وقناعه الفضي الأملس الذي لا تدري كيف يرى من ورائه، ورغم أن الرجل مرعب بما يكفي لكن وجود آرتي فاجأه فظهرت عليه رجفة لم تتجاوز الثانية كانت كافية لينفخ آرتي بقوة في شمعته ويطفئها فتظلم الأجواء.

قال الرجل بحنق:

- كين ما الذي...!

وقبل أن يكمل جملته سحب آرتي من جرابه مدية دائرية متعددة الأنصال ألقاها بكل الكراهية التي في نفسه فأصابت عنق صاحب العباءة وسقط على وجهه كالجلمود دون مزيد كلام.

نظر إليه آرتي وبصق عليه في الظلام ثم تحرك إلى النافذة ليهرب من المكان بعد هذه المصيبة التي ستغير كثيرًا جدًّا من خطته، وبينما

آرتي يتحرك بمرونة على صخور الجبل إذ يبست أطرافه وتصلبت فجأة وهو ينظر بالأسفل إلى بوابة القلعة التي يقترب منها الكاهن غريم بردائه الأسود البغيض ووراؤه ثلة من الرهبان يرتدون الأحمر.

توقفت هذه الثلة من السحرة فجأة وغريم ينظر بجمود إلى آرتي المتعلق الذي أطلق سبة وهو يرمق غريم بنظرة مقت وبدأ يتحرك بشكل أسرع، لكنه انتفض فجأة وشعر بنبضة قاسية داخل دماغه كأنها مس شيطان، وكانت كفيلة أن تفقده توازنه تمامًا وتسقطه من علٍ لولا أن تشبث بقوة شديدة، لكن النبضة الواحدة بدأت تتحول إلى نبضات تضرب رأسه من جوانبه بشكل عنيف فارتجف كالمصروع وتفككت أطرافه وانزلقت قدمه عن الحافة وسقط من ارتفاع طابقين ناظرًا إلى السماء بعين مذهولة من الرعب حتى ارتطم بالأرض بقوة مميتة قصفت عظامه كلها، وسالت الدماء من فم آرتي خارجة من جوفه وجحظت عيناه جحوظ الموت وهو ينظر إلى أقدام غريم الذي وقف عند رأسه وجذبه من شعره الطويل في عنف، وقال لكهنته:

- خذوه لطقس الإحراق، فسيكون ضحية زكية للآلهة، فهو ابن الوزير الهالك.

***

7
فأتبع سببًا

من ذا الذي كان على الأرض أعظم من ذي القرنين ملكًا وسطوة وهيبة، فقد ملك من البلاد ما لم يملكه قبله إنسان إلا سليمان النبي، وكان هذا يشعره بالعظمة والرضا، فقد وهبه الله كل شيء، وأعظم من ذلك أنه دله عليه وهداه إلى طريقه، واختاره في كتابه باسمه وصفته، فتعاظمت نفسه في نفسه، فعنده حسن الهيئة وحسن الهيبة وحسن العقل الذي غلب به ملوك الدنيا.

والحق يقال إن الملوك جميعهم على عظم سطوتهم لم يكن عندهم ربع هذا العشق في قلوب الشعب، وقد ظهر هذا عندما دُبِّر انقلاب في ليديا على حكم ذي القرنين، وصعد على العرش رجل بغيض اسمه باكتيس، فخرج ذو القرنين إلى ليديا في عشرة آلاف من خيرة الأجناد، وعندما علم شعب ليديا باقتراب ذي القرنين عملوا ثورة شعبية مفاجئة على باكتيس الذي هرب من القصر وترك كل شيء وراءه، وطلع شعب ليديا يستقبلون ذا القرنين بالورود والمزامير وهم ينشدون له سطورًا من التوراة تحمل اسمه.

ولما دخل من بوابة ليديا تعالت صيحاتهم وأياديهم وتزاحموا على رؤيته، حتى إن بعضهم أغشي عليه من الزحام وبعضهم وقع مكانه بمجرد أن رآه في تلك الحلة الذهبية التي تشع فتزيده جلالًا مع شعره الذهبي بتلك الضفيرة الذهبية الكبيرة التي تفرق إلى ضفيرتين باهرتين وراء ظهره.

ومشى ذو القرنين في موكبه ذاك ينظر إلى عيون الناس التي تملؤها الفرحة من مرآه فازداد فخرًا بما لديه من البهاء، وعلى جانب ذلك الموكب كان يقف الكاهن غريم وعينه الواحدة الخارجة من القناع لا يبدو فيها غيظ أو حنق بل سخرية وسرور، وتحرك خده حركة الابتسام وهو ينظر إلى ذي القرنين الذي يرفع يده بحركة الملوك يحيي شعبه، فألقى عليه غريم نظرة أخيرة ثم استدار مغادرًا.

ولما نزل الليل والتبست السماء بسوادها وسكنت النفوس، ونامت عين ذي القرنين فرأى في المنام أنه يمشي في أرض فلاة ليس فيها شجر ولا حجر، والشمس تدنو من الأرض حتى أصبحت في متناوله فمد يده فأمسك بقرص الشمس وجعله تحت ذراعه، ثم مضى في الأرض الفلاة حتى وجد الشمس تخرج من الأرض فمد يده فالتقطها وجعلها تحت ذراعه الأخرى، ثم مضى يمشي حتى بلغ القمر، فوضع الشمسين على الأرض ورفع كلتا يديه يمسك بالقمر وأصبح يمشي به في الفلاة تتبعه الدراري والنجوم حتى سقطت به في وادٍ سحيق، فاستيقظ ذو القرنين من نومه فزعًا يتفصد جبينه عرقًا.

وما كان على الأرض رجل يقدر على تعبير الرؤى مثل وزيره الخضر الذي سمع الرؤيا كاملة ثم قال:

- تأويل رؤياك يا ذا القرنين أنك ستسير خارجًا من هذه الأرض ضاربًا بخيلك وجندك حتى تبلغ مغرب الشمس.

ظهرت الحيرة على ذي القرنين وهو يقول:

- وما مغرب الشمس يا نبي الله؟ فإني أراها تغرب على كل قرية في هذه الأرض.

قال الخضر:

- منتهى الأرض المعمورة جهة مغرب الشمس، حتى لا يكون بعدها سوى البحر الكبير.

فقال ذو القرنين:

- يا نبي الله أهذه الرؤيا أمر من الرب؟

قال له الخضر:

- لست نبيًا لتؤمَر في رؤيا، إنما هو تأويل ما يكون في الغيب.

تدخلت إيما وقالت:

- فإن الشمس تغرب في سماء ليديا من ناحية أرض إيونيا، بين الجنوب والغرب.

قال ذو القرنين مفكرًا:

- والإيونيون قوم ليس لهم شأن بل هم جبناء لا وزن لهم في الأرض، فأي شيء ذاك الذي سيدعونا لغزوهم أو المسير إليهم يومًا؟

نظر إليه الخضر مليًا وضيق عينه للحظة ولم يتكلم.

ولم يلبثوا حتى دخل عليهم واحد من الحرس وقال بضيق:

- سيدي المعظم لقد بلغنا أن باكتيس الخائن هاجم سارديس وسرق كنوز كروسرس كلها رغم الحراسة البالغة وهرب إلى أرض الإيونيين.

تبادل ذو القرنين وإيما النظرات وقد فهما تعبير الرؤيا ثم قالت إيما:

- سايروس، إن تلك الكنوز لو أنفقها الخائن في حربنا وعبر بها البحر إلى أثينا سيثقل كفة اليونان علينا و...

قاطعها ذو القرنين بحزم:

- لن تقله الأرض أو تظله السماء حتى يقع بين يدي.

ثم نظر إلى الخضر وقال:

- قد ثبتت الرؤيا يا نبي الله، سأسير وراء ذلك البغيض إلى مغرب الشمس.

ومرة أخرى لم يتكلم الخضر فقط استدار منصرفًا بلا زيادة كلام.

***

جبل تشع نوافذه بنور أحمر يتوهج كأنما ينفث شرًا في الظلام، العين تحلق بثبات وهي تتوجه ناحية الفوهة العليا للجبل ثم تنزل منها ببطء مصورة المنظر من الأعلى حيث القاعة الجبلية الكبرى التي كانت مملوءة بالبشر كالعادة، لكنهم لم يكونوا كهنة بل عبيدًا حليقي الرأس مختوم على جباههم نجمة الشيطان، كانوا يتحركون في المكان بسرعة كأنهم يجهزونه لأمر جلل.

كان آرتي ملقى على الأرض مقيدًا بالسلاسل بين عمودين كبيرين بطريقة محكمة لا يمكنه فيها تحريك أي طرف من أطرافه، مكممًا بسلسلة تدخل بين فكيه فتمنع لسانه من النطق، كان يبدو عليه الإعياء الشديد ووجهه شاحب وإن كانت عينه لا تزال تنطق بالكراهية.

دوى في القاعة صوت غليظ عال فتحركت العين إلى ناحيته فرأت العبيد يسحبون فرنًا حديديًا بالغ الضخامة منحوتًا على هيئة رأس شيطان يجرونه بالسلاسل، نظر آرتي إلى رأس الشيطان وظهرت الدهشة وعدم الفهم على عينيه المتعبتين بضع لحظات ثم أغلقهما في

عدم اكتراث، ثم فتحهما مجددًا في انتباه فقد تناهى إلى سمعه صوت نار تُحمى وتلتهب فوجد العبيد يمدون عصيهم بداخل رأس الشيطان يضرمون فيه النيران.

فهم آرتي ماهية رأس الشيطان الحديدي عندما رأى النار تتوقد فيه فتتوهج منها قرونه.

ومن بين الصمت سمع عزفًا كئيبًا بصوت ناي يصنع لحنًا جنائزيًا مقبضًا تتخلله تراتيل يتلوها السحرة بصوت واحد وهم يدخلون أفواجًا من ثلاثة طرق منحوتة في الجبل كلها تؤدي إلى القاعة الكبرى.

كانوا يمشون ببطء وكل مجموعة منهم يمسكون بسلسلة يجرون فيها عبدًا يمشي على يديه وركبتيه مكبًا على وجهه في ذل، وفوق ظهر كل عبد طفل غُطي رأسه بخيشة سوداء يرى من خلالها، ويبدو من صراخ الأطفال المكتوم أنهم مكممون.

كان هذا متوقعًا بعد كل ما رآه وقرأه، هذا ليس طقسًا عاديًا من طقوسهم، بل هو طقس حرق جماعي للأطفال، ولم يكن هناك شيء يقدر أن يصف شعور آرتي وقتها مهما طالت الكلمات وانتظمت، يكفي فقط النظر إلى عينيه اللتين ينعكس عليهما لهيب النار وهما ترتجفان في حركة ملحوظة.

ثم جاء غريم بطلته المخيفة، وللمرة الأولى لم يكن يضع الغطاء على رأسه فظهر شعره الطويل الشديد الجعد ووجهه الجلف الجامد كالحجر وقناعه الذي يختلف عن جميع الأقنعة، ووقف في منتصف القاعة بين التراتيل والعزف وصوت احتدام النار يعلو ويعلو، ثم رفع يده فسكتت الأصوات كلها وقال:

- اليوم أهدتنا الآلهة روحًا ثائرة لنسفك دمها على المذبح المقدس ونحرق رفاتها لتفوح منها رائحة سرور للرب، روح يحملها رجل

هو البيدق الأكبر في جيش الطغاة الجدد وقد دخل إلى حرمنا وقتل الكاهن الأكبر.

توجه أكثر من عشرة عبيد ضخام الجسد إلى ناحية آرتي وفكوا سلاسله وأمسكوا بها في إحكام أشد من إحكام العواميد، وبدؤوا يدفعونه في قوة، ولم يكن يظهر على وجهه ساعتها شيء من الخوف، بل كان ينظر إلى الجميع بسخرية كارهة وقال:

- كل هذه القوة من الرجال لتحركوني إلى هناك لأجل سرور الآلهة الجائعة؟ أليس عند آلهتكم سلطان ليأكلوني بلا طهو؟ أم أنهم لا يحبون اللحم نيئًا؟

كان من المستحيل عليه أن يحرك يديه أو رجليه أي حركة فالرجال حقًّا كأنهم الثيران، ولما أوقفوه لحظة أمام غريم قال له:

- أتعلم يا بن هارباك الــ..

بصق عليه آرتي بصقة كبيرة بلا مقدمات فأوغر صدره من الغضب، فمد يده يمسح وجهه باستياء وأشار إلى العبيد بيده في غضب، فأخذوا آرتي إلى رأس الشيطان وفتحوه حتى شعر بلهيبه يلفح وجهه، وأغمض آرتي عينيه وسلم نفسه، وعلا صوت تراتيل الدم لتبارك أول ضحية تُهدى إلى الشيطان، آرتي ابن الوزير هارباك.

***

لم يكن ممكنًا أن يرسل ذو القرنين أحدًا وراء الخائن، فقد سرق كنزًا من بريقه يغري الأعمى، فمن ذا الذي لا يعرف ثروة كروسوس الذي كان أغنى رجل يمشي على ظهر الأرض حتى هزمه سايروس يومًا وأجبره أن يخرج كنزه من مخبئه، واليوم سلبه منه بغيض يحلم بالسلطة، وأي شر أكبر من بغيض يحلم بالسلطة ويملك المال.

ترك ذو القرنين إيما على رأس المملكة وخرج إلى مغرب الشمس بخمسة آلاف فقط لا يزيدون، فهو يعلم أن الإيونيين قوم جبناء سفهاء، ورجالهم ليسوا كالرجال، وقد أقسم إنه لو عرف أنهم عاونوا هذا الخائن أو هرَّبوه إلى أثينا ليدوسن وجوههم.

ومضى بجنده يتقدم من قرية إلى قرية، وكلما رأى الشمس غاربة في أرض مشى إليها وتجاوزها إلى التي بعدها حتى بلغ أرضًا بيضاء كأنها الثلج وقف عليها هو وجنوده وقفة رجل واحد لا يتكلمون كأن على رؤوسهم الطير، فقد رأوا في ذلك اليوم مشهدًا مهيبًا لا يزال الناس في كل عصر يقفون أمامه هذه الوقفة نفسها لا ينطقون، كأن الكلام أمام هذا البهاء لا يقدر أن يصف جلاله في أي عصر من العصور حتى يومنا هذا.

أرض بيضاء كالقطن، مستوية نحتتها يد ماهرة، تطلع منها تلال براقة بلون السحاب ناصعة كأنها رفوف بعضها فوق بعض، على كل رف منها بركة ماء ساخن يخرج منها دخان أبيض رقيق، والشمس تغرب في كل هذا ببطء كأنما تؤخر نفسها لئلا تغيب ليلة عن هذا الرونق الساحر.

كانوا يشاهدون الشمس تغرب في «باموكالي» أشهر عين حمئة في هذا العالم، ورغم أن الأرض فيها عيون حامئات أكثر من أن تُعد، فإنه لا يوجد منظر على هذه الأرض يكاد يقترب من سحر باموكالي.

ولم يقدر الرجال أن يمنعوا أنفسهم من الاقتراب من هذا الجمال ورؤيته عن قرب ومدوا أيديهم يلمسون ماءه ويحسون دخانه، ثم لما وجدوا أن حرارته محتملة خلعوا أرديتهم ونزلوا جميعًا لم يتخلف منهم أحد، ولم يمنعهم ذو القرنين بل نزل معهم.

ظل الرجال يغمسون أجسادهم في باموكالي حتى غربت الشمس وبدأت الظلمة تهبط على الأفق فخرجوا منها وساروا إلى المدينة البهية التي عند العين الحمئة، مدينة هيرابوليس.

دخلوها ليلًا وهم قابضون على أسلحتهم يتوجسون شرًّا من اليمين أو اليسار، أكواخ صغيرة دائرية مبنية من الطين والقش، نساء هزيلات شاحبات يتطلعن من النوافذ أو يسرن في الدروب أو يدخلن مواشيهن إلى الحظائر، ولا أثر للرجال في المدينة كلها.

النساء هنا صامتات كالقبور تلمع في عيونهن نظرات حزن لو تجمعت عبراتها المتجمدة لتشققت منها الصخور، وإذا كلمهن رجال سايروس نظرن بلا تعبير وأخفضن رؤوسهن إلى الأرض في ذلة.

نزلت فارسات جيش سايروس عن جيادهن وأصبحن يكلمنهن برفق فنطلقت ألسنة النساء، وليتها لم تنطق.

كن يعشن على هذه الأرض حرائر مع أزواجهن وأولادهن حتى نزل عليهم الإيوانيون في ليلة باردة والكل نيام فقتلوا الذكور من الرجال والشيوخ والولدان، فكل من لها زوج مات وكل من كان لها ولد مات، ثم استعبدهن الإيوانيون شر استعباد يمكن أن يفعله بشر، فتعاهدن بينهن أن يحرمن على أنفسهن مخاطبة الرجال، فأصبحت النساء صامتات يعبرن بضعفهن عن قوتهن.

غضب ذو القرنين غضبًا شديدًا وقال:

- ما لي لا أرى للسافلين أثرًا أم أنه لا حضور لهم مع الرجال؟

قالت له إحدى النساء وقد كسرت حرمة الصمت:

- أنت ذو القرنين الذي سمعنا به، ما ظننا أن تأتينا، ولا أن يأتينا أحد من العالمين، فليس عندنا ما يفيد الملوك ولا العبيد.

ظهر على ذي القرنين التأثر شيئًا يسيرًا، فهو يعرف أنه لولا هروب الخائن ها هنا ما جاءهم، فسأل المرأة:

- هل جاءكم باكتيس ذلك المارق الهزيل الذي صعد على ملك ليديا؟

قالت له:

- جاءنا رجل معه أعلاف كثيرة لها رائحة البهائم يغطيها في عربات الخيل، وقد أخذه القوم عندما غربت الشمس إلى كهوفهم تحت الأرض عند العين الحمئة.

انطلق ذو القرنين بجنده على الفور إلى تلك الكهوف المنحدرة في سفوح الجبال حول العين الحمئة ووقف أمامها ووراؤه رجاله، حتى خرج لهم من فوهة الكهف الأكبر رجال ليسوا كالرجال بل أقرب للمسوخ، كان سايروس قد سمع كثيرًا عن قوم إيونيا لكنها المرة الأولى التي يراهم فيها.

وقفوا أمام كهفهم في شعور طويلة ومساحيق ثقيلة تصبغ وجوههم فصارت أقرب للشحوب من أي شيء آخر وهم يرتدون ملابس النساء ويمسكون أسواطًا لا يدري أحد ماذا يجلدون بها بالضبط، ولما لمحوا جيش ذي القرنين استداروا بسرعة ودخلوا إلى كهوفهم فرارًا.

صاح ذو القرنين:

- انزلوا عن هذه الجياد وادخلوا وراء حثالة البشر، وائتوني بالمارق حيًّا.

ونزل الجيش عن الجياد وهجموا داخلين من جميع مداخل الكهوف يتقدمهم ذو القرنين الذي دخل من الكهف الرئيسي والغضب قد بلغ به مبلغه.

لم تكن الكهوف ضيقة بل واسعة وتدخل نازلة إلى الأرض كأن من يدخل فيها يهبط إلى أرض السافلين، ولطالما أشيعت أساطير عن هذه

الكهوف حتى إن اليونان آمنوا أنها مدخل إلى الأرض السفلى هيدس، فيقال إنه لا يدخل لها أحد ويعود حيًا، ولم يكن ذو القرنين يهتم بهذا كله ويعلم أنه هراء بشري لا قيمة له.

كانت الكهوف فقط رطبة تنبعث منها رائحة تضيق لها النفس، لكن ذا القرنين شعر بوهن وهو يمشي ورأى كأن زيغًا أصاب عينيه فنفض رأسه بقوة وأمسك به محاولًا التوازن، ثم سقط قلبه فجعًا.

فأمام عينيه كان رجاله يتساقطون على الأرض تباعًا وهم يمسكون رقابهم في ألم ثم يفتحون أفواههم وتجحظ عيونهم وتميل رؤوسهم إلى الخلف وقد فاضت أرواحهم.

في بضع لحظات فقط كان رجاله يموتون أبشع ميتة في أبشع أرض وسقط سايروس وراءهم على ركبتيه وأرض الكهف تدور في رأسه حتى تخاذلت قوته ووقع على وجهه.

ورغم أن الأساطير التي تشاع عن كهوف هيرابوليس كلها خرافات بالفعل، فإن فيها جزءًا واحدًا حقيقيًا، أنه لا يدخل إليها أحد ويعود حيًا، فهؤلاء القوم كانوا يحمون كهوفهم بأدخنة سامة تقتل كل من يتطفل.

أما هم فيدخلون لكهوفهم الواسعة في كل مغرب للشمس، يعبدون الإلهة الأنثى أم الجبال كوبيلي، ويتجرعون من شراب أحمر يحميهم من سم الأدخنة ويغيب عقولهم سكرًا ليؤدوا طقوسًا شديدة السرية حتى إن العالم لم يعرف عنها حتى اليوم شيئًا يُذكر.

وفي تلك الساعة سقط خمسة آلاف من جنود ذي القرنين موتى، وسقط هو وراءهم ولم يعد في صدره نفس واحد لم يتسمم.

***

سحرة يهزون رؤوسهم ترنيمًا، نار موقدة في فرن على شكل رأس شيطان، أطفال وأكياس سوداء على رؤوسهم، لحن جنائزي مقيت...

كانوا يسحبونه وهو متثاقل إلى الأرض، ورغم أن عينه خافتة فإن رأسه كان مليئًا بالصور والمشاهد التي يذكرها من الماضي، ويقال إن الميت يرى حياته كشريط سريع قبل لحظة وفاته.

وقد كان شريط آرتي حافلًا.

إينارا التي كان يبارزها بالعصي ويتعمد الخسارة وهي تعرف لكنها تضحك لأنها تحب هذه اللعبة.

ساحة الشوجان وانتصاراته المتتالية وهتاف الناس.

ثم تذكرها هي...

لم يكن شخصًا أجوف الروح كما يظن البشر، كانت لديه تلك الفتاة أيضًا في قلبه، بل تملأ قلبه وهو يعلم أنه سيذكرها حينما يموت.

دخلت عالمه الصارم الخشن من أوسع أبوابه، فهي شوجان، وأي شوجان.

كانت تخبئ وجهها باللثام بعد أن أشيع أنها تفوز دائمًا في الشوجان لأنها فاتنة.

كان يحب اسمها، بونيتا وهي.

أمسك أحد الرجال بشعر آرتي بقسوة ورفعه عن الأرض وصرخ فيه يفيقه وهم يدفعونه إلى الفرن، وكان خطأ كبيرًا أن تقطع أفكار آرتي وهو يموت، فقد قبض عضلاته فجأة وجذب أقرب رجل ضخم من السلسلة التي يقيده بها وغرز أسنانه في أذنه بقسوة حتى قطعها ثم تفلها بعيدًا وشفتاه تنفرجان في سخرية، فأمسك به الرجال وتكالبوا

حتى تجمدت حركته تمامًا ودفعوه إلى الفرن المفتوح ووجهه ما زال ساخرًا دون مبرر حقيقي لـ...

ثم توقف كل شيء فجأة، سكتت الترانيم واستدارت الرؤوس كلها بفزع، وانقلب السحر على رأس الساحر، فقد دخل إلى القلعة من كل أرجائها أكثر من مئة شوجان هبطوا من النوافذ أو جاؤوا من الممرات، بل إن بعض السحرة المقنعين رموا أقنعتهم واتضح أنهم شوجان، وارتفعت سيوفهم في وجوه الجميع، وكانت مذبحة.

وبسبب أن جميع المداخل والنوافذ لهذه القاعة هي من الجوانب، فالشوجان كانوا يحتاجون إلى وقت لا بأس به للوصول إلى آرتي وتحريره، لكن وسط كل هذا هبط شوجان شديد البراعة من أعلى فوهة الجبل ليسقط في منتصف القاعة وسط كل الطقوس، وبضربات ماهرة من سيفه الحاد قطع وجوه العبيد الضخام الذين يمسكون بآرتي فتحرر من أذرعتهم وثار كالمارد وربط نصل سيفين في أطراف السلسلة التي تقيده وأصبح يطوح بها يمينًا وشمالًا يحصد الرؤوس.

ونظر من بين هذه الدماء إلى الشوجان البارع الذي هبط من أعلى فوهة الجبل، لقد كانت هي، بونيتا.

كانت هذه المرة الأولى التي يتعلم آرتي فيها من سايروس شيئًا مهمًا، ألا يسير بهوجائية بل يعمل خطة كاملة، وقد لعبها بمهارة فلم يدخل وحده بل أدخل معه عشرين آخرين بالطريقة نفسها التي دخل بها، وعمل نظامًا للمراقبة الكاملة فكل شيء يحدث بالداخل كان يعرف به المتحفزون في الخارج وعلى رأسهم بونيتا التي كان له في قلبها أكبر مما عنده بكثير، وهي التي نظمت هذا الدخول الدامي ليحدث في لحظة اجتماع جميع السحرة ليُتَخلَّص منهم جميعًا في وقت واحد.

وفَكَّ الأطفال كلهم وأخذهم بعض الشوجان إلى الخارج حتى لا يشهدوا المسلخة التي ستحدث في القلعة، وأمسك الشوجان بالسحرة من أقفيتهم وأصبحوا يلقونهم واحدًا واحدًا في رأس الشيطان.

وانفجر غضب آرتي كما لم ينفجر في حياته وأصبح يذبح كل من يعترض طريقه ليصل إلى غريم الذي كان واقفًا في مكانه لا يتحرك ولا يهرب كما هي عادته، فقط وقف كأنما تجمد حتى وقف أمامه آرتي بهيئته الثائرة والدماء التي تلطخ جلده وشعره وابتسم من بين دمائه وقال:

- لا تحاول يا قذر، لقد قرأت الكتب اللعينة، وعرفت.

ظهرت على عين غريم الدهشة لحظة وهو ينظر إلى عشرين من الشوجان يقفون حوله في دائرة كاملة يسدون كل نواحي الهرب، كان آرتي قد عرف أهم سر من أسرار هؤلاء الأنجاس، وهو أنهم لا قوة لهم إلا الوهم، وهو أن يصور لك في عقلك أن ترى صورة بينما أنت في الحقيقة لا تراها، فغريم في كل المرات السابقة كان يطبع صورة في الذهن أنه تحول إلى غراب، أو أنه يقف عند النافذة بعباءته، بينما غريم الحقيقي يكون قد هرب إلى مكان بعيد، وتبقى أنت أسير الصورة التي تنظر إليها.

قال آرتي وعينه تشع كراهية:

- الوهم أيها القذر، الوهم الذي يقدر به الساحر أن يخدع حتى ثلاثة أشخاص يقفون أمامه لكن يستحيل أن يوهم به أكثر من هذا العدد، فلا تحاول هذه المرة.

نظر غريم حوله إلى الشوجان الذين يحاصرونه، والشوجان الذين يرمون أصحابه في النار، وإلى الأطفال الذين يخرجون من الباب، والحفل الشيطاني الذي خرب وانقض، وظهرت على عينه الظاهرة من

القناع أعتى أمارات الغضب، ومد يده وخلع القناع ورآه الجميع لأول مرة بشعره الجعد وعينه العوراء المقيتة التي كانت تختفي وراء القناع.

وصنع منظره الأعور رهبة في عيون الجميع، فهم قد تربوا طوال حياتهم على الخوف منه، لكنهم تمالكوا أنفسهم وشدوا على السيوف أكثر، لكن غريم لم يكن كما يظنون ولا يظن أحد.

ففجأة انطفأت جميع النيران التي في المكان بريح عاتية هبت من جميع النوافذ وهبطت من رأس الجبل وخمدت نار الفرن كأنما لم تكن، ووضع الشوجان أياديهم على أعينهم ليتقوا الريح التي لا يدرون كيف ولا من أين تأتي، ووقع قلب آرتي في قدميه، فقد تذكر الحلم، لكن كان هناك منظر آخر قد شغله عن التفكير في أي شيء، فغريم الذي كان يقف في منتصف القاعة بدأ يرتفع عن الأرض ويعلو في الهواء كأنه شيطان رجيم، وابيضت عينه السليمة تمامًا، فلم يعد فيها بؤبؤ، وواصل صعوده حتى خرج من رأس الجبل واختفت عباءته في سواد الليل.

وبقي الجميع ينظرون إلى كل هذا في ذهول، حتى السحرة الباقون الذين لم يُقتلوا من أصحاب العباءات السوداء والحمراء، الكل فقط كان ينظر إلى رأس الجبل في ذعر.

فهذا الكائن الأعور لم يكن ساحرًا ولا شيطانًا، كان نوعًا آخر من الشر لم يعرفوه، نوعًا لم يكن قد أعلن عن ذاته، بعد.

***

8
جابرسا

روحه تخرج من عقالها وتبلغ نحره، رفع رأسه متهيئًا للموت وأسلم نفسه وفتح فمه، عينه لا تكاد ترى إلا بضعة خيالات تتحرك وتمتزج بلا قيد، كان يعلم يقينًا أنه الموت، ورغم كل ما به من ضعف فإن عقله كان واعيًا كأصفى ما يكون، يشعر حوله بكل همسة، تكالبت عليه الأفكار ولم ترحمه حتى في لحظاته الأخيرة.

عرف لماذا كان يهزم الملوك ويدوس جيوشهم، كان يهزمهم بالغرور، فالمرء إذا سيطر واستغنى طابت نفسه وظن أنها دائمة فاغتر، وكل مغرور يقع من أعلى نقطة وصل إليها غروره فينكسر عنقه.

وهو اغتر وفقد حذره وتخطيطه وفقد معه روحه، تحركت شفتاه بالابتسام كأنه يسخر من نفسه لما وجد أنه حتى في آخر حياته ما زال يفكر بأسباب النصر والهزيمة.

تعادلت الخيالات في عينيه وتمايزت عن بعضها فرأى فيها صورة الخضر بجبته الخضراء التي تريح النفس، إن هذا الرجل هو أجل شيء رآه في حياته القصيرة، بدأت الصورة تتضح أكثر والخضر يمد يده

ويضعها على عنق سايروس الذي بدأت عينه ترى وتميز كل شيء حولها، فرأى إيما واقفة وراء الخضر وعينها قد استحالت حمراء من البكاء واللهفة تقطر من كل عين، ولم يدر إن كان هذا مجرد وهم يراه قبل الموت أم هو حق.

وإن صفا ذهنه أكثر وكف الطنين الذي في أذنه لعرف أنه حق، وإن الخضر الذي أنقذه من الموت طفلًا من براثن ذئب، كذلك اليوم ينجيه ببركة من الله وآية باهرة، وضع نبي الله يده وضرب على صدر ذي القرنين فبرئ وتحلل السم من خلاياه بعد أن كاد يأخذ روحه، ولم يبرأ وحده بل برئ معه بعض جنده الذين لم يتمكن منهم السم الزعاف فلحقهم الخضر قبل أن تفيض أرواحهم.

أدار ذو القرنين رأسه حوله فوجد جنودًا مجندين على جيادهم يرفعون أسلحتهم في تحفز وأمامهم كثير من كهنة إيونيا مقيدين في ثيابهم النسوية وشعورهم كأنهم المسوخ الجربة. أغمض ذو القرنين عينيه وشد عليهما في قوة ليطرد الطنين عن رأسه، لم يدر ما الذي جعل إيما تلحق به بهؤلاء الجند، لربما أنبأها الخضر أو أنبأها قلبها، لكن أفكاره تجمدت عندما قال له الخضر:

- تركتك تخرج من أرضك إلى هلاكك يا ذا القرنين، فأنت ما خرجت لله، بل خرجت لأجل دنيا تصيبها وكنز يفوتك، ودخل في قلبك الكبر والعجب وركبك الغرور بين عينيك حتى هزمك أشباه الرجال، ولو أنك خرجت لله لأعزك الله.

كان كلامًا يجرح أوصال الروح وذو القرنين يسمع وتهتز نفسه، فقال من بين آلامه:

- أليس قد نصرني سبحانه قبل أن أعرفه؟

قال له الخضر:

- كنت يومها تخرج للحق تنصره والظلم تدفعه، أفعندما عرفت الإله الحق خرجت لغير إعلاء كلمة الحق؟

بكى ذو القرنين حتى ابتل قميصه، وقام وقد اغتسلت روحه مما أصابها من العجب بالنفس وتوجه إلى جواده الملكي ونظر إلى تاجه الذهبي مليًا، كم غيَّر هذا التاج من نفوس البشر فلم يعودوا بعده كما كانوا قبله.

ثم أمر حراسه وقال:

- اكسروا هذا التاج حتى يستحيل قطعًا صغيرة من الذهب قسموها على أنفسكم وخذوا ما فيه من الياقوت فوزعوه على المساكين.

فرح الجنود بمقولته لكن دهشتهم غلبت على فرحتهم ولم يملكوا أن يجادلوه فهم يرون حاله.

ثم صعد على جواده ونظر إلى الكهنة المقيدين الناظرين إلى الأرض في ذل ومنظرهم القذر تشمئز له النفس، فقال الخضر:

- يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنًا.

فقال وهو ينظر إلى وجوههم التي مسختها المساحيق وإلى النساء اللاتي احتل القوم أرضهن وقتلوا أهلهن ثم قال:

- أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرًا، أما من آمن وعمل صالحًا فله جزاء الحسنى، وسنقول له من أمرنا يسرًا.

اختار ذو القرنين أن كل من قتل يُقتل، وكل من عذب يعذَّب كما عذب، وكل من آمن بالله وصلح عمله يُترَك ويُعفى عنه، ليس فقط في مدينة هيرابوليس بل في مملكة إيونيا الصغيرة كافة عند مغرب الشمس، وهي مملكة يمكن للمرء أن يدور فيها بجواده من أقصاها إلى أقصاها في

يوم واحد، أما باكتيس الخائن المارق فقد وجده ذو القرنين يختفي بين أشباه الرجال فأمر بأخذه إلى بابل وسجنه.

واستخرج ذو القرنين كنز كروسوس وعاد به إلى بابل، وقبل أن يضع عليه الحراسات والجنود قال له الخضر:

- أتدري يا ذا القرنين؟ إن في هذا الكنز شيئًا لله، فليس كله جواهر وذهبًا.

مشى الخضر إلى مصوغات الكنز الموضوعة بعضها فوق بعض واستخرج منها صندوقًا كبيرًا من ذهب خالص وقال:

- هذه خزانة من زمن آدم النبي، دفعها إلى ابنه شيث ثم إلى يافث الذي دفعها لابنه ياوان أبو الإيونيين الذي أورثها إلى بنيه جيلًا بعد جيل، حتى غزا أرضهم كروسوس وحصل عليها وضمها إلى كنوزه ولا يدري ما هي.

فتح ذو القرنين خزانة آدم فوجد فيها صناديق صغارًا لكل صندوق باب، وفي كل باب حريرة، وعلى كل الحرائر صور لرجال يكاد النور يخرج من ملامحهم، لكل واحد منهم هيئة وهيبة وضياء بين عينيه، فقال ذو القرنين:

- من هؤلاء يا نبي الله؟

قال له الخضر:

- هؤلاء الأنبياء يا ذا القرنين، من آدم إلى قيام الساعة، ولقد انقضى زمانهم كلهم ولم يبق للدنيا سوى اثنين يبعثهما الله بعد هذا الزمان بقرون قليلة، عيسى ومحمد عليهما السلام.

نظر ذو القرنين إلى صورهم البهية وملأ منها عينيه ثم ألقى السلام على عيسى وألقى السلام على محمد، وأعاد الصور إلى خزانة آدم ثم قبّلها ودفعها إلى الخضر.

وبقيت الخزانة في مملكة ذي القرنين حتى غزاها الإسكندر المقدوني وحصل على الخزانة ثم ورثها من بعده الروم جيلًا بعد جيل حتى وصلت إلى هرقل عظيم الروم في زمن النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وقد أخرجها هرقل وأراها للصحابي هشام بن العاص أخي عمرو بن العاص، فرأى فيها رسول الله محمدًا على آخر حريرة وعرف ملامحه في الصورة كما يعرفها في الحقيقة، وكانت من دلائل نبوته.

ومشى ذو القرنين في ساحة قصره ذلك اليوم حتى خرج إلى الشرفة الواسعة ورفع رأسه ينظر إلى موضع الشمس الطالعة في السماء. وتذكر الرؤيا، لقد غدا يومًا إلى غروب الشمس وكان همه في الدنيا، فالآن سيغدو إلى طلوعها وهمه في الله، ودق قلبه بضع دقات من الخوف، فإنه يعلم أن موضع طلوع الشمس يشير إلى مكان فيه هلاكه المحتوم، وهلاك أي إنسان.

***

- ما هذا الذي فعلتِ بالجمال والجياد يا إيما؟

نظرت إلى وجهه القوي وقالت:

- أنت تعلم أين سنسير بهؤلاء، أتترك الخيل هكذا وأنت متوجه بهم إلى جهة مطلع الشمس في الجنوب الشرقي حيث صحراء جابرسا التي لم يجتزها بشر من قبلك ولا يدري أحد ما وراءها؟ ولما دخلت فيها سميراميس بعشرة آلاف رجل رجعت وحدها

ليس معها منهم أحد وغاب عقلها حتى رمت نفسها في محرقة الجثث.

نظر ذو القرنين إلى الجياد التي وضعت إيما على كل جواد منهم أربعة أوعية كبيرة من الماء وجرابًا ضخمًا فيه زاد وطعام جاف يكفي ثلاثة أشهر على الأقل، ونظر إليها وهي تجهز الخيل وتأمر الرجال وتصيح في هذا وذاك. لم يكن يتخيل في أبعد ما وصل إليه عقله أن يتزوج ويحب غريمته في الحرب، لكنها بالفعل تختلف عن أي روح لقيها من قبل. لقد أبلغها في الليلة الماضية أنها لن تخرج معه إلى مطلع الشمس خوفًا عليها فصمتت، وها هي قد جهزت نفسها وتزود الخيل منذ الصباح لتخرج معه.

كانت تنظر إليه بطرف عينها كل حين وهي منشغلة فيما تفعل وتنتظر أن ينازعها حتى قال لها:

- تعلمين أني لا أثق في أحد سواك على هذه المملكة، ولا أقدر أن أتركها إلا لك.

قالت له:

- فأنت تريد أن تموت وحدك.

قال لها بدهشة:

- ما الذي دعاك لهذا القول؟

قالت له:

- ألست في آخر الرؤيا تموت؟

لم يرد عليها، ولم يجادل في الأمر كثيرًا، فقالت له:

- لا تبتئس، إني أعدك ألا أعيقك يا ذا القرنين.

ترك ذو القرنين على رأس المملكة أمه ماندان فهي الغادة المحبوبة التي لا يختلف اثنان في المملكة على حبها، وخرج بجيشه ليدعو إلى الله في أرض يتحاشاها البشر، حتى إنهم لم يذكروها في كتب التاريخ إلا عابرًا، لأن أقوى جيوش الأرض حاولوا أن يتوغلوا فيها ولم يعودوا، وسموها جيدروسيا أو جابرسا.

كان مع ذي القرنين مئة ألف رجل اختارهم من أشد رجاله من خيرة الجند الأشداء، ورغم هذا لم يكن مطمئنًا، فأكثر شيء يكرهه قلبه أن يواجه شيئًا مجهولًا، إن عقليته تبرع كل البراعة في دراسة الخصم والتكتيك لهزيمته، أما الآن فهو يشعر بالشلل فخصمه هو الطبيعة.

ولا ترحم الطبيعة أحدًا وبخاصة عندما تقرر أن تغوص برأسك في أشد أنحائها رهبة، وكانت جيدروسيا صحراء مقدارها حتى تصل إلى منتهاها عند المحيط أكثر من ألف ميل من الرمال والكثبان والجبال والعواصف، وهي التي أصبح اسمها اليوم صحراء مكران بين إيران وباكستان.

وها هي العين تهيم في سماء رملية وهي تحاول جاهدة أن تنظر من بين هذا العصف إلى الجيش الذي يحبو حبوًا على الأرض رغم قوة رجاله وأحصنته الفارسية والعربية، فالأقدام تغرز في الأرض كل خطوة، والشمس تدنو من الرؤوس حتى تكاد تحرقها حرقًا، والحلوق تجف بعد أن يرويها الماء بساعة واحدة، والعرق يغمر الوجوه والرؤوس مغبرة حتى استحال التراب عليها طينًا أسود يكاد يخفي الملامح.

العواصف تهب في كل يوم مرة أو مرتين، والحيات تسكن كل شبر تقريبًا حتى يستحيل النوم إلا بصعوبة بالغة.

لقد كانت صحراء جابرسا تستحق أسطورتها، فما كاد جيش ذي القرنين يتوغل فيها أربعين يومًا حتى بدأ بعضهم يتساقطون عن

خيولهم بلا مقدمات، كأنما قصفت الشمس أرواحهم، واستهلك الرجال أغلب أوعية الماء التي معهم ولم يكملوا في مسيرهم شهرين، وغزا اليأس على الملامح والعيون ونفدت الهمم وتشققت الشفاه والجباه، فرغم كل ما وضعته إيما من الماء فإن شدة الحر كانت تسحبه من الجسد بلا رحمة فتترك الرجل كالجذع اليابس.

ثلاثة أشهر كاملة وذو القرنين يسير بجيشه وينظر إلى الخضر الذي يتقدم الجميع ويصيبه الذي يصيبهم من البأس، ورغم أنه يشعر بالأمان برؤيته فإن مجرد النظر إلى وجوه الرجال ومقدار ما معهم من المياه يجعلك توقن أن هذا الجيش هالك لا محالة، حتى إن بعضهم كان يتوقف فقط لأن عزمه قد فتر عن المسير ويرقد على الأرض بانتظار روحه أن تخرج.

نظر أحد الرجال إلى الخضر وقال:

- أيها النبي، ألا ترى ما حل بنا أم أن معجزاتك وألاعيبك لا تأتي إلا لإنقاذ نفسك وحدك؟

وقبل أن يرد الخضر قالت إيما بصوتها العالي الآمر بنبرة حادة صارخة:

- والله لئن سمعت صوت رجل منكم يعلو بصوته على نبي الله لأقطعن رأسه قبل أن يقتلها العطش.

أصدر الرجل بملامحه تعبيرًا يائسًا ساخرًا وأعرض بوجهه فقال الخضر:

- إنما هي آيات من عند الله يهبها من يشاء من عباده متى شاء.

قال رجل آخر:

- لم ينقذنا هذا الله الذي تتلفظ باسمه ليل نهار، بل أنقذنا في حروبنا كلها هذا الرجل هناك مليكنا سايروس.

هنا أخرجت إيما سلاحها وهمت أن تقطع رأس الرجل لتسكت الأفواه، إلا أن الكل سمع فجأة صوتًا باغت القلوب.

كانت السماء ترعد في عنف، ورغم علو صوت الرعد وضرباته الغاضبة في السماء فإن الأنظار ارتفعت إليه بلهفة قوم يئسوا وجف كل شيء فيهم، فالرعد يعني شيئًا واحدًا لم يكن على خاطرهم، ولم تمض لحظات حتى ارتجفت قلوبهم ودمعت عيونهم لما شعروا بزخات المطر تهطل لتغسل كل الوجوه والحلوق والأرواح.

وأرعدت السماء مجددًا، وتحولت الزخات إلى غيث وافر ينزل بسرعة وكثافة بلا توقف، ثم في لحظة واحدة عرف الجميع أن هذا المطر لم يكن مطر غيث بأي حال، بل مطر عذاب.

فالرمال في جيدروسيا تحت أقدامهم في هذا الموضع تحديدًا لم تكن كثيفة متماسكة، فلما نزل عليها الماء تخلل بين ذرات الرمال وصنع كيانًا كبيرًا من الرمال المتحركة التي تبلع أي شيء له ثقل يدب فوقها، وجيش قوامه خمسون ألفًا بجيادهم كان ثقلًا رهيبًا غطس فجأة في بحر الرمال القاتلة، وبين طرفة عين وانتباهتها وجدوا أنفسهم يغوصون بسرعة، وكلما حركوا أطرافهم ليفروا ابتلعتهم الرمال أكثر وأكثر، ولم يدر ذو القرنين ماذا يصنع، وشُل عقله عن التفكير في أي شيء، فبهذه السرعة من الابتلاع لن تمر بضع لحظات حتى يغرق الكل بلا استثناء، وطل الموت مجددًا من كل جانب.

***

سيوف تقطر منها الدماء الكافرة، وجوه قوية تطل من عيونها لذة الانتقام، قلعة تحترق من ورائهم بنار تأججت من كل النوافذ حتى أضاء لهيبها أفق السماء، صرخات الشر كلها تحترق ويحترق معها تنظيم أذل النفوس وأجهل العقول وأزهق الأرواح وقتل الأطفال، لم يترك الشوجان في قلعة أوتشيسار نفسًا يتنفس، وكان آرتي يمشي وسطهم ساهمًا وعينه لا تكاد تطرف، نظرت إليه بونيتا في شفقة وقالت لتسري عنه وهي تشير إلى القلعة:

- هكذا أنت يا آرتي، لا تقدر أن تدخل مكانًا دون أن تتركه خرابًا.

نظر إليها وقد قطعته من شروده وقال:

- ليت هذا نفع بشيء.

ربتت كتفه وقالت:

- بل نفع، انظر هناك.

أشارت إلى الأطفال الذين يمشون مرتجفين وعيونهم قد خبا منها شعاع براءتها وتجمدت الدموع على أجفانهم الصغيرة فقالت بونيتا:

- لا بد أن إينارا راضية اليوم يا آرتي، فأنت الذي أنقذت كل هؤلاء الأطفال.

تنهد آرتي بكل ما يعتمل في نفسه من أحاديث وسكت حتى دخلوا كبادوكيا في طلعة شمس الصباح، ولم يكن مشهدًا عاديًا على الإطلاق، كل إنسان فقد طفلًا وأهلك نفسه من الحزن، كل أم تقطعت منابت روحها وهي تسمع الذين من حولها يصبرونها بأن الآلهة اختارت طفلها، كل أب قال له الناس إن أرواح الهال الشريرة سرقت فؤاد ولده من بين يديه لأنه لم يعتنِ بربط تلك التمائم على سريره، كل عقل كان

يسبح في أوحال الجهل والتجهيل، كل الأصوات سكتت وطغا على الجو صوت البكاء وتبللت الأرض بالدموع الحارقة.

وكان آرتي بدوره يدمع وهو ينظر إلى وجوه القوم الذين عادت إليهم فلذات أكبادهم ولا يملك لنفسه شيئًا، فأعرض بوجهه ولم تنجح بونيتا في تهدئته على الإطلاق، فما بداخله لا يحتمل أن يمسه أحد ولا أن يحاول كبته.

***

تحرك آرتي ووراؤه الشوجان خارجين من ليديا متوجهين إلى عاصمة المملكة في بابل، وبينما هم يوغلون في الطريق إذ ظهر من بين الظلمات فارس ذو هيئة معروفة وقناع أسود يعرف كل من يراه أنه يحمل رسالة عاجلة شديدة الخطورة، وبالفعل أخرج لهم الفارس رسالة مختومة من الملكة ماندان تقول فيها أمرًا جللًا، لقد حدثت ثورة عارمة في أنحاء البلاد لم تدع قرية إلا طالتها، ثورة يدعمها الكبار والكهنة والسحرة بأموالهم وجنود سفلة مرتزقة.

أفاق آرتي من كل شيء وسأل الرسول بسرعة:

- أين سايروس؟ لماذا هذه الرسالة من ماندان؟

قال له الرسول:

- إن الملك سايروس والملكة إيما خرجوا إلى جيدروسيا منذ أسبوع واحد.

فُجع قلب آرتي من سماع هذا أكثر من سماعه للخبر الأول، فالذاهب إلى جيدروسيا لو عاد حيًا لن يعود قبل شهور، والشياطين علمت هذا فأسرعت بالتسلق على العروش. وكانت صدمة للجميع.

تحركت العين مغادرة المكان تاركة إياهم في صدمتهم وتوجهت بسرعة خاطفة إلى القصر الملكي في بابل حيث كانت ماندان واقفة تهيم في مشاعرها تنظر من نافذة القصر في حزن وترقب، البلاد على شفا حفرة من السقوط، تذكرت ذلك الشعور الذي أتاها لما رأته من ظهره في ذلك اليوم يغادر مع إيما، يومها شعرت في قلبها بأنها لن تلقاه ثانية، وسقط دمعها على مجراه القديم في وجنتيها ثم انتبهت فجأة ونظرت وراءها في فزع.

- أليس قد طال الأمد ولم نلتق؟

كان ذلك صاحب الوجه البغيض والقناع البغيض غريم ينظر إليها بعين تحدق في ثبات، فارتجف كيان ماندان وتذكرت يوم أن كانت تركض تجر حملها فرأته واقفًا على رأس الجبل ولم تدر ما هو، ولم تدع ماندان نفسها للذكريات بل أخرجت من حزامها الملكي خنجرًا أنيقًا أمسكت به ويدها ترتعش، وما كانت ماندان يومًا محاربة ولا تدري كيف تقتل أو تضرب، فقط اندفعت ناحية غريم صارخة ترفع بالخنجر.

وأبطأت العين صورة المشهد وماندان تندفع وغريم واقف يمد يده إلى خنجره، ثم فجأة اتسعت عين ماندان في فجع ودهشة وهي مندفعة، فلم يعد غريم أمامها بل خلفها، ويده ما زالت تمسك بالخنجر لكنه يدخله إلى غمده، ولم تطل دهشة ماندان أكثر من لحظة واحدة سقطت بعدها على ركبتيها وانفصل رأسها عن جسدها وتدحرج على الأرض.

ورغم أن العين أبطأت حركتها فهي لم تلتقط حركة غريم التي كانت أسرع حتى من نظرات البشر، وسقطت في هذا اليوم رأس ماندان الغادة الحنون على أرض قصرها وتحقق شعورها الأخير الذي شعرته، أنها لن تلقى ولدها مجددًا، وأن تلك اللحظة التي رأته فيها من ظهره هي آخر عهدها به، وعهده بها.

واستدارت العين تخرج من المكان عبر الباب لتصور لك حرس القصر في الردهة كلهم ساقطون على الأرض مقطوعو الرأس، لقد قرر غريم أن يظهر للجميع ذلك الوجه الآخر الذي لم يره يومًا لأحد.

***

إن طبيعة الرمال المتحركة هي طبيعة شديدة التعقيد، خلاصتها أن حبات تلك الرمال تكون متباعدة جدًّا مما يجعلها تبلع الماء الذي يدخل بين حبيباتها فتصنع نسيجًا طريًّا يبتلع أي شيء له ثقل، ولو كانت عميقة كفاية فهي قاتلة للبشر ولا مهرب منها على الإطلاق، وهذه المنطقة من جيدروسيا كانت رمالها المتحركة عميقة جدًّا بعمق وادٍ سحيق، لذلك بدأت تسحب الأجساد إليها بسرعة وكان أسرع شخص موتًا هو أكثر شخص حركة.

نظر ذو القرنين إلى السماء التي ترعد بقوة من فوقهم وتصاعدت دقات قلبه بسرعة، أصوات صراخ الغارقين حوله تتزايد، وهي نوع من الصرخات يبدأ عاليًا متسارعًا ثم ينكتم فجأة كأنما يخرج من تحت الأرض ثم يغيب، أدار رأسه إلى إيما التي كانت تنظر إليه مشدوهة ترتجف عينها وتترك نفسها تغوص بلا مقاومة، لم يعرف أي تعبير بملامحه ينبغي أن يعطيها، فنظر إلى عينيها في أسى وتنهد وأغمض عينيه وترك نفسه يغوص.

ثم توقف كل شيء في لحظة واحدة، كفت أجسادهم عن الغوص ووجدوا أنفسهم مغمورين في الرمل حتى صدورهم، كانت الرمال قد ابتلعت نصف الجيش أو أكثر فتماسك أسفلها وتوقفت عن ابتلاع المزيد، ثم سكن الجو وهدأت رعدة السماء وتباطأت الريح وتوقف المطر، حاول ذو القرنين تحريك أي طرف من أطرافه ليخرج نفسه من الرمل لكنه لم يقدر، فشد على نفسه وقبض جميع عضلاته ليتحرك أي حركة لكن

هذا كان مستحيلًا، فالقوة التي تحتاج إليها لتحريك طرف واحد من أطرافك بعد أن غطس في الرمال المتحركة هي القوة التي تحتاج إليها لرفع سبعة أحصنة.

كثير من رجاله ماتوا من الفجع قبل حتى أن تبلعهم الرمال، والبقية كانت تصدر منهم صيحات ألم قاسية، فهناك شيء جديد أضيف إلى المعادلة وهو سخونة الشمس التي توسطت كبد السماء وتسلطت على الرمال فأصبحت تسخنها رويدًا رويدًا.

كانت جيدروسيا لا ترحم، بل تقتل بطرق شنيعة متعددة، وفي هذه المرة تركتهم للحمى يلتهبون فيها ولا يقدر أحدهم على تحريك إصبع واحدة، ومن وسط كل هذه الأصوات الصاعدة بالآلام كان هناك صوت دعاء صادر من خير خلق الله تعالى في ذلك الزمن، نبي الله الخضر الذي رفع رأسه ناظرًا إلى السماء ودعا وسط هذه الرمال بأعجب دعاء حيث قال:

- اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب.

وأخذ يكررها ويكررها وسط صراخ المعذبين حتى برقت السماء وهلت بشارات المطر الذي بدأ ينزل برفق في قطرات رقيقة هبطت على الرمال فغيرت من تركيبتها مجددًا فخفت صلابتها وتمكن الرجال من تحريك أطرافهم فصاح بهم ذو القرنين محذرًا:

- لا تتحركوا لئلا تموتوا.

صاح بكلمته هذه ونقلها القريب إلى البعيد فتوقف الجميع عن الحركة، وأوصل ذو القرنين رسالة إلى آخر شخص عند طرف الرمال المتحركة أن يتحرك ببطء شديد ويخرج نفسه من الحافة ثم يسحب الذي بجواره، وأمر الرجال أن يمسكوا بأيدي بعضهم بعضًا ويتركوا الأحصنة فيُخرجوا من نجا منها في النهاية.

واحتاج جيش ذي القرنين إلى ساعات طوال ليخرج نفسه من هذه الكارثة الأرضية، كل فيلق يخرجون أنفسهم من أقرب نقطة إلى الحافة، حتى خرج ذو القرنين وهرع إلى إيما ليسحبها، فخرجت وهي تنظر إليه والتراب يغمر رأسها ووجهها وقالت:

- لقد كذبت عليك.

نظر إليها ذو القرنين متسائلًا فقالت:

- قلت لك إنك ستموت، لكني كنت موقنة أنك ستنجو حتى وإن متنا جميعًا.

قال لها ذو القرنين:

- وما الذي منحك هذا اليقين كله؟

قالت:

- ألست أنت المخلص الذي ذُكر في الكتاب؟ هل ستموت ميتة مثل هذه؟

نظر ذو القرنين حوله وقال بلهجة لا تدري أسخرية هي أم أسى:

- نعم، لا بد من ميتة أكثر بشاعة.

ضحكت إيما حتى سعلت من التراب، ولم تتهيأ الشمس للغروب في ذلك اليوم إلا وقد سقط الجيش كله على الأرض منهكين يتجرعون ما بقي من آلامهم، نظر ذو القرنين إلى رجاله فوجد أن ليس معه أكثر من خمسة عشر ألف رجل وخمسة آلاف حصان، وهذا يعني أن تسعين بالمئة من رجاله هلكوا.

أصابه هذا بالهم الذي أثقل فؤاده وأصبح يتشاغل بالنظر حوله والتفكير، أتكون جيدروسيا جرداء كلها ليس بها أحد يدعوه إلى الله؟ أيكون هذا كله بلا جدوى؟ لكن منَ ذا الذي يسكن في موضع كهذا من

الأرض لا يمكن أن يصل إليه بشر؟ جاءته الإجابة عاجلًا غير آجل، رآها عند خط الأفق.

فهناك على امتداد الأرض السوداء شرقًا وغربًا، كان يقف رجال سود الملابس، جهم الوجوه، يركبون جيادًا قوية صهباء ويحملون سيوفًا سوداء طويلة، كانوا في وقفتهم هذه أكثر من سبعين ألفًا يستعدون للهجوم ولم يكن مع ذي القرنين أكثر من عشرة آلاف من الرجال منهكين، خارت قواهم وفترت عزائمهم وكثير منهم بلا أسلحة.

***

9
الخالدون

بعد الحرب مع الطبيعة التي لا ترحم، عاد ذو القرنين إلى الحرب التي يبرع فيها ويسطع نجمه، غير أن معضلته هذه المرة كانت في الوقت الذي لا يملك منه شيئًا، فمظهر أصحاب الرداء الأسود العدائي ورفعهم لسيوفهم في تحفز، يعني أن المعركة ستبدأ خلال دقائق معدودة.

لا وقت حتى ليضع خطة ذات قيمة، ومما زاد من الخطورة أن نبي الله الخضر اقترب منه وقال:

- يا ذا القرنين إن هؤلاء قوم ظالمون فلا تُلن لهم القول، فإن وراؤهم قومًا يؤمنون بالله لا يشركون به شيئًا حتى جاء هؤلاء الظلمة وغزوا أرضهم وأذلوهم.

لم يضِع ذو القرنين ثانية واحدة في التفكير بل أرسل واحدًا من قادة جيشه إلى أصحاب الرداء الأسود ليعرض عليهم الإسلام أو الحرب، وأوصاه أن يطيل معهم الكلام قدر ما يستطيع وأن يماطل حتى يمل قائدهم ويقرر أن يهجم حتى يتخلص من المماطلة.

وبالفعل ذهب القائد إلى أصحاب الرداء الأسود وبدأ يتحدث معهم ويجادل، وبدأ ذو القرنين في التفكير، كان يحتاج إلى كل دقيقة ليشحذ عقله ويخرِج منه كل بداهته بأسرع وقت، وهذه المرة لم يكن يفكر وحيدًا بل كانت معه إيما، وهذا يعني اجتماع عقلين كانا سابقًا متحاربين يسعيان ليفني أحدهما الآخر ثم اتحدا في هذه اللحظة، ولم يكن هذا في مصلحة أصحاب الرداء الأسود قط.

وبعد محاورة ومساجلة بين ذي القرنين وإيما توصلا إلى شيء بدآ في تنفيذه على الفور وأصبحا يقسمان الجيش هذا هنا وذاك هناك، حتى جاء قائد جيش ذي القرنين من عند أصحاب الرداء الأسود وصنع بيده إشارة على رقبته مثل الذبح، ففهم ذو القرنين أنها الحرب لا محالة، وأنها ستبدأ في التو واللحظة.

كان قد أمر رجاله أن يركب كل اثنين منهم على حصان واحد، وكان لديه خمسة آلاف حصان جعلهم على قسمين، قسم في اليمين فيه ألفان وخمسمئة حصان، وقسم في اليسار مثله. وبما أن كل حصان يحمل فارسين فهذا يعني خمسة آلاف رجل يمينًا ومثلهم يسارًا.

والمشاة في المنتصف لا يركبون أحصنة وعددهم خمسة آلاف رجل.

نظر قائد جيش الخصم إلى هذا التقسيم العجيب وانتظر هجومًا بطريقة تناسب غرابة هذا التنظيم، لكن ذا القرنين فعل شيئًا لا يصدق أحد أنه يمكن أن يفعله، إذ استدار معطيًا ظهره لجيش العدو وصرخ بأعلى صوته:

- اهربوا..

ولقد هرب جيشه بالفعل لكنه لم يهرب بطريقة معتادة قط، بل وجد أصحاب الرداء الأسود أن جيش ذي القرنين قد انقسم إلى ثلاثة وهرب بطريقة عجيبة.

الأحصنة التي كانت على اليمين هربت إلى اليسار، والأحصنة التي كانت على اليسار هربت إلى اليمين، يعني هربت الأحصنة في خطين متقاطعين.

وهرب المشاة كلهم إلى الخلف. وفي بدء تحرك الأحصنة للهروب صنع الفرسان الذين عليها حركة بارعة، إذ انحنى كل واحد إلى بطن حصانه ومد درعه ليحتك بالرمال، فأصبحت الأحصنة تهرب ودروع فرسانها تحتك بالرمال. وهذا الهروب المتقاطع بهذه الطريقة مع احتكاك دروع عشرة آلاف فارس بالرمال صنع سحابة غبار ضخمة كثيفة في الوسط أعمت عين الخصم تمامًا عما يدور وراءها.

توقف قائدهم برهة ينظر إلى هذا الهروب الغامض ثم أمر جيشه أن ينقسم ثلاثة أقسام بدوره، قسم لحق بالذين هربوا إلى اليمين، وقسم لحق باليسار، وقسم في المنتصف انطلق ليخترق السحابة الرملية ويلحق بالمشاة.

كان المشاة في أسوأ وضع لأن حركتهم بطيئة مقارنة بالذين يريدون اللحاق بهم من خلفهم، والسحابة الرملية ساعدتهم قليلًا وعطلت الخصم، لكن الذي دعم مشاعرهم أكثر هو أن ذا القرنين نفسه كان يقف على قيادتهم.

إن انقسام جيش الخصم إلى ثلاثة هكذا جعل على كل قسم خمسة وعشرين ألف فارس عدو، ولما نجح الآلاف الخمسة وعشرون الذين في المنتصف من اختراق السحابة الرملية بصعوبة بالغة فوجئوا بالمشاة من جيش ذي القرنين قد صنعوا تشكيلًا حربيًا بالغ الخطورة يدعى التشكيل السلامي تعلمته إيما من حروبها مع اليونان.

حيث يتكدس المشاة كلهم في مربع واحد ويرفعون رماحهم التي تبدو مثل الدبابيس الخارجة من المربع على جميع زواياه، وأخطر شيء

أن تواجه هذا التشكيل وأنت تنطلق بأحصنتك وعيونك عمياء لا تراه، فهو وقتها سيصبح بالنسبة إليك مثل فخ الشوك المميت الذي ينغرز في بطون الأحصنة ويهلكها على الفور.

لكن هذا التشكيل ينجح فقط إذا كان العدد متقاربًا، أما هنا فلدينا خمسة وعشرون ألفًا يهجمون على خمسة آلاف مشاة، فلم ينجح هذا التشكيل إلا في قتل خمسة آلاف من أحصنة الخصم في ضربة واحدة، وبقي عشرون ألفًا غاضبين يضربون المشاة المتكدسين في هذا التشكيل محاولين اختراقهم.

لكن الخدعة لم تكن هنا كعادة ذي القرنين، بل الخدعة في مكان آخر لا يتوقعه أحد على الإطلاق.

كانت الخدعة هناك عند الأحصنة التي هربت يمينًا وشمالًا وكل فيلق منهم يركض وراءه خمسة وعشرون ألف فارس من أصحاب الرداء الأسود على أحصنتهم، بينما فرسان ذي القرنين يهربون بسرعة عالية على أحصنتهم وهم يضعون دروعهم في الرمال ليصنعوا وراءهم سحابة تعمي الرؤية.

وظلت المطاردة طويلًا بسبب هذه السحابة الرملية حتى نجح أصحاب الرداء الأسود في اللحاق بالهاربين في اليمين واليسار، لكنهم جميعًا فغروا أفواههم متلقين صدمة حياتهم عندما وجدوا أن الأحصنة التي كانت تهرب وعلى كل واحد منها فارسان هي في الواقع ليس عليها أي فرسان، بل كانت تهرب فارغة وعلى مقدمة قطيعها قائد واحد يرفع لهم يده محييًا.

والحقيقة أنه في اللحظة نفسها التي هرب فيها الفيلقان المتقاطعان يمينًا وشمالًا وفور أن بدأ قسمان من أصحاب الرداء الأسود يلحقونهما، استغل الفرسان عجاج السحابة الرملية وأبطؤوا من أحصنتهم قليلًا ثم

قفزوا منها ببراعة وتركوها فارغة تقود أصحاب الرداء الأسود وراءها بعيدًا جدًّا.

وقام الذين قفزوا من الأحصنة من الرمال وانطلقوا يرفعون سيوفهم هاجمين من الجناحين على الآلاف العشرين الذين يحاولون اختراق الكتلة المتكدسة في المنتصف فطوقوهم تطويقة الحرب التي يحبها ذو القرنين وأفنوهم على الفور.

ولم يكتفِ جيش ذي القرنين بهذا بل ركبوا أحصنة الخصم المهزوم وارتدوا رداءاتهم السوداء وانطلقوا يمينًا وشمالًا يلحقون بالفيلقين المخدوعين اللذين كانا لا يزالان يحاولان اللحاق بالأحصنة الفارغة قبل أن يكتشفوا الخدعة.

ووجد هؤلاء أن زملاءهم يلحقون بهم من ورائهم برداءاتهم السوداء وأحصنتهم السوداء وهم يرفعون لهم سيوفهم السوداء، فاعتقدوا أن جيشهم قد انتصر ولحق بهم ليساعدهم في مطاردتهم.

ففوجئوا بمفاجأتين كل واحدة أقسى من أختها، الأولى أن الجياد التي كانوا يطاردونها فارغة ليس عليها فرسان، والثانية أن الفرسان الذين كانوا عليها منذ قليل أصبحوا وراءهم يضربونهم مرتدين زي زملائهم.

وفي الحروب من يضرب من الخلف هو الذي ينتصر دائمًا ولو كان خصمه يفوقه بعشر مرات، فالجندي حتى يستدير يحتاج إلى وقت يكفي خصمه الذي وراءه ليقطع رأسه ورأس عشرة بجواره.

وانتصر ذو القرنين مجددًا ببراعة فائقة مثل كل مرَّاته القديمة، ومشى بجنوده الذين غنموا الكثير من الأحصنة والسلاح حتى بلغوا أسوار مدينة أقصى مطلع الشمس، وكان اسمها جابرسا.

لم يكن بعد هذه الأرض منتهى يسكنه بشر، فهي أرض في أقصى أسفل القارة الآسيوية عند المحيط الهندي فليس بعدها أرض معمورة على الكرة الأرضية، إلا القارة المتجمدة غير المأهولة في الجنوب.

وأمام أسوار جابرسا وقف ذو القرنين وقوفًا طويلًا هو وجيشه، ليس بسبب أن شيئًا ما اعترض طريقهم، بل وقفوا رغمًا عنهم، فما كنت تقدر أن ترى جابرسا ولا تقف. ليس لجمال فيها أو سحر، بل لشيء آخر تمامًا.

***

جنازة مهيبة في إكباتان خرج لها جميع الشعب حبًّا وليس نفاقًا كتلك الجنازة القديمة التي شيعوا فيها الطفل المأكول،

جنازة خرجت رغم المرتزقة الذين احتلوا القصر وجثموا على صدر الدولة وأوغروا صدور الشعب الذي كان على شعرة من الغضب، ولو أنهم لم يتركوه يشيع ملكة القلوب ماندان لأحدثوا ثورة أكبر من ثورة المرتزقة، فهي أم الملك الذي لم يروا على الأرض رجلًا مثله.

ولما وصلت الأخبار أنه ذهب إلى جيدروسيا يئس الناس وأصابهم الإحباط، فمن ذا الذي يمشي إلى جيدروسيا ويعود حيًّا؟ شعروا أنه كان أسطورة في حلم جميل، أو كنجمة في السماء بزغت وأنارت ذات ليلة ثم غابت ذات ليلة.

كان آرتي وبونيتا يمشيان ملثمين بين الجموع حتى لا يرصدهما أحد وسط الجمع الغفير من البشر، فالجنازة أتى لها الناس من المدن المجاورة، الورود تُنثَر على الأرض كالجنازة القديمة لكن بدل أن تكون ماندان في العربة الملكية تبكي أصبحت هي التي في التابوت وأمم من البشر تبكي عليها.

- أنا الذي قتلتها.

نظرت بونيتا إلى آرتي الذي قال هذه الكلمة بصوت هامس محتقن من وراء لثامه فقالت له:

- بل قتلها الشيطان.

قال آرتي بصوت خفيض:

- كان سايروس محقًا عندما أتيته بالملك في شوال، أنا أهوج شديد الرعونة، بينما هو كان يستعمل الحكمة مع هؤلاء السحرة ويكف أيديهم عن مفاصل الدولة شيئًا فشيئًا، أما أنا فقد ذهبت وأحرقتهم جميعًا عن بكرة أبيهم، ما الذي كنا ننتظره غير هذا؟ لقد قتلت ماندان ولا أحد قتلها غيري.

وضعت يدها على كتفه برفق وقالت:

- لو كان سايروس هنا لأثنى عليك فقد أنقذت الأطفال وأسقطت هيبة السحرة من نفوس الناس، فأظهروا اليوم الوجه الحقيقي الذي كانوا يخفونه وراء أقنعتهم.

رأته يبعد وجهه إلى الناحية الأخرى، كان يمسك بكاءه كما هو واضح لكنه غلبه، فقالت بونيتا بجدية:

- سنذهب لقص رأس الشيطان يا آرتي.

قال آرتي:

- لا فائدة في هـ...

قاطعته بونيتا بغضب دون صوت عال:

- اسمع يا آرتي، إن كنت ستسترسل في هذا الندب فسأذهب وحدي، وإن كان غريم قد تمكن منك لأنك بليد فلن يقدر عليّ أنا.

لمعت عين آرتي بالغضب ونظر إليها بحدة من وراء اللثام وقد جف دمعه، فابتسمت هي وقالت:

- هذا آرتي الذي أبغيه.

رمقها بنظرة ذات مشاعر متضاربة لا يحسن التعبير عنها، فقالت:

- لقد عرفت ماذا سنصنع، ولو أنك سمعت ما أقول سنسترد العرش من الشيطان ونطرد هؤلاء المرتزقة في بضعة أشهر.

وفوق تلة في إكباتان اعتادا أن يجلسا عليها تحت ستارة الليل ونور النجوم قال آرتي:

- تريدين التسلل إلى عرينه؟

قالت بونيتا:

- أنت تظن أني طائشة أفكر مثلك، لو أننا تسللنا إلى عرينه لنقتله فهو ليس شخصًا بشريًا عاديًا ولا ندري ما يفعل بنا، فهو لم يعد يتحول إلى أشياء ويهرب بل أصبح عدائيًا، لقد قلت لك إني تسللت بنفسي وسط النساء اللواتي يجهزن تابوت ماندان ورأيت الطريقة التي قطع بها رأسها، إن موضع القطع منتظم كأنه قد ضربها سياف بساطور مسنون، فانس فكرة الاقتراب من غريم لأني أعلم أن عقلك يتجه إليها كالمحموم.

قال آرتي وقد بدأ أسلوبها يضايقه:

- وأي فكرة أجدر من هذه بعد أن أصبح الجيش كله معه، والواحد منهم يخاف أن يعصيه، فقد أضحى أسطورة شيطانية في عقول الشعب منذ الصغر يتحاشون مجرد النظر إليه.

قالت له بونيتا:

- ربما هو يملك الجيش، ويملك العرش، ويملك الشياطين، لكنه لا يملك الشوجان.

وظهرت لمعة الفهم على عين آرتي على الفور دون أن تكمل.

فالشوجان أقوى فصيل في هذا البلد، وهم أولاد النبلاء لأن الشوجان لعبة النبلاء أصلًا، وكثير من الأغنياء الذين دعموا ثورة المرتزقة لهم أولاد بارعون في الشوجان، وهم أقرب أصدقاء آرتي، وكان منهم جنود في الجيش بل هم أكفأ جنود الجيش، ولاعب الشوجان يكون ولاؤه للشوجان أكبر من ولائه لأي شيء آخر، فهي لعبة شعبية يحصل فيها الفتى على الشهرة وحب الجموع كبيرهم وصغيرهم ويحصل فيها على تأييدهم وذهبهم وأموالهم التي لا حصر لها خصوصًا في الرهانات، وهذا أهم عند أي شاب من العائلة أو المنصب في الدولة، وابتسم آرتي.

مرت بونيتا وآرتي على كل بلدة وضاحية من بلاد ميديا وفارس إلى بابل وليديا يجمعون الشوجان، واستغلا شهرتهما العالية في الشوجان بميديا وفارس وحبهما الذي نما إلى القلوب بعد إنقاذ الأطفال في ليديا، وكانت فرصة للشوجان ليس لها مثيل، أغراهم آرتي بأنه زيادة على الشهرة والمال والحب في قلوب الشعب، سيكون لهم السلطة العليا تحت الملك مباشرة وسيتضاعف بهذا حبهم في القلوب وأموالهم ومكانتهم.

وفي أقل من ستة أشهر، تكونت فرقة عسكرية فارسية من عشرة آلاف فارس لها اسم مخيف اشتهر في التاريخ الفارسي باسم فرقة إيمورتال، الخالدون.

***

سور أخضر عالٍ تحتاج أن ترفع رأسك حتى ترى نهايته، وليس هذا ما أوهم عين الجميع، لكن أن ذلك السور الأخضر العالي لم يكن مصممًا

كبقية أسوار العالم، بل إن كل قطعة طولية فيه منحوت عليها باب أصفر بلون الذهب، ألف باب على الأقل يصطفون متجاورين على طول السور المحيط بالمدينة، وكل الأبواب لها سمت واحد كأنها استُنسخت من بعضها بعضًا.

كانت طريقة عجيبة للحماية لم يشهد مثلها أحد قبل ذي القرنين ولا بعده، ولما رآها أذهلت عقله الفذ وتحرك متوجهًا لها، لكن الخضر قال له بحزم:

- لا تتحرك خطوة واحدة، فإن واحدًا من هذه الأبواب يفتح والبقية ليست أبوابًا، بل هي واجهات عليها سمت الأبواب وقفلها ورسمها لكنها مصمتة ليس فيها آلية للفتح، وإن القوم يرونكم من ورائها، ولو شعروا أن جيشهم انهزم لن يفتحوا أبدًا.

نظر ذو القرنين إلى إيما ودون أن يقولها فهمتها فقالت بصوت عالٍ:

- قدموا الأحصنة السوداء إلى الأمام وعليها الفيلق الذي ارتدى السواد منكم، فيظن حرس هذا السور أن قومهم غلبوا وجاؤوا بنا أسرى.

وفي حركة واحدة تقدم الفيلق الأسود وتخلف الباقون إلى الوراء، وتقدم الجيش بهدوء واثق، وفور أن اقتربوا من السور إذ انفتح أحد الأبواب بغتة وظهر وراءه حارس حاد الملامح لم يكد ينظر حتى رُشق في عنقه سهم أرداه قتيلًا، وكعادة ذي القرنين في استغلال لحظات المفاجأة كان جنوده أسرع من الحرس فدخلوا من البوابة ولم يحتج الأمر منهم إلى كثير من القتال، فالحرس رموا أسلحتهم مذعنين في هزيمة لما عرفوا أن جيشهم قد انسحق عن آخره.

ودخل جيش ذي القرنين إلى جابرسا بلاد مطلع الشمس وهو ينظر حوله في تعجب، بيوت صغيرة متكدسة يشع من بينها الفقر والحاجة، والقوم فقراء هربوا ذعرًا إلى بيوتهم حينما شاهدوا الأحصنة السوداء

تمشي في طرقات المدينة، عيون تنظر في رعب وقلة حيلة من وراء أستار البيوت.

مضى ذو القرنين يمشي في مدينتهم حتى دخل إلى ضاحية تظن لما تراها أنك انتقلت من حال إلى حال رغم أنك لم تمشِ سوى خطوتين، قصور عالية وشرفات وأزهار وعواميد مزخرفة ولباس حسن يغلب عليه اللون الأسود، وفهم ذو القرنين الأمر كله قبل حتى أن يدخل إلى تلك الضاحية.

كان أصحاب الرداء الأسود قد ربضوا على مدينة جابرسا كالعلقات الكريهة وامتصوا خيرها وأكلوا قوت أهلها واستعبدوهم وتركوهم فقراء لا حيلة لهم، بينما هم يتكئون في شرفاتهم ويطعمون دوابهم طعامًا لا يكاد يحلم به الفقراء.

لم يكن هناك شيء قادر على وصف الكدر الذي استعمر صدر ذي القرنين حتى ضاق به وظهر جليًّا على عينيه اللتين خرجت من إحداهما دمعة قهر ثقيلة سقطت على خده سرعان ما أزالها وقال بصوت حازم يملؤه الغم:

- أشعلوا النار.

ولم تمض الساعة حتى أشعل رجال جيشه النيران وأمسكوا المشاعل في أيديهم ورفعوها في حركة تحذيرية معروفة عند الممالك القديمة، مفادها أنكم إن لم تخرجوا فسنحرق هذه البيوت.

وخرج كبراء أصحاب الرداء الأسود من البروج التي استعلوا بها على خلق الله وقد أحنوا رؤوسهم في خنوع، ورفع ملكهم رأسه إلى ذي القرنين يقول له:

- أتخرِجنا من أرضنا وديارنا وقد ملكناها وتغلبنا على هؤلاء بشريعة الحرب؟

قال له ذو القرنين:

- إنما الأرض أرض الله فإن لم تحكم فيها بالحق والعدل فلست أهلًا حتى لتمشي عليها بقدميك.

ووقف أصحاب الرداء الأسود كبارًا وصغارًا بشيوخهم ونسائهم ينتظرون حكم الله فيهم فقال الخضر له كما قال في مغرب الشمس:

- يا ذا القرنين إما أن تعذِّب وإما أن تتخذ فيهم حسنًا.

نظر ذو القرنين إلى وجوههم التي غلب سواد طلعتها على سواد ردائهم وقال وعينه ثابتة عليهم وردد:

- أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرًا، وأما من آمن وعمل صالحًا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرًا.

رد ذو القرنين مظالم المظلومين، وكل من ضرب أو قتل أو حرق أو أهان أو اغتصب ندم في ذلك اليوم أشد الندم، وذاق من عذاب الدنيا ما جعل بعضهم يبلغ صراخه عنان السماء.

وجاء كبير جابرسا وشيخها ووراؤه أشراف قومه الذين غصبت هذه العصابة أرضهم، وهم معروفون في التاريخ باسم العرب البلوش، وقال لذي القرنين:

- إنا قد علمنا بك يا ذا القرنين قبل أن تأتينا، بل قبل أن تولد.

استعجب ذو القرنين من كلمته فتبسم الرجل وقال:

- إننا عرب يا ذا القرنين، نحن بقية من المؤمنين من قوم صالح، أخذتنا مسيرتنا في الأرض إلى هذا المكان فوضعنا رحالنا وبنينا مدينة تحمينا وسورناها بذلك السور، وتعاقبت أجيالنا في جابرسا حتى علمنا ببعثة إبراهيم فآمنا به ومن بعده موسى

فآمنا وصدقنا، حتى خرج من بيننا رجال سوَّد الله قلوبهم أخذوا خيرنا وحكمونا بالحديد والنار، وإنا قد قرأنا في التوراة أن الله سيبعثك بعد أن يؤخذ اليهود إلى بابل فتجفف أنهارها وتكسر شوكتها وتعيد اليهود إلى الأرض التي طردهم الله منها، ثم تبلغ في الأرض غربها وشرقها تدعو بدين الله.

بدا التأثر على وجه ذي القرنين وقال:

- فهل يحييني ربي لأبلغ بدينه جميع أركان الأرض؟

خشعت عين كبيرهم وهو يقول:

- كل ما تسير به يا ذا القرنين مكتوب، فلن تبلغ من الأرض إلا ما كتبه الله عليك، وليس يشرق بنور هذا الدين في أركان الأرض كلها إلا ختام الزمان النبي الأحمد الذي بشرت به التوراة، فيبلغ بهذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل.

نظر ذو القرنين إلى الأرض وهو يتمتم بصوت خفيض: «فعليه مني الصلاة والسلام» ثم نظر إلى الخضر وقال:

- فأين المسير يا نبي الله؟

قال الخضر وهو يشير إلى السماء:

- إلى القمر.

قال ذو القرنين:

- فأين يكون منتهاه الذي هو منتهاي؟

نظر إليه الخضر بتلك العين الثاقبة التي يملكها وسكت مليًا ثم قال:

- ستعلمن نبأه بعد حين، أما أنا فإني أفارقك هنا يا ذا القرنين، وربما ألقاك بعد هذا وربما لا ألقاك.

شعر ذو القرنين بالجزع وهو يقول:

- إلى أين تفارقنا يا نبي الله؟

قال له الخضر:

- أدعو إلى الله في مواضع لا تقدر جيوشك الوصول إليها.

قال ذو القرنين:

- ما هي تلك المواضع يا نبي الله؟ فقل لي لأسير معك إليها.

قال الخضر:

- القلوب.

***

في ليلة من ليالي الزمان سطع نجم فرقة إيمورتال الفارسية حتى بهر نجوم السماء كلها، فبعد شهر كامل من التخطيط اقتربت الساعة الموعودة، وقسم الشوجان أنفسهم إلى مئة كتيبة، توزعوا على مئة بلد من بلاد المملكة الواسعة، كل كتيبة فيها مئة شوجان، يكون قائدهم رجلًا منهم، شوجان يعيش في البلد نفسه الذي نزلوا فيه شرط أن يكون أبوه هو الأعلى منصبًا في البلد.

كل كتيبة كانت تتسلل خفية وتربض حول القصر الملكي في البلد وتحاصر قصور كبار قادة الجيش والتجار تمهيدًا لاقتحامها في ساعة واحدة، وكان كثير من الشوجان يحاصرون بيوت أهليهم فكلهم أبناء سادات.

قرروا أن يحدث الاقتحام في كل البلاد في يوم واحد ووقت واحد عند منتصف الليل عندما تتخاذل الأطراف وتثقل الجفون.

ولما جاءت الساعة هجم الشوجان هجمة رجل واحد، واحتلوا قصور المملكة كلها، بوزرائها وقادتها وتجارها، وكانوا عندما يحتلون قصرًا ملكيًا في أي بلد يضعون على رئاسته قائدهم الشوجان الذي يكون أبوه أعلى منصبًا في البلد.

فرغم أن آباءهم الأغنياء شاركوا في تمويل الثورة لدعم أحد الطغاة ليصعد على عرش البلد، فإن هذا الطاغية الصاعد على العرش يجد ابن أحد الأغنياء الذين مولوه قد انقلب عليه.

وإن الغني عندما يرى ابنه صار على رأس البلد سيدعم ابنه ولن يدعم أحدًا آخر أيًا كانت المصلحة، فأصبحت ثورة الطغاة التي دبرها غريم تمول أبناء الأغنياء من الشوجان بدل أن تمول الطغاة.

كلمة السر وراء كل هذا هي بونيتا، التي وضعت الخطة ونظمت كل شيء، وبقيت أهم نقطة وسط هذا كله، رأس الأفعى الأعور، فإن كانت هذه الخطة ستشل أذرعه كلها وتحطم دولة المرتزقة التي أنشأها وتقلب طاولة الممولين ليمولوا الثورة المضادة إلا أن المشكلة فيه هو نفسه فهو شيطان كالزئبق لا تقدر أن تقبض عليه.

لكن الشوجان وضعوا خطتهم بشأنه، وكان يجب أن ينفذوها في ساعة الفصل نفسها، ففي تلك الساعة زحف حول القصر الملكي في إكباتان عشرون شوجانًا هم الأعلى قوة ومهارة بين عشرة آلاف شوجان، وكان على رأسهم آرتي وبونيتا.

زحفوا وتسللوا إلى القصر الملكي وأسقطوا الحرس المرتزقة في براعة وخفة دون أن يصنعوا ضجة، وتقدموا إلى الغرفة الملكية التي يعلمون بالمراقبة الكثيفة أن غريم يدخل إليها في آخر الليل.

وفي أثناء تقدم خطواتهم إلى باب غرفة غريم كانوا يذكرون كلام آرتي جيدًا:

«إن هذا الأعور يتحكم بالريح، فلا بد أن نغلق عليه منافذ الريح كلها، النوافذ والشرفات، وسيتسلق فريق كامل لإغلاقها من الخارج ويوصدونها».

اقترب الشوجان من أبواب الغرفة الثلاثة ووزعوا أنفسهم بعناية فائقة وأخرجوا سيوفهم وتحسسوا خناجرهم.

«سيدخل عليه أمهر عشرين منا يحيطون به من النواحي كلها في وقت واحد، وسأكون أنا وبونيتا على رأسهم».

وفي لحظة واحدة انفتحت جميع الأبواب ودخل الشوجان ووجدوا غريم واقفًا متصلبًا ينظر إليهم بطريقة لا تدل على المفاجأة ولا الدهشة، فقط كانت تدل على الكراهية.

«لو شعر أحدكم بمس يصيب رأسه، فليردد الاستعاذات التي علمها الخضر للناس فإنها تقي من الشياطين».

ولم يستخدم غريم حركة الريح ولا قوة السحر أو مس الشياطين، بل عمل شيئًا آخر أشد وطأة من هذا كله.

ففجأة استدار أحد الشوجان وقطع رأس زميله الشوجان الذي بجواره قطعًا شديد العنف والسرعة، وشوجان آخر على الناحية الأخرى في الوقت نفسه عمل الحركة نفسها، ووقعت سيوف الشوجان في بعضها بعضًا، وغريم فقط ينظر إليهم بعينه، كان يستخدم قدرته على النفاذ إلى العقول، ثم استدار خارجًا من الباب تاركًا المذبحة وراءه تشتعل والدماء تفور من الأجساد.

بونيتا أيضًا أخرجت سيفها وأمسكت به بكلتا يديها وهي تقترب من آرتي وعينها ذاهلة، وبكل المهارة التي تعلمتها في حياتها رفعت السيف بسرعة بالغة إلى وجه آرتي الذي رغم تراجعه السريع إلى الخلف فإن السيف قد جرح وجهه جرحًا غائرًا من أسفله إلى أعلاه وكاد يقطع عينه.

ثم تقدمت بونيتا بالنظرة الزائغة نفسها ودموعها تنهال من عينها بلا حساب بينما يدها ترتجف بالسيف كأنها تغالب نفسها وهي تنظر إلى عيون آرتي، ورغم أن الشوجان الآخرين كانوا يقطعون رقاب بعضهم بعضًا في حقد غير مفهوم، فإن السيف سقط من يد بونيتا ولم تقدر أن تفعلها، وظلت على ذهولها تنظر إلى عينيه.

وثب آرتي وجذب بونيتا بقوة بعيدًا ليهرب بها لكن أحد الشوجان رفع سيفه في وجهه، لكن آرتي أسقطه بعد مبارزة مميتة كاد يخسر فيها روحه، وركض آرتي حاملًا بونيتا وخرج من الغرفة وبعض الشوجان يلحقونه ويخرجون خناجرهم ليلقوها من بعيد بدقتهم التي لا تخيب، لكن آرتي قفز إلى أكبر شرفة مصنوعة من الزجاج الفارسي الملون وكسرها إلى ألف قطعة وهو يسقط في النهر الذي يجري تحت القصر.

ورغم كل شيء فإن فرسان الشوجان الذين أصابتهم لوثة قد برئوا فجأة مما هم فيه ولم يذكروا شيئًا مما حدث على الإطلاق.

وهرب الأعور بعد أن خسر كل ما بناه في ليلة واحدة.

***

جبال تيان شان الباردة، أرض الترك.

خمسة أشهر قطعها ذو القرنين حتى وصل إلى هناك في اتجاه القمر، كانت رحلة شديدة الحزن على نفسه لأن أخبار موت أمه ماندان قد وصلت إليه، وأخبار الثورة التي نجح آرتي في إخمادها بأعجوبة، وحمد الله الذي حفظ مملكته من الشر بينما هو يجوب أركان الأرض لله وحده.

وكان ذو القرنين كلما مر بقرية دعا أهلها إلى الله فأجابوه، وأي قرية تلك التي ترفض أن تكون تحت مظلة ذي القرنين، وعدالة ذي

القرنين، وكان معه زوجته إيما التي رفضت العودة إلى بابل لتبقى معه إلى النهاية.

حتى دخل على بلدة يعرف أنه بدخولها قد بدأت مملكة الترك الواسعة المليئة بالخير، أو هكذا كان يظن.

لم يكن اسمهم الترك ساعتها، بل اليوجيون، وهم أول مجموعة ترك ظهروا في الأرض فجأة بلا مقدمات وما زال ظهورهم مجهولًا حتى اليوم.

قوم مائلون إلى البياض يرتدون قلنسوات طويلة مدببة، وجوههم يبدو عليها البؤس والفقر وغدرات السنين، لا يبدو عليهم خوف من غزو محتل أو طمع في التخلص من حكم محتل، فقط الدهشة والحسرة ويُعرضون عنك كأنه ليس لديهم وقت لك ويسرعون في مشيتهم كأنما ينهون شيئًا جسيمًا تأخروا عليه.

الحديث معهم لا فائدة ترجى منه فهم لا يكادون يفقهون قولًا، لغتهم عسيرة لا يتحدث بها في الأرض غيرهم، ولا يعطونك وقتًا حتى لتتحدث أو تحاول الشرح فقط ينظرون إليك بعين جاحظة وأحيانًا يصرخون فيك كأنك محتل ويشيرون إلى الشمس التي أوشكت على الغروب بلا سبب مفهوم.

البلدة كلها تهرع إلى البيوت، الأبواب تغلّق قبل غروب الشمس بمغاليق من حديد ولا توجد لديهم نوافذ في البيوت، وذو القرنين ورجاله في المنتصف ينظرون إلى كل هذا في عدم فهم ويدورون في الساحات، لم يكن ذو القرنين قد رأى قومًا في حياته مثل هؤلاء، كأنهم يهربون من شيء أو يخافون الظلمة.

كثير من رجاله طرقوا الأبواب أو صرخوا مهددين أو مرغبين بلا فائدة، هناك فقط رجل عجوز كان ينظر إليهم قبل أن يغلق بابه وقال كلمة مفهومة واحدة كأنه لا يعرف سواها:

- اذهبوا.

وكان يصنع بيده حركة تعني ارحلوا من هنا قبل أن يفوت الأوان، وينتهي كل شيء.

صاحت فيه إيما:

- ما بالكم يا هذا؟ هل ستقوم القيامة؟

لم يرد الرجل وأغلق بابه الحديدي الثقيل بصعوبة، ترجم ذو القرنين كل هذا إلى أن هناك خطرًا يحل عليهم دائمًا في الليل، ربما عصابة من مجرمي الطريق أو أوباش الجبال، وأخذ ينظر بعينه حوله إلى سفوح الجبال القريبة هنا وهناك، ثم سمع شهقة إيما فاستدار إليها في حدة ورأى، وعرف كل شيء.

فهناك، بين صخور الجبل، برزت رؤوس بشرية تتكاثر حتى بدا أنها وراء كل قطعة حجر، رؤوس لها عيون كالذئاب يسترها الظلام، وملامح تخفيها الظلال وإن كان الشر منها باديًا كأنه ينبعث من الأرواح.

كانت إيما محقة في حديثها عن القيامة.

قيامتهم هم وأي شخص رمته شجاعته أو جهله أن يبقى في الطريق بعد أن تغرب الشمس.

وصعدت العين لتصور الجبل من نقطة أعلى ثم توقفت وأصابها الرعب.

فأصحاب الرؤوس لم يكونوا على سفح واحد بل كانوا جماعات كأنهم الضباع فوق ثنيات الجبل، يقتربون ببطء واثق من موضع واحد وقد بدا

أنهم تكاثروا إلى هذه الدرجة لأن هناك فريسة غافلة ما زالت تنظر حولها هنا وهناك بعدم فهم أو إدراك أن هؤلاء القوم الذين تفرزهم الجبال هم القوم الذين ستقوم بهم قيامة الأرض كلها في أزهى عصورها.

يأجوج، ومأجوج.

***

10
يأجوج ومأجوج

تحرك يأجوج ومأجوج نازلين من كل حدب من أحداب الجبال الباردة فظهرت ملامحهم لأول مرة، كانوا يملكون وجوه بشر وأجساد بشر وقلوب شياطين رجيمة وملامح تملؤها الكراهية والبغضاء والمقت، ونظراتهم يعلوها النهم كأنهم ضواري جائعة أُلقيت في صحراء، يرتدون أوشحة بلون الدم مائلة على صدورهم وشعورهم طويلة تنحدر إلى أكتافهم، كانوا يقتربون ببطء وعين سايروس تمسحهم بسرعة من فوقهم إلى تحتهم، رآهم يُركّبون على أصابعهم أظفارًا من حديد مسنونة أكثر حدة من أنصال السيوف ويُركّبون على ظهور أيديهم أشفارًا طويلة قاتلة كالأشواك، وتخرج من جوانب أحذيتهم رؤوس مدببة حادة قصيرة، لكنه لم يجد الوقت حتى ليكمل النظر، فقد هجموا فجأة دون تقديم أو تمهيد كأنما لا يكترثون بعادات الجيوش البشرية.

ولم تكن حركة هجومهم بشرية عادية، بل كانت أسرع حتى من حركة استيعابك، كأنهم فهود في ثياب بشر، وما كانوا يقفون أمام إنسان من جيش سايروس إلا وجدت رأسه يُقطع أو بطنه يُبقر قبل حتى

أن يهم بالتحرك، فهم يحركون أطرافهم في القتال بسرعة تفوق الإنسان العادي بثلاث مرات على الأقل كأنما تلبست بهم مردة الشياطين.

صاح سايروس بقوة بالغة:

- تفرقوا إلى دائرة.

لكن لم يعد أحد يسمعه، فقد عرف الجند في اللحظة الأولى أنهم أمام شيء شيطاني تستحيل مجابهته بأي طريقة، فولوا الأدبار محاولين الهرب لكن أي هرب هذا الذي يكون من أقوام سرعتهم أضعاف سرعتك؟

صرخ سايروس:

- ارفعوا الدروع.

ورفع هو درعه ليحمي نفسه وإيما التي بجواره وفي الوقت نفسه يضرب بسيفه من تحت الدرع أو يرمي بخنجر من بعيد أو يدور وهو يضرب بسيفه في مهارة فائقة لا يجيدها إلا الشوجان، لكن هؤلاء كانوا لا يتألمون إذا جرحتهم بالسيف أو لكمتهم في وجوههم كأنهم فاقدو الحس، ولا يموتون إلا بقطع رؤوسهم أو إذا غرزت خنجرًا في قلوبهم أو أعناقهم.

ورغم أن إيما كانت محاربة فإنها ليست ببراعة شوجان مثل سايروس فكان يجعلها وراءه طيلة الوقت وقد كف تمامًا عن إعطاء أي أوامر لجيشه، فقد عرف بينه وبين نفسه أنه لن يقدر هذه المرة على النصر، فهؤلاء القوم كما هو واضح من وجوههم المختلة ولحسهم للدماء التي تلطخ أصابعهم أنهم لن يتوقفوا حتى يذبحوا الكل.

سحب سايروس إيما بذراعه القوية وتحرك متراجعًا بحذر حتى جعل وراء ظهره جدار زاوية بين بيت وبيت حتى لا يكون ظهره مكشوفًا، ونظر إلى ساحة المعركة وشعر قلبه بالكمد، إن القوم يلعبون ويبدو

على وجوههم هوس وهم يقطعون رؤوس رفاقه ويمثلون بهم كأنهم يتسابقون، وأشد شيء على المحارب أن يخسر بهذه الطريقة الشنيعة.

لكن لكل أسطورة مهما طال بها الزمن نهاية، ولكل بشري طاقة، ولا طاقة به على هؤلاء، كان جنوده يطرقون على الأبواب يائسين وهم يصرخون وتبكي النساء المجندات، لكن الترك لن يفتحوا ولو كان آباؤهم هم الذين بالخارج.

الهرب لا يفيد

طرق الأبواب لا يفيد

قتالهم نفسه لا يفيد

رفع ذو القرنين رأسه إلى السماء برجاء إلى رب السماوات والأرض وتمتم بالدعاء أو بالشهادة.

***

على موضع غير بعيد، فوق تلة رابية كان آرتي يقف، كان قد قطع رحلة طويلة بفرقة إيمورتال باحثًا عن سايروس بعد غيابه الطويل الذي لا يبشر بخير حتى عرف أنه في أرض الترك.

ولأجل دعوة ذي القرنين، شاء ربك أن يصل آرتي إلى أرض الترك في بدء لحظة هجوم يأجوج ومأجوج على جيش ذي القرنين.

ولم يصدق آرتي عينيه وهو فوق تلك التلة يراقب طريقتهم وسرعتهم وتسليحهم، ثم أطلق سبة قاسية ونظر إلى بونيتا الواقفة إلى جواره ثم إلى فيلق إيمورتال الواقفين وراءه بكامل عتادهم وتسليحهم ثم صاح بصيحة الهجوم وانطلق نازلًا من التلة، ونزلوا وراءه.

وبالأسفل كانت الرؤوس ما تزال تُقطع والدماء تسيل وسايروس يجاهد وسط كل هذا بلا فائدة، ثم ظهر آرتي، وكان ظهوره باهرًا كما

هو طبعه، إذ جعل فريقه من الشوجان يرمون بسهامهم كلهم في نفس واحد لتخترق رؤوس الجوج وأعناقهم في دقة شديدة فلا يوجد شوجان يرمي رمية إلا وتصيب من المرة الأولى.

صاح آرتي محييًا:

- لا أذكر أنك أنقذتني قبل ذلك يا سايروس، هذه لي.

ابتسم سايروس بمرارة بين كل الدماء التي تلطخ وجهه وشعره الذهبي وقال:

- فقط حاول ألا تفسد الأمر كما هو طبعك يا آرتي.

وبدأ يأجوج ومأجوج يتساقطون لبضع دقائق من وقع المفاجأة فقال آرتي:

- يبدو أن هؤلاء نسوا سلاح الرمي في بيوتهم يا سايروس.

لكن الجوج سرعان ما وثبوا متفرقين كلمح البصر يمينًا وشمالًا بطريقة يستحيل على الرامي أن يصيبهم ثم استداروا فجأة وتبين أنهم لم ينسوا سلاح الرمي كما ظن آرتي، بل إن الواحد منهم كان يمد إصبعه الصغرى عند ظهر يده فيسحب خيطًا بقوة لتنطلق شوكة من الأشواك المثبتة في قبضته.

كانت الأشواك عبارة عن أنصال سيوف رفيعة تنطلق بسرعة شديدة فتنغرز في الرقاب بقسوة وتخرج من الناحية الأخرى، وكان الواحد منهم يطلق الأشواك بدقة وسرعة فائقة كأنه آلة قتل.

أصاب أحد الأشواك جواد آرتي فسقط من فوقه على الأرض لكن كتفيه لم تمسا التراب، إذ اعتدل بطريقة بارعة ووثب عند سايروس وقال:

- سايروس، ألن تترك لي شيئًا واحدًا أعلو عليك فيه، إني ظننت أني قاتلت أسفل البشر في أوتشيسار حتى رأيت السفلة الذين تقاتلهم.

توحش يأجوج ومأجوج أكثر وكأنهم يسعدون بين القتال والدماء، وكلما كان القتال أصعب شعروا بنشوة أكبر، فلم يكونوا يضربون بشفراتهم ويرمون أشواكهم فقط بل كانوا يقطعون لحوم خصومهم بأسنانهم ولا يظهر عليهم التقزز بل النشوة، ولا شيء غير النشوة.

ألصق سايروس ظهره بظهر آرتي وأصبحا يدوران في حنكة ويريان مجموعة من الجوج تحيط بهما وحدهما دونًا عن البقية، فقد عرفوا فيما يبدو أن قتل هذين أهم من أي شيء، وظهرت تعابير الافتراس على وجوههم المقيتة وهم يدورون بحذر استعدادًا للانقضاض.

بصق آرتي دماءه التي مررت حلقه وقال:

- اللعنة، أهؤلاء بشر مثلنا أم ماذا؟

قال سايروس:

- يبدو أننا سنموت قبل أن تقتص مني في الشوجان يا آرتي.

صرخ آرتي فجأة:

- بونيتا.

فجأة نزلت بونيتا من التلة ووراؤها نصف فيلق إيمورتال كاملًا في خطة وضعها آرتي ليقسم رجاله إلى قسمين يدخلان لمفاجأة العدو مرتين، فليس عدوًا عاديًا يمكن التنبؤ بما يصنع.

ومهما كان العدو متوحشًا أو سريعًا فإن الهجوم عليه من خلفه وهو منشغل يهزمه حتمًا، لذلك كانت هجمة بونيتا ضربة قاضية زلزلت يأجوج ومأجوج بسهام تنغرز في أقفيتهم وسيوف تُقطع بها رؤوسهم.

وعلى الفور دون إبطاء وكأنهم أسراب مدربة انسحب من بقي حيًا منهم متراجعًا عن أرض المعركة، وكان الواحد منهم يلتقط جثة ميتة من الأرض ويضعها فوق كتفه ويمضي هاربًا ولا تنقص من سرعته إلا شيئًا يسيرًا.

رفع سايروس يده وصاح بقوة:

- وراءهم، لا تدعوهم يلوذوا بالفرار.

انطلق الشوجان ومن بقي من جيش سايروس وراءهم بالجياد المنهكة التي كانت بالكاد تجاري سرعة الواحد منهم، حتى صعدوا على أحداب الجبال ولم تعد الجياد قادرة على المضي أكثر، فنزل الشوجان عن جيادهم بحركة بارعة وصعدوا وراءهم.

حتى وصل الجوج إلى كهف عملاق هائل كأنه فالق عظيم بين جبلين متجاورين من جبال تيان شان التي صبغتها الثلوج بلون أبيض.

جبلان كبيران متجاوران يصنعان بينهما ممرًا مظلمًا تمامًا لأن قمتيهما تتلاقيان بالأعلى فتصنعان سقفًا جبليًا عاليًا يغزوه الجليد.

وهو نفسه موضع بين السدين في القرآن الكريم ويعني بين الجبلين.

ظهر العزم على وجه ذي القرنين وهو يرفع يده ويأمر جنده بصوت عال:

- أوقدوا المشاعل.

كان قد عزم أن يقتحم هذا الكهف وراء قوم جوج معتقدًا أنهم مجرد قبيلة وحشية تعيش على سفح الجبل، ولم يكن يعلم، حقًا لم يكن يعلم.

***

فجأة وقفت إيما بكل ما فيها من عزم أمام سايروس وأعطت ظهرها للكهف وفردت يديها كالحائط وهي تقول بحزم مخالفة أوامر سايروس:

- لن يتحرك أحدكم من هنا خطوة واحدة.

همَّ سايروس أن يعنفها بصوت عالٍ لكنها قالت:

- لقد خسرنا يا سايروس، كفى، إن هؤلاء لم يكن عددهم يتجاوز الألف بأي حال وقد قتلوا منا أكثر من خمسة آلاف، ومن جيش إيمورتال خمسة آلاف مثلهم في زمن لا يُذكر.

تحرك سايروس للأمام مستعدًا أن يأمر الجيش مرة ثانية لكن إيما تقدمت منه ونظرت مباشرة إلى عينيه وقالت:

- ألا تذكر الرؤيا يا سايروس؟ أنت لن تتقدم إلى أي مكان.

وقبل أن يجادلها سايروس أو يرد عليها ردًا واحدًا، فجأة ودون مقدمات اخترق نصل غادر ظهرها وخرج من صدرها أمام الجميع فتجمدت عينها في دهشة وارتجاف وهي تنظر إلى سايروس الذي تحرك بسرعة ومد يده إليها لكن اخترق ذراعه نصل ثاقب آخر، وعلى الفور وثب آرتي وبونيتا إلى صخرة في يسار الكهف اختفيا وراءها وتراجع جيش سايروس إلى الخلف مبتعدًا عن وجه الكهف المظلم الذي تخرج منه هذه الأنصال القاتلة.

خرج الدم من فم إيما غزيرًا وهي لا تزال تقف على قدميها وتثبت عينها على سايروس الذي انحنى للأسفل بحركة بارعة سريعة مباغتة ليمسك بإيما ويسحبها، لكن انطلق نصل اخر مسه في وجهه فجرحه جرحًا بليغًا جدًا، فوثب إلى صخرة عن يمين الكهف وهو ينظر بارتياع إلى إيما الواقفة وحدها في وجه الكهف، التي لم تلبث أن سقطت وسط دمائها التي سالت بكثافة على الجليد الأبيض.

صرخ سايروس باسم إيما في جزع وهو يقترب من حافة الصخرة وسند عليها ظهره وعزم أن ينظر من خلفها بطرف عينه إلى الكهف لكن آرتي صرخ فيه:

- إياك يا سايروس، إنهم يريدون اقتناصك.

نظر سايروس إلى آرتي الذي يختفي على صخرة مقابلة، لكنه لم يعبأ بقوله وتحرك سايروس رغم التحذير، فمد جزءًا من رأسه ليرى، لكن نصلًا ضرب الصخرة في الموضع الذي كاد أن ينظر منه، فسحب رأسه في سرعة والدماء تسيل من جبهته على عينيه اللتين يملؤهما الذعر.

نصل آخر انطلق من بين الظلمات ليستقر في جنب إيما الواقعة أرضًا على صفحة الجليد، فاستلقت على ظهرها ناظرة إلى سماء الليل ونجومها المنثورة وقرص القمر وسمعت سايروس ينادي باسمها في فزع فانفرجت شفتاها ابتسامًا وقالت بوهن:

- قلها يا سايروس، قل اسمي مجددًا، فإني أود أن يكون صوتك به هو آخر عهدي بالدنيا.

صرخ فيها سايروس:

- إيما، لا تتكلمي يا إيما، احفظي قوتك حتى آتيك.

ابتسمت إيما والدماء على شفتيها والدمع يرجف على مقلتيها وقالت:

- إياك أن تأتي يا سايروس، إنهم يستخدمونني ليخرجوك من مكمنك.

ضرب كتفها نصل آخر فصاح سايروس:

- اللعنة.

قالت إيما وقد أيقنت أنها الأنفاس الأخيرة:

- لقد وعدتك يا سايروس ألا أعيق طريقك، أتذكر؟

ونزلت دموعها حتى بللت ندفات الثلج وقالت:

- لقد كنت غبية، لطالما أردت أن أكون مقاتلة، قلت إنني ابنة نبوخذ نصر، حياتي قصيرة مليئة بالحروب خالية من كل معنى، حتى التقيتك، أجمل ما في حياتي أنني التقيتك يا سايروس.

أسند سايروس رأسه على الصخرة وأغمض عينيه وهطلت منهما دموع لم تهطل مثلها طوال حياته وقال لها:

- أنت أنقذت روحي يا إيما أفلا أنقذ أنا روحك؟

صرخ فيه آرتي بقوة:

- سايروس، لا فائدة مما تفعله، إنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، فقط تحدث معها.

أمالت إيما رأسها إلى الجانب لتنظر إلى سايروس وقالت من بين الدماء:

- سايروس، هل كنت حقًّا تعني ما قلته في الشرفة؟

نظر إليها سايروس من بين دمعه وقال:

- لو كنت أقصدك يا إيما ما كنت تزوجت بك، أنت لست منهم في شيء، أنت مني أنا.

ابتسمت إيما آخر ابتسامة لها، تلك التي بقيت على شفتيها وهي تقول:

- هكذا يطيب لي الموت، كما طابت لي الحياة معك.

ثم فاضت روحها إلى خالقها.

***

أحضر آرتي حبلًا طويلًا ألقى به بدقة ومهارة شديدة وسحب به جثة إيما، وكان يرفع الحبل ويخفضه في الهواء كل حين لئلا تصيبه أنصال

هؤلاء الرعاع، وحمل الشوجان سايروس الذي لم يكن قادرًا على الوقوف أو هو قادر لكنه لم يعد راغبًا حتى أن يسير، ولم يستفق مما هو فيه حتى أحضروا له جثة إيما فاحتضنها وقبل جبينها، ثم أسنده آرتي على كتفه وأصبح يمشي به وهو يحتضن كتفه ويهدئ من روعه ووراؤهم الشوجان.

ثم ذهب الجميع ليدفنوا إيما.

وفوق أرض ثلجية وقف ذو القرنين يدعو لها بعد أن دفنوها، وبينما هم يتهيؤون للمغادرة إذ وجدوا أمامهم قافلة من الرجال الذين يبدو من هيئاتهم أنهم ذوو شأن في هذه الأرض، قال كبيرهم:

- عزاؤنا لك يا ذا القرنين، أنا مارج، زعيم هؤلاء الترك، أنت دخلت أرضنا من أسوأ نقطة فيها في أسوأ وقت عند خروج الجوج.

صاح فيه آرتي:

- أكنت في بيتك متدثرًا يا هذا ولما ذهب الشر خرجت لتعزينا وقد أغلق قومك أبوابهم عليهم وهم يروننا نموت ولا يفتحون؟

قال له مارج:

- بل إن بيتي في مركز أرض الترك وليس هنا، ولو فتح لكم أحد قومي بابه لهلك هو وأولاده.

لم يكن ذو القرنين يتكلم، فقد الرغبة في الجدال والكلام ولم تعد به طاقة سوى لفعل شيء واحد، أن يحرق هؤلاء الجوج عن بكرة أبيهم، فقد قتلوا أكثر من نصف جيشه واغتالوا زوجته غدرًا، وكان الرجل لا يزال يجادل آرتي فقال ذو القرنين بحزم:

- خذونا إلى مركز قيادتكم، وأطعموا هؤلاء الرجال، واحفظ لسانك عن الجدال فستحتاج إليه لتسرد لي كل شيء تعرفه عن هؤلاء الحثالة منذ أن ولدتك أمك وحتى هذا اليوم.

كانت كلماته سريعة، حازمة، قوية، لا مكان فيها للأخذ والرد، فأومأ مارج برأسه إيجابًا على الفور وتحرك آخذًا إياهم إلى مركز أرض الترك.

لاحظ ذو القرنين أن القوم فقراء حقًا، ويبدو أن أبواب بيوتهم الحديدية هي أغلى شيء يملكونه في البيت.

حتى المكان الذي يعيش فيه مارج كان صغيرًا ليس مثل قصور الملوك بأي حال، ولما جلس ذو القرنين وآرتي وبونيتا وكبار قادة الشوجان قال مارج:

- أرى في عينيك أنك تريد أن تحاربهم يا ذا القرنين.

قال ذو القرنين:

- بل أبيدهم عن صفحة هذه الأرض، قل لي كم عددهم، عشرة آلاف، مئة ألف؟

قال له مارج:

- لا فائدة من قتالهم.

رد ذو القرنين بعنف:

- بل إن جيشنا لو جمعناه يكون ألف ألف جندي بسلاحهم وعتادهم، وسنضع خطة تليق بحرب إبادة.

قال مارج:

- إنهم أكثر من ألف ألف يا ذا القرنين، أكثر بمئة ضعف على الأقل، ولو خرجوا لأبادوا هذه الأرض، وهم رجال حرب يحملون السلاح

ويتدربون عليه منذ السابعة، فالواحد منهم يقتل عشرة منكم كما رأيت بنفسك.

قال ذو القرنين بغضب:

- من أين لك هذه الأساطير؟ ما هم إلا أوباش يعيشون في الجبل.

رد مارج بهدوء:

- نحن منهم يا ذا القرنين.

سكت ذو القرنين وهو ينظر إليه بدهشة حقيقية فسأل آرتي الرجل:

- أأنتم جئتم من هذا الشق في الجبل؟ أكنتم تعيشون وراءه؟

رد مارج على آرتي قائلًا:

- لا أبدًا، بل إن وراء جبال تيان شان أرض الساكا، وهم ليسوا مثل هؤلاء في شيء، إن قومنا يأجوج ومأجوج لا يعيشون وراء الجبل ولا في داخله، بل هم في القاع، في ست أرضين أسفل هذه الأرض.

ظل الصمت سيد الأجواء بعد كلمة الرجل وظهر الوجوم على الوجوه وبدا على وجه ذي القرنين الشعور بأنه يسمع أساطير لا يمكن أن تصدق، فتملك منه الغضب وقام من مكانه قائلًا:

- سننصرف من هنا، نحن سنبيدهم على طريقتنا، أما أنتم يا قوم الترك فإنا ندعوكم إلى كلمة لا إله إلا الله، أو إلى الحرب.

ابتسم مارج وقال:

- نحن الترك من مؤمني يأجوج ومأجوج ونعرف الله قبل أن تعرفه أنت.

***

11
سبع أرضين

لم يكذب مارج في شيء مما قال، فالترك هم القوم الوحيدون فوق هذه الأرض الذين من نسل يأجوج ومأجوج ومنهم مؤمنون بالله ومنهم كفرة فجرة أفسدوا في الأرض كالخزر الذين ينتسب لهم اليهود والصهاينة في العصر الحديث.

لكن ذا القرنين وبعض رجاله لم تكن عقولهم مستعدة لتصديق ما يقوله مارج إلا أن كلمته بأنه مؤمن بالله أسكنت نفس ذي القرنين كثيرًا لكنه سأله:

- أي نبي من الأنبياء بُعث إليكم؟

قال مارج:

- يا ذا القرنين إن في الأرضين السفلى بشرًا مثلكم يأكلون ويشربون ويزرعون ويموتون ولهم أنبياء ورسل كما لكم أنبياء، وهل يُلقى قوم في النار إلا ويأتيهم نذير؟

لم يبدُ على ذي القرنين التصديق رغم كل هذا لكنه سكت، فقالت بونيتا:

- سيدي سايروس، لقد قاتلنا هؤلاء القوم بأنفسنا وإن سرعة الواحد منهم كالفهد، وهم يحركون أطرافهم بالسلاح قبل حتى أن نلحظها، وقد قتلوا منا كل هذا العدد بعشوائية بلا خطة، فلندع الرجل يتكلم عنهم بما يعرف ثم ننصرف عنه إلى الحرب.

قال ذو القرنين:

- لك هذا، تحدث، ولا تطل الكلام.

قال مارج بسرعة:

- أليست هذه الأرض الظاهرة فيها قطع متجاورات تحيطها بحار ومحيطات حجمها ثلاثة أضعاف هذه الأرض الظاهرة؟ وأنت ملكت منها يا ذا القرنين ما قدر الله لك؟

قال له ذو القرنين:

- بلى.

فقال مارج:

- فإن الله خلق تحت هذه الأرض الظاهرة بحرًا مسجورًا تخرج منه البراكين، وخلق تحت هذا البحر المسجور ست قطع متجاورات سفلية كبيرة من الأرض بينها بحار صغيرة.

قال ذو القرنين:

- فهذه الأرض الظاهرة والست التي بالأسفل هي الأرضين السبع التي خلقها الله؟

قال مارج:

- نعم يا ذا القرنين، فهل ترى هذا الشق الكبير في الجبل الذي ماتت عنده زوجتك المؤمنة الشهيدة، هذا صدع طويل داخل الأرض حتى إنه يصل إلى الأرض السفلى، وهو الطريق الوحيد بين أرضكم والأرضين الست السفلية.

قالت بونيتا:

- ست أرضين كبيرة عندهم بينها بحار صغيرة بينما أرضنا قطع صغيرة حولها بحار كبيرة، هذا يعني أن نسبتهم من الأرض أضعاف نسبتنا، فعددهم بالتالي هو أضعاف عددنا.

قال لها مارج:

- بالضبط يا سيدتي إنهم بالأسفل ألف ضعف هنا، فالبحار عندكم واسعة جدًّا تكاد تأكل الأرض كلها، أما هم فبحارهم صغيرة كالبرك، وكلها عذبة غير مالحة.

قال ذو القرنين:

- كيف وصل هؤلاء الغوغاء إلى تلك الأرض السفلى في أول الزمان ولم يصل إليها سواهم؟

قال مارج:

- بعد طوفان نوح دخلت ذرية يأجوج ومأجوج إلى هذا الصدع ووجدوا الأرض السفلى وعاشوا عليها قرونًا، وإن فيها شمسًا أصغر من شمسكم هذه وأقل سطوعًا.

قالت بونيتا:

- ألهذا لا يحبون الخروج في الشمس ويأتونكم بالليل؟

قال مارج:

- لا، ولكن إذا كنا هنا بالليل تكون أرضهم بالنهار والعكس، فجميع حملاتهم علينا يخرجونها في النهار عندهم.

قال آرتي:

- ألا يختنقون بالأسفل؟

قال له مارج:

- بل إن الهواء لديهم أنقى من هنا والشمس أقل ضررًا، ولأجل طبيعة أرضهم السفلى لم تتناقص أعمارهم بمثل تناقص أعمار بني آدم، ففي عهد نوح كنتم أيها الناس تعيشون ألف سنة ثم تناقص العمر الآن بسبب كثير من الأمور التي ليست في أرضهم، فأعمارهم ما زالت تزيد على الألف، والواحد منهم لا يموت حتى ينجب ألف ذكر وأنثى من ذريته كلهم يحملون السلاح.

قالت له بونيتا:

- ألستم منهم؟ إن أعماركم مثل أعمارنا كما أظن.

قال لها مارج:

- نحن فررنا منهم قديمًا بعد أن أفسدوا في الأرض السفلى وجعلوها دماء ومذابح وخرجنا إلى أرضكم فتأثرنا بطبيعتها مثلكم.

سأله آرتي:

- ماذا يفعلون بهذه الجثث التي يسرقونها؟

قال مارج:

- إنهم أكلة لحوم، وأرضنا هي موطن رحلاتهم ولهوهم كل يوم للصيد.

أصابت الجميع رهبة بعد كلمته حتى سأله ذو القرنين:

- لماذا بعد كل هذا الذي قلته ما زلتم تعيشون بجوار الصدع الذي يخرجون منه؟

قال مارج:

- أين تذهب يا ذا القرنين ونترك أرضنا ولا أحد يقبلنا، أتأخذنا أنت في أرضك ونحن ألوف مؤلفة فنعيش بينكم مزاحمين؟

سكت ذو القرنين فقال مارج:

- يا ذا القرنين إنا سمعنا عن السدود التي صنعتها في بابل، حتى إنك جففت نهرها الكبير وسمعنا عن اختراقك أرض جيدروسيا وأنه لم يقف أمامك شيء خلقه الله من بشر أو حجر، ونعلم أنه لا شأن لك بنا وبيلادنا الفقيرة لا بملك ولا دعوة قد آمنا بالله قبل أن تأتينا، لكن يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجًا على أن تجعل بيننا وبينهم سدًّا؟

قال آرتي وهو ينظر إلى ذي القرنين:

- أي سد هذا الذي سنبنيه لهم وهؤلاء يخرجون كالضباع الجائعة كل يوم يبحثون عن فرائس؟

قال سايروس وهو يشرد بعينه:

- هؤلاء لا ينفع معهم سد واحد ولا حتى عشرة، هم يحتاجون إلى ردم يسد هذه الثغرة إلى الأبد.

قال آرتي:

- سايروس، إن سرايا الجوج رأونا وعرفوا أعدادنا وعتادنا وفي المرة القادمة سيخرجون بجيش أكبر وأسلحة أكثر جنونًا، فأي سد أو ردم هذا وأي عمال سيقفون أمام الفجوة لبنائه؟

سكت ذو القرنين وقد بدا شبح سخرية بين عينيه وقال:

- مشكلة هذا الجيش الجرار وأي جيش سيحضرونه أنه ليس له منفذ للمرور إلينا سوى هذا الشق بين الجبال، وهذا سيكلفهم كثيرًا.

نظر إليه رجاله في شغف، فهم يعرفون هذه النظرة في عينيه جيدًا.

***

قبل أن تغرب الشمس ظهرت عيون يأجوج ومأجوج في ظلمة الكهف، لامعة، فاسقة، مملوءة بالأذى.

كانوا يمشون في الشق المظلم خارجين منه أفواجًا غاضبة لحصد الأرواح، ولم يكونوا ألفًا هذه المرة بل جاؤوا ثلاثة أضعاف وكان عليهم قائد مختل كما هو واضح من عينيه اللتين تمثلان الكراهية والشيطنة وكل معاني الفساد الممكنة.

نظرة واحدة إلى عدتهم تعرف بها أنهم جاؤوا بأسلحة جديدة هذه المرة، رماح على طرفيها سواطير وسلاسل مطعمة بمسامير وأسواط عريضة كأنها سيوف.

رفع قائدهم يده كأنه سيأمرهم بشيء وقبل أن يكمل حركته اخترق رأسه سهم ثاقب قتله على الفور، وأصابت الباقين لوثة جعلت حركتهم السريعة أسرع، ولم تفدهم في شيء إذ كان هناك أكثر من مئة شوجان من أمهر الرماة يتوزعون على جوانب الكهف وأعلاه وأمامه أيضًا من اليمين أو اليسار حتى لا يُرصَدوا بالأتصال، وحدد سايروس لكل رام نقطة معينة يضربها في الكهف حتى لا تختلط سهامهم ببعضها بعضًا.

وفي اللحظة الأولى أصابت سهام الشوجان رؤوس الذين كانوا في الصف الأول والثاني، وحتى الذين حاولوا التراجع أصابتهم سهام في مؤخرات أعناقهم.

أصابهم التفرق والفوضى، وسقطوا أكوامًا، فالرامي من الشوجان كان يستحيل أن يخطئ هدفه من الضربة الأولى مهما كان الهدف سريعًا أو صغيرًا.

لكن بعض الجوج أفاق من المفاجأة سريعًا واستطاع بحركته السريعة أن يراوغ ويهرب من مجال الأسهم وينطلق للهجوم، لكن جيش سايروس كانوا عشرة آلاف، نصفهم شوجان من الإيمورتال ينتظرون هؤلاء المارقين الهاربين من الفخ ليتكالبوا عليهم.

كان الجوج الذين هربوا من الفخ أبرع من رفاقهم وأسرع، وهذا جعلهم كوارث دموية متحركة تقتل كل من يأتي بوجهها، وبخاصة أن

الأسلحة التي أتوا بها لم يتعلم المقاتلون في الأرض كيفية التصدي لها، وأي سلاح في الدنيا يحتاج إلى تدريب على مفاداته قبل التدريب على استخدامه.

ركض أحد مقاتلي الجوج إلى سايروس وأمسك برمحه الذي في طرفيه سواطير ودوره في الهواء بسرعة بالغة وضربه به في قوة، لكن سايروس تراجع بظهره وتفاداه بصعوبة بالغة بعد أن كاد يقطع رأسه، ثم اتضح أن الرمح عبارة عن عصا مقسمة من المنتصف فصلها الجوج عن بعضها فأصبحت سيفين حادين ضرب بهما الجوج سايروس قبل أن يعتدل من حركته، فشق جزءًا من صدره وسقط على الأرض مضرجًا بين دمائه، ولولا أن سايروس مد يده في لحظة ورمى خنجرًا استقر في نحر الجوج لكان أجهز عليه.

وعلى الجانب الآخر كان هناك أحدهم يقترب من بونيتا ببطء مستعدًّا للانقضاض لكن رأسه طار فجأة بضربة قوية من رمح في طرفيه سواطير، كان آرتي يمسك به ويقول:

- اللعنة علينا لمَ لا نصنع أسلحة كهذه؟

ووسط كل هذا الجنون صاح سايروس من بين وجعه صيحة يعرفونها، فهو وقت تنفيذ الجزء القاضي من خطته.

الجزء الذي يعدم الخصم فلا تقوم له من بعدها قائمة، وبالفعل تحرك الشوجان الذين في أعلى الكهف حركة مفاجئة وصبوا زيت المشاعل على الجثث المتكومة الكثيرة عند مدخل الكهف، ورمى بقية الشوجان سهامًا من نار سقطت من كل مكان على الجثث فاشتعلت على الفور.

وأنارت النار ظلمة الكهف وظهرت أفواج الجوج بالداخل وهم يصرخون ويستديرون هاربين، لكن لحظة الإنارة جعلتهم في مرمى الرماة بكل وضوح وهم متكدسون.

وكانت مذبحة سيندم عليها كل جوج قد خرج من بيته اليوم يريد الدم، لولا أن ظهر وسط كل هذا رجل يمشي إلى الكهف بخطوات هادئة والهواء يطيِّر عباءته وتلقي النار ظلاله على الأرض بذلك القناع الذي يلبسه، وذلك العور الذي في عينه، والثأر الذي في روحه.

***

قبل نصف يوم..

- هل تعلم من هو غريم؟

قالها سايروس بصوت هادئ لآرتي وهما ينظران إلى شروق الشمس في بيت مارج، فقال آرتي:

- لم أعد أدري يا سايروس، كل ما أعلمه أنه سيأتي ورائي، فقد هزمته مرتين كما حكيت لك.

قال له سايروس:

- وهل يأتي وراءك إلا المصائب يا آرتي؟

ابتسم آرتي ثم تقدم من سايروس وقال:

- أنا أعلم بالنار التي تستعر في قلبك، فعندي مثلها، لكن لا تدعها تشغل عقلك عن التفكير السليم، فقط اجعلها في قلبك.

انفرجت شفتا سايروس بالابتسام الحزين وقال:

- أنت الذي تقول هذا يا آرتي؟

قال له آرتي:

- قل لي لماذا تسأل عن غريم.

قال سايروس:

- لقد أخبرنا الخضر من هو.

مط آرتي شفتيه وقال:

- نعم لقد أخبرتني بونيتا بقول الخضر فيه، لكنك لم تقل لي، ماذا ستفعل لو أتى غريم إلى هنا بعدما عرفت من هو وبعد كل ما أخبرتك عن أفعاله؟ إنه سيذهب بكل خططك أدراج الرياح.

شردت عين سايروس في القمر وهو يقول:

- لو أتى غريم، فسنستقبله كما يليق به.

***

خطوة واحدة خطاها غريم ناحية الشق انقلب بعدها كل شيء.

انطفأت كل النيران بغتة من فوق الجثث وتصلبت مفاصل الجميع من رهبة المنظر، فالنار كان يبلغ دخانها عنان السماء لكن الشيطان كان يحرك الريح التي استدارت على النار فأطفأتها، وحتى يأجوج ومأجوج كانوا ينظرون بدهشة حقيقية اصطبغت على ملامحهم التي لم تكن تعرف إلا سمات التوحش.

وكان أول من تكلم سايروس، إذ صرخ في جنوده بعنف:

- اضربوه بالسهام من كل مكان، فهو بشر من لحم ودم، ليس شيطانًا، وليس إلهًا.

وعلى الفور انطلقت سهام الشوجان تخترق الهواء بدقة شديدة كلها موجهة إلى رأس الأعور وعنقه وصدره، لكن الذي يملك دفع الرياح لا تقتصر قدرته على إطفاء النيران، بل إن الرياح تحمل الرجال إذا غضبت.

وأمام أبصار الجميع كانت السهام تقترب من غريم ثم تبتعد عنه كأسراب النحل الهالكة التي تذروها الرياح، وأصبح الهواء يدور حوله والسهام تتطاير يمينًا وشمالًا مع ذرات الرماد المحترق من الجثث وهو في المنتصف ينظر إلى الجميع بعينه العوراء الكافرة المقيتة، ويأجوج ومأجوج يخرجون من ورائه بسرعتهم البالغة وأعدادهم التي لا حصر لها.

ووسط كل هذا ظهر آرتي مخترقًا الأجواء بحصانين يركضان بسرعة شديدة ويجران وراءهما عربة مملوءة بالحديد وهو يتمتم:

- فلنر قدرة رياحك على تحريك هذه الأثقال كلها أيها القذر.

ودخل بعربته وحصانيه في وجه غريم ليدهسه بقوة ولكن...

لا يمكنك أن تواجه المسيح الدجال ثلاث مرات وتبقى حيًّا لتحكي ما حدث.

كانت هجمة آرتي هذه أكبر خطأ، ففي استدارة واحدة نظر غريم ناحية الجوادين اللذين هاجا وتفرقا فجأة يمينًا وشمالًا بعيدًا عن غريم الذي رفع نفسه ممسكًا بعنق آرتي بيد واحدة ثم أهبطه على الأرض بقوة على ظهره وأمسك بعنقه بيد حديدية.

ثم رفع الأعور رأسه وظهرت على وجهه أمارات القلق الذي لم يره أحد على وجهه من قبل، وترك عنق آرتي بعد أن كاد يكسره بيد واحدة.

ووقف ناظرًا إلى نقطة واحدة ثم استدار وخنس من المكان كما يخنس الشيطان من وجه الحق.

فهناك بجوار سايروس كان يقف النبي البهي الجليل درة الزمان الخضر.

ولا يقدر الأعور أن يكون بمكان واحد فيه نبي كريم إلا ويفر منه، كما فر من وجه موسى وساح في الأرض، حتى يأتي موعد لن يخلفه.

12
العين

طلعت الشمس على جثث وأكوام وأوصال محترقة ووجوه يغمرها الهلاك بعد ملحمة طويلة من الدم، ورغم كل شيء كان الشوجان في مواضعهم حول الكهف ينتظرون خروجًا جديدًا، فالهزيمة التي لحقت بهؤلاء الرعاع ستجعل حلوقهم غاصة بها حتى يُخرجوا أبشع ما لديهم.

كان آرتي يتحسس عنقه في عصبية ويتذكر كل شيء، سايروس أصيب بجرح بليغ وحكماء الترك يطببونه سريعًا حتى يعود ويقود هذه الملحمة التي لا يدري أحد كيف ستنتهي.

وذلك الدجال غادر بلا أثر، وبقي في قلب آرتي شك يذبح قلبه.

ما هذا الكيان الشيطاني بالضبط؟ أهو إله؟

إنه يتحكم حتى بالرياح ولم يبق شيء لم يفعله.

لكنه فر كالجرذ المذعور فور رؤية الخضر، وهذا أسكن الهزة التي كانت في قلب آرتي بعد أن أحاطت به خيوط الشك، فثبَّت الله قلبه بالإيمان الذي أصبح باديًا جليًّا على وجهه وعينيه اللتين أصبحتا أقوى من السابق.

تنهد آرتي ونفض عن نفسه التفكير في أي شيء سوى هذه الفاجعة التي ابتُلوا بها دونًا عن أقوام الأرض، وركز عينه إلى الكهف بعناية، إنه يوقن أن الجوج يحضرون لمصيبة تليق بالمذبحة التي حدثت فيهم.

وعند الغروب ظهرت أصواتهم البغيضة التي يردها الصدى بين جوانب الكهف.

ولم يكونوا ألفًا او اثنين أو حتى عشرة، بل خرجوا من كهفهم هذه المرة في مئة ألف كلهم يركضون بسرعتهم التي تجاوز سرعة النمور، وكانت أول حركة حربية صحيحة يفعلونها منذ بده هذه الحرب، فالرماة من الشوجان لو وجدوا عشرات آلاف الأهداف تنطلق بسرعة من كل مكان، سيصعب عليهم إسقاطها كلها مهما بلغت براعتهم.

استخدم يأجوج ومأجوج نقطة الغلبة التي يستعلون بها على البشر وسيقنونهم بها في آخر الزمان، عددهم المهول الذي يبلغ ألف ضعف، ودخلت العين مذهولة إلى كهفهم وعالمهم غير المألوف لترى صفوفًا متكتلة محتشدة في طوابير طويلة لا تكاد ترى لها آخر، متوجهة إلى الكهف.

لكن ذا القرنين كان يحتفظ بلعبته الأخيرة للنهاية.

***

كانت اللعبة هذه المرة أكثر براعة من كل ما سبق.

دارت العين حول الكهف لتفهم، ولم تحسن الفهم.

كانت فوق الكهف مراجل كبيرة موقدة بنار عظيمة، وعلى هذه المراجل قدور، وفي داخل القدور ماء يتحرك ويغلي.

تخرج من القدور أوعية حديدية رفيعة تصل إلى أعلى الكهف فتتصل بأوعية حديدية عريضة مائلة مثبتة فوق فتحة الكهف كالمظلات.

تركيب عجيب من القدور والحديد لم يكن مفهومًا تمامًا حتى بدأت أصوات يأجوج ومأجوج تبرز من الكهف.

هنا بدأ هذا التركيب يعمل...

أعطى ذو القرنين الإشارة فأوصل الترك هذا التركيب وبدأ في العمل، وكانت مسلخة على أفواج يأجوج ومأجوج الغافلة.

الماء المغلي خرج من القدور فدخل في الأوعية الرفيعة التي أخذته إلى الأسطح العريضة المائلة البارزة من فوق الكهف فصبته في شلالات كاوية انهمرت بماء مغلي يشوي الوجوه.

ولم يكن شلالًا عاديًا، فتلك الأسطح العريضة بالأعلى كان طولها البارز من فوق الكهف ثلاثين مترًا.

وهذا يعني أن الشلال الحارق النازل منها طوله ثلاثون مترًا وعرضه بعرض الكهف.

نزل الماء الكاوي على وجوه يأجوج ومأجوج الذين كانوا يركضون في تعاظم مغترين بأعدادهم، فأحرق الماء رؤوسهم وجلودهم وانتزع أرواحهم الكافرة من أكبادها في محرقة جماعية لن يلقوا مثلها حتى تشتعل بهم نار جهنم في سعير يزيد على نار الدنيا سبعين ضعفًا.

وفوق الكهف عند المراجل كان هناك أكثر من ألف رجل وامرأة من الترك يقفون في طابور يسلمون بعضهم أواني كبيرة من ماء يأتون بها من البحيرة القريبة حتى يصلوا بالماء إلى القدور في حركة مستمرة لا تتوقف ثانية واحدة لتضمن بقاء هطول الشلال الحارق دون توقف، وكان الألف من الترك يتغيرون كل ساعتين فيأتي مكانهم ألف آخرون.

ضربت صرخات يأجوج ومأجوج جوانب الكهف في جلجلة مدوية تحمل أعتى نبرات العذاب، وحسب لهم ذو القرنين كل شيء، فلم يجعل الشلال قصيرًا بل طويلًا تحتاج إلى أكثر من عشرين خطوة من الركض حتى تجتازه والإنسان تغلي دماغه من خطوة واحدة.

لكن بعض الجوج رفعوا جثث زملائهم فوق رؤوسهم لتقيهم من لهيب الماء وتوجهوا خارجين في حركة تعني أن عقولهم كانت لا تزال تعمل رغم كل شيء، لكن حتى هذه لم ينسها سايروس بل جعل الشوجان بالأعلى يرمون شبكة من حديد أمام الشلال ويثبتونها في الأرض بأوتاد فولاذية، فكل من يجتاز ثلاثين مترًا حاملًا جثة زميله فوق رأسه يجد أن الممر موصد بشبكة حديدية تحرق قلبه من الكمد.

ولم تمض برهة من الوقت حتى تراجعت جحافل الجوج عائدين في حنق واحتدام إلى العالم الأسفل الذي جاؤوا منه محملين بالبغضاء لبني الإنسان.

***

كان الذي أعان ذا القرنين على عمل كل هذه الأدوات الحديدية التي نفذ بها هذا الفخ الحارق في وقت قصير، أن الحديد في أرض الترك أكثر من حديد القارة كلها وأغلب الترك وقتها حدادون يعتاشون من بيع حديدهم.

وبعد رجوع يأجوج ومأجوج بدأت النفوس تتنفس وانشغل ذو القرنين في عمل الردم الذي وعد به.

فجمع الحفارين من الرجال ليحفروا أساساته، وبينما يضرب الحفارون في الأرض سمعوا صوتًا مثل الخوار العالي في جوانب الكهف، كأنه صوت شيطان رجيم انفلت من قيوده.

وقبل أن يفهم أحد ماهية الصوت رأى الجميع كيانًا ضخمًا يرتطم بالشبكة في قوة، وتعلقت أنظار الجميع المرتعبة بثور جسيم يضرب الشبكة في هياج يركبه رجل من الجوج وهو يحمل جثة رجلين من زملائه فوق رأسه ليحتمي هو وثوره من الماء المغلي.

لم يكن ثورًا عاديًا من الذين تراهم في الأرض، بل كان ثورًا عملاقًا له ثلاثة قرون، ولم يلبث أن اصطدم بالشبكة ثور ثانٍ وثالث، كان واضحًا أن الجوج لن تهدأ ثورتهم أبدًا، ونجح أحد الثيران الوحشية في عمل ثقب كبير في الشبكة وخرج بالفارس الذي عليه وكل آلام الدنيا وغضبها يبدوان في وجهه.

ثم خرج من الشبكة فارس ثانٍ وثالث ورابع، ولم يكن الرماة قادرين على إطلاق سهامهم لوجود كثير من الحفارين أمام الشبكة وهذه الثيران المهتاجة تدور بينهم بفرسانها وتسحق كل من أمامها.

هجم رجال الشوجان من كل صوب بسيوفهم على الثيران الطائشة التي تحمل فرسانًا أكثر براعة من الجوج العاديين كما هو واضح على لباسهم المختلف.

ورغم أن الخارجين بالثيران قليلون جدًّا لا يتعدون العشرة، فإنهم أحدثوا فوضى ومذبحة عارمة، فسقط كثير من قادات الشوجان موتى وجرحى ومنهم بونيتا التي أصابها خبيث منهم في رقبتها بقطع شديد الخطورة، وجن جنون آرتي الذي كان منشغلًا بقتال أحدهم بينما ينظر إلى بونيتا بجزع فضربه الجوج ضربة غادرة شقت فخذه فسقط من حصانه على الفور.

وعمل فرسان الجوج شيئًا غريبًا لا معنى له إذ انحنوا فجأة يأخذون الجرحى من كبار الشوجان ذوي الأهمية وركضوا ناحية ثقوب الشبكة ليدخلوا إلى الداخل مجددًا لغرض في نفوسهم، وكان من ضمن الجرحى بونيتا التي أخذها أحدهم وانطلق ناحية الشبكة، ودخل عائدًا إلى كهفه وهو يرفع جسد بونيتا كمظلة فوق رأسه تقيه من الماء المغلي.

وبأعلى صوت يمكن أن يخرج من حنجرة إنسان صاح آرتي بما تبقى فيه من طاقة:

- أوقفوا الماء.

وعلى الفور أطاع الرجال أمره وأوقفوا الماء المغلي عن الهطول، وأنقذ آرتي بونيتا في اللحظة الأخيرة.

واتسعت عينا ذي القرنين في ذعر، فقد أخطأ آرتي خطأ فادحًا، فخروج هؤلاء الجوج ثم دخولهم الغريب رافعين أجساد الشوجان لم يكن عشوائيًا بل ذكيًا، لقد أرادوا شخصًا أهوج يصدر أمرًا كهذا بوقف الماء المغلي لحماية رفاقه من الشوجان، والماء المغلي حتى يهطل ثانية بقوة يحتاج إلى دقيقة على الأقل، وهي أكثر من كافية لهؤلاء الشياطين أن يتسلقوا على الكهف بسرعتهم البالغة ويضربوا الأوعية العريضة المائلة بالأعلى ويفسدوا كل شيء.

***

أدرك آرتي الخطأ الفادح الذي عمله فركض بكل قوة باقية في جسده والتقط موقدًا من مواقد الحدادين وصرخ بصوت عال:

- أعيدوا الماء، شغلوا الماء.

وعمل آرتي أكثر الأشياء جنونًا في حياته كلها وفي حياة أي أحد على وجه الأرض، إذ انحنى ودفع نفسه في الثقب المقطوع من الشبكة ودخل بلا تردد وراء بونيتا إلى حيث لا تنفع الرجعة.

دخل بكامل عقله وقلبه إلى داخل كهف يأجوج ومأجوج الذي سيهطل عليه الماء الكاوي بعد لحظات.

كان يعلم أن الماء يحتاج إلى بعض الوقت حتى يهطل مجددًا، وأقسم ألا يمس أحد الجوج الأوعية الحديدية العريضة التي بالأعلى ولو بذل حياته وفقد أطرافه كلها.

توقف ذو القرنين في مكانه وجميع مشاعر روحه تتهاوى وهو ينظر إلى آرتي الذي كان يضرب الجوج بسيفه يمينًا ويسارًا بالداخل ليمنعهم

من الوصول إلى الجدران والتسلق، ونجح بالفعل لأن الشلال الملتهب هطل عليهم جميعًا مرة أخرى، وآرتي وسطهم.

ورغم قهر ذي القرنين وحزنه فإنه يعلم أن ما فعله آرتي كان هو الحل الوحيد لتدارك الكارثة، ولم يكن ينوي أن يضيع تضحيته الثمينة هباء، فقال للناس في حزم:

- أحضروا الأحجار، سدوا هذه الشبكة.

هرع الترك يحضرون أحجارًا كبيرة من هنا وهناك ويثبتونها بقوة على وجه الشبكة ويضعون وراءها أحجارًا وأحجارًا ويضعون بينها الملاط ليصنعوا حائطًا قويًّا أمام الشبكة لا يمكن للثيران أن تخترقه بأي طريقة.

وفجأة اشتعلت نار هائلة بداخل الكهف وسمع الجميع صوت صراخ الجوج البشع بالداخل وخوار ثيرانهم.

قال سايروس وقد ابتهج قلبه:

- إنه آرتي.

عرف سايروس أن آرتي لم تهطل عليه الشلالات الحارقة، بل غالبًا نجا منها وأشعل النار في الجثث بالداخل ليلهي الجوج فيعطي الرجال مزيدًا من الوقت ليبنوا ذلك الحاجز الأخير.

ولم تمض هذه الساعة إلا وقد عمل الرجال حائطًا سميكًا من خمسة صفوف من الأحجار الكبيرة، وخمد صوت النيران بداخل الكهف، وخمدت الصرخات، ولم يعد هناك أثر لآرتي، ولا صوت.

***

انهزمت يأجوج ومأجوج شر هزيمة في هذه الأرض، ولم يكن يقدر عليها سوى رجل مثل ذي القرنين، وإن الله يهيئ الأسباب ويهيئ الرجال للأمور العظام.

وبدأ الترك يحفرون أساسات الردم، أكثر من عشرين ألف رجل يحفرون في الأرض ويتبدلون بعشرين ألفًا آخرين كلما أصابهم الرهق.

ولم يترك ذو القرنين الحفر حتى بلغت الحفرة قاعًا كبيرًا يصعب الوصول إليه حتى بالنظر ثم قال:

- آتوني زُبَرَ الحديد.

فجمع الترك كل الحديد الذي يمكن جمعه من أرض المملكة بلا استثناء وقطعوه زُبَرًا (يعني قطعًا) ثم صكوها إلى قوالب كأنها لبنات الطوب ورصوها على بعضها داخل الحفرة وتركوا بين كل قطعة وبين الأخرى قطعة فارغة.

حتى إذا ساووا بين الصدفين من الجبل (يعني جانبيه) أمرهم ذو القرنين أن يوقدوا نارًا كبيرة مُحرقة فقال:

- انفخوا في الأكوار.

فجاء كل حداد بالكير الذي معه وهو أداة ينفخ فيها الحدادون على النار لتزيد اشتعالًا، ونفخ الحدادون فيها حتى صارت النار في أوج اشتعالها فسخنت الحديد حتى صار أحمر كالجمرات الكبيرة التي تتهيأ للانصهار.

وبينما تصهر النار الحديد قال ذو القرنين:

- آتوني أفرغ عليه قطرًا.

فجاؤوا له بالقطر، وهو النحاس المذاب المنصهر، فصبه على الفراغات التي بين قطع الحديد المنصهرة، فتمازج الحديد مع النحاس وصارا قطعة واحدة بلا فوارق بينها.

وكانوا كلما رفعوا عدة صفوف من لبنات الحديد أوقدوا عليها النار وصبوا النحاس بنفس ما فعلوا بما أسفلها، حتى اكتمل الردم وسد الكهف عن آخره وصار كأنه حديدة عملاقة مسبوكة بنحاس في قطعة واحدة ليس بينها فراغات يمكن أن يقتلعها أحد.

أصبح شكل الردم في النهاية عبارة عن طبقات مرتبة أفقيًا، طبقة حمراء تعلوها طبقة سوداء تليها طبقة حمراء وهكذا.

استخدم ذو القرنين هذه الطريقة ليجعل الردم محاكيًا لشكل صخور الحديد الخام حوله التي تنتظم في الجبل كطبقات حمراء وسوداء تمامًا مثل الردم، وفي الشتاء تصبغه الثلوج باللون الأبيض فلا يقدر أحد عن تفريقه عن أكمات الجبل.

كان هذا التمويه مهمًا حتى لا يميز أحد السد من الخارج ويحاول الفتك به جاهلًا بما ورائه.

يسمي الجيولوجيون هذا النوع من صخور الحديد «تكوين الحديد الرسوبي»Banded iron formation وهي بالشكل نفسه الذي وصفه رسول الله، طريقة حمراء وطريقة سوداء (وطريقة تعني طبقة) وقد رآها أحد الصحابة مؤكدًا أنه رأى الردم فقال له النبي «قد رأيته».

ولم يكتشف العالم أن هذه التكوينات يمكن استخراج الحديد منها إلا في العصر الحديث بالقرن التاسع عشر، أما قبل ذلك كان العالم يستخرج الحديد من تكوينات أخرى.

وجبال تيان شان تحديدًا لم يستخرج أحد منها أي حديد من هذه الطبقات الحمراء والسوداء إلا في السبعينيات، ولن يمضي وقت طويل حتى يأتي وعد ربي وتنقض أركان الردم غالبًا بمعاول عمال استخراج الحديد من الجبال حيث سيضربونه طويلًا وهم يظنون أنه صخور حديد، أو سينقض بزلزال كبير في المنطقة.

وإن موقعه اليوم بين جبلين من الجبال التي فيها صخور الحديد الخام في سلسلة جبال تيان شان في إقليم تشينج يانج أرض الأويغور، وهم القوم الذين يضطهدهم الصينيون منذ بدء الزمان وحتى العصر الحديث.

وختم ذو القرنين بهذا الردم على مخرج الأرض السفلى فلم يعد يدخل إليها أحد ولا يخرج منها أحد.

حتى حين...

وانطلقت العين صاعدة إلى الأعلى وحلقت بين دروب جبال تيان شان حتى بلغت كاهنًا يمشي وحده بلا قلنسوة على رأسه، وبلا قناع، له عين عوراء، وشعر أجعد.

وظلت العين تقرب منه وتقترب

حتى دخلت في عينه، واستقرت

فقد كانت هي عينه منذ البداية.

***

وقف ذو القرنين على أعتاب السد تضربه رياح الثلج، وهي ليست أشد برودة من روحه.

هرمز، ليزا، إيما، ماندان، آرتي...

كلهم تركوه حتى أصبح فيها وحيدًا.

تذكر وحدته في ذلك السجن.

لكن أليس الآن هو الملك؟

وما نفْع الأرض وامتلاكها في شيء وليس معك فيها أحد تسكن إليه؟

سمع وراءه خطوات على الجليد ولم يعتن حتى بالالتفات.

ولما رأى ظله عرفه، كان الخضر.

التفت له بأدب.

قال له الخضر:

- ألم يكن معك في كل مرة، وأنت طفل، وتحت جحور العين الحمئة، وفي حمأة الصحراء ورمالها، أبعد هذا كله تظن يا ذا القرنين أنك وحدك؟

سال دمع ذي القرنين ساخنًا على وجنتيه وقال:

- إني فقط اشتقت للأحبة يا نبي الله.

قال له الخضر:

- لقد كنت لهم خير رفيق وأسعدت أرواحهم.

سكت ذو القرنين ونظر إلى السد ثم سأل الخضر:

- فهل لهؤلاء القوم من خروج؟

قال الخضر:

- سيبقي الله الردم قائمًا يا ذا القرنين رحمةً منه بالعباد إلى زمن اقتراب زوال هذه الدنيا، حتى إذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقًا.

***

تمت

سلاسل تقيد يديه ورجليه.

يجرونه على الأرض كما تُجر الذبائح في ظلمة من بعدها ظلمة أسفل منها.

لم يكن يدري لماذا لم يقتلوه بعد كل شيء.

أهؤلاء يضحون أيضًا للشيطان؟

وما هذا الشيطان الذي يريد لحمه فوق الأرض وتحتها؟

أطلق سبة وهو ينظر إلى الجوج الذي يجره.

وأرخى جسده المسحول على الأرض بلا اكتراث.